

عزيزى شارلى

كامل التلمسانى

عزيزي شـــــارلي

كامل التلمساني

صدر في إطار برنامج السينما الأمريكية
فـــبراير ٢٠٠٣

الطبعة الثانية
صدرت الطبعة الأولى عن دار الفكر في القاهرة عام ١٩٥٨

مكتبة الاسكندرية
مركز الفنــون
دراسات سينمائية
(١١)

مدير مركز الفـنون
شريف محيى الدين

رئيس التحرير
سـمير فريـد
مستشار المكتبة
لشئون السينما

مدحت نصر
مسـتشار المكتبة
للتصميم والطباعة

المدير التنفيذي
لبرامج السينما
ابراهيم الدسوقى

صورة الغلاف
شارلي شابلن
(١٨٨٩ - ١٩٧٧)

بـــدايـــة

عزيزي شارلي ..

عزيزي شارلي ..

منذ ثلاثين سنة مضت .. وجد صبي صغير نفسه أمام السينما، لأول مرة في حياته.

ولم يكن وحده، بل كان معه فقره، وبؤسه.

تراهما في كل ما قد تراه فيه من ثياب، وملامح، وسمات، ونظرات لما حوله، ولمن حوله.

حتى الدماء التي تجري في عروقه – إن كان لمثله عروق – دماء فقيرة بائسة.

حتى الهواء الذي كان يتنفسه .... يحمل إليه – فيما يحمل – الفقر، والبؤس .. وكل مخلفات الفقر والبؤس.

كان صبينا الصغير هذا قد هبط حديثاً من قريته البعيدة، الضائعة في ريف مصر، ليقيم هو وأسرته في المدينة الكبيرة، العاصمة .. القاهر.

وهكذا .. وجد نفسه أمام باب السينما.

لا أدري – الآن – كيف قادته قدماه إلى مكانه هـــذا، لكنني أدري تماماً كيف رأى غـيره مـن الصبية ينظرون إلى وجه دار السينما، ويطيلون النظر، فنظر معهم .. فرأى صورته :

صورة الإنسان الضئيل الجسم، الناحل الضامر، الشاحب الوجه .. قبعته المكورة السوداء .. والحذاء الضخم المرتوق، والعصا الخيزران المسلولة .. رأى كل هذا.

ثم طافت عيناه بالحروف المكتوبة على صورة هذا الإنسان، وأخذ يقرأ بصعوبة، ويحاول إيجاد الحل لما قد يكون خلف الحروف من معنى.

وأخيراً قرر أن هذه الحروف هي ولا شك اسم صاحب الصورة الذي استهواه من أول لقاء:

شارلي شابلن.

ظل الصبي في مكانه من طوار الشارع أمام صورة شارلي.

لا يريد أن يتحرك فيبرحها، ولا يقدر على الحركة .. حتى لو أرادها.

لقد وجه نفسه مشدوداً إليها، لا يقدر على فراقها .. ولايريد هذا الفراق، حتي لو قدر عليه.

ظل هكذا مدمناً النظر إليها.

وشرع يستذكرها، ويحفظها – عن ظهر قلب – كما يفعل مع «المحفوظات» المقررة عليه في مدرسته الابتدائية.

استذكرها جيداً، وحفظها حقاً ..

ثم .. أغلق عينيه، وتصورها بخياله، ليستوثق أنه حفظها حقاً كما يجب أن يكون الحفظ.

ثم فتح عينيه، وأعاد نظره إلى الصورة، ليستوثق من نتيجة امتحانه لنفسه .. ونجح في الامتحان متفوقاً، عشرة على عشرة.

هنا فقط .. سمح لقدميه بالحركة، وقدر على البعد عن شارلي وصورته .. البعد بقدميه فقط. وما كاد يفعل حتى رأى غيره من الصبية يتجهون نحو باب السينما، فاتجه معهم، وأمام بابها .. عرف شيئاً جديداً لم يكن بين معلوماته القاصرة التي جاء بها من قريته ..

عرف أن الدخول بتذكرات، وأن عليه أن يشتري تذكرة، وأن ثمن التذكرة قرش صاغ كامل .. فلابد من دفع هذا الثمن ليدخل مع الداخلين.

ولم يكن يملك هذه الثروة الطائلة، التي تمكنه من شراء جواز المرور .. إلى الجنة.

لن أصف لك مأساة صغيرنا وخيبة أمله، ولن أصف لك وقفته الموحشة أمام باب الجنة وقد دخل كل الصبية .. ما عداه، ولن أصف لك كيف منعوه حتى من الوقوف أمام الباب ، يرقب الداخلين.. وهو الذي يود الدخول، ويتوق إليه. لقد منعوه من الجنة، ثم منعوه حتى من الوقوف أمام بابها .. كل ذلك لأنه كان لا يملك قرشاً صاغاً واحداً ..

وفي اليوم التالي باع القاموس الإنجليزي الذي يحتل درجه في حجرة الدراسة بمدرسته .. ليشتري جواز المرور إلى جنته.

**

وفي ظلام السينما ..

رأى الصبي صورة شارلي على الشاشة وقد تجسدت ودبت فيها الحياة، وتحركت كما يتحرك الناس .. بقدرة قادر.

وما أن رآها هكذا .. حتى سرت في جسده رعشة ساذجة حلوة، عجز عن تفسيرها أو تعليلها، وراح مع رعشته في قصة الفيلم التي أخذته في أحداثها وشدّت إليها بصره وعقله وقلبه وروحه، فتتبع وقائعها بكل كيانه ووجدانه.

واستهوته القصة أكثر .. حين وجد شارلي يخوض غمارها، ويعيش في فصولها كما يعيش هو حياته مع نفسه، ومع أسرته، ومع الناس حوله .. في جماعة متجانسة تعيش مع الفقر والبؤس في صقع واحد.

حينئذ .. وجد صبينا - في شخصية شارلي - نفسه، ووجد فيها أشباهاً لناس ممن يعرفهم حق المعرفة بين أهل قريته، وبين أهل حارته، وبين أهله.

وما إن وعى هذا .. حتى زاد شغفه بقصة الفيلم، وبشارلي الذي يعيش في أحداثها، فتابعها



شارلي في الملجأ سنة ١٨٩٦

بوله جارف .. دونه كثيراً تتبعه لقصة أبي زيد الهلالي، التي أدمنها أيام إقامته في قريته.

لقد وجد نفسه وكيانه مع شارلي .. أكثر مما وجدهما مع أبي زيد، فعالم شارلي قريب من العالم الذي يراه ويسمعه ويحسه وما كان كذلك أبداً عالم أبي زيد .. المغرق في الخيال والبعيد عن دنيانا التي نحياها بين الخلق كل يوم.

هنا وصل صبينا إلى نتيجة، ربما كانت أكبر ما وصل إليه طيلة حياته من نتائج، ومن كشوف:

إن عالم شارلي أحسن من عالم أبي زيد، وإن شارلي أحسن من أبي زيد. وكشف آخر أهم مما سبقه ..

إن شارلي من أهل قريته، وأهل حارته، وأهله ..

ورفع من قدره إلى السماء عندما اعتبره .. حقاً وحقيقة، وكان صبينا يموت حباً للحق والحقيقة، وها هو – بناءً على ذلك – يموت حباً للإنسان الضئيل الجسم، الناحل الضامر، الشاحب الوجه الذي استهواه من أول لقاء.

زاد ارتباطه بشارلي بعد هذا الكشف الخطير..

فاندمج في قصته اندماجاً لم يحسه من قبل إلا مع أمه، دون سائر الناس جميعاً، وضحك من كل قلبه معه، وفرح بضحكه وملأ الفرح قلبه، وما عرف أنه ضحك وفرح هكذا في عمره من قبل.

ثم نسي همومه، ونسي مدرسته ومدرسيه ودروسه.

وكاد ينسى دروس الإنجليزي .. وهي لا تُنسى إطلاقاً ولمدرسها الغليظ القلب عصاه التي يعرفها، ويعرف لسعاتها، ويعرف جيداً آثارها الزرقاء الدامية على جلده.

ثم نسي دروس الإنجليزي، ومدرسها، وعصاه، وآثارها الزرقاء.

ومرت الدقائق .. وكل دقيقة تقربه من صاحبه شارلي، حتى أصبح وثيق الصلة به، وكأنه يعرفه تمام المعرفة من سنوات وسنوات تفوق أضعاف عمره .. وتزيد على أضعاف عمر صاحبه.

ولا أغالي إذا قلت لك : إن صبينا لم يلبث حتى أصبح وشارلي وحدة واحدة متصلة، لا تنفصل، ولا تقبل التجزئة. وسعد صبينا بهذا الاتصال الروحي، وخيل إليه أن سعادته هذه أبدية لن تنتهي

وفجأة، تبدل الحال.

جاء – في قصة الفيلم – عسكري غليظ القلب، وأمسك بشارلي ، إهتزت خلجات نفس صبينا وهو يرقب الحدث ويتابعه، وتوترت أعصابه، وملأ الرعب قلبه، وفاض فملأ كيانه حتى أحس كأن العسكري قد أمسك به عينه، في مجلسه من دار السينما بين المتفرجين.

وضرب العسكري شارلي ..

وشعر الصبي بوقع عصا العسكري على جسده هو، فوجل، ثم صرخ قافزاً من مجلسه، وضج بالضحك منه كل من حوله.

إنه يعرف هذه العصا، ويعرف لسعاتها، ويعرف جيداً آثارها الزرقاء الدامية على جلده، وما من شك أن هذا العسكري الغليظ القلب .. مدرس الإنجليزي تنكر في هذه الثياب الرسمية.

لن أطيل عليك، إلا لأخبرك أن قصة الفيلم وصلت إلى ذروتها فطرد العسكري شارلي من داره، وجعله شريداً في الشوارع دون مأوى ..

وبكى صبينا من أجل شارلي وتشريده، ومن أجل القسوة والغلظة اللتين عومل بهما.

وعندما انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار وقد اختفى شارلي كالطيف الهاتف أفزعه النور، خرج المتفرجون من السينما .. وصبينا مازال في مكانه من الدار لم يبرحها، وما زال فيما كان عليه من بكائه .. حتى أخرجوه والبكاء هو البكاء.

**

أتدري ماذا حصل للصبي الصغير ليلتها ..؟

مرض بالحمى ..

وصدقني - يا أخي - عندما أقول لك إنه مرض، وأن مرضه طال، وأن صاحبه شارلي لم يتركه وحده في نار الحمى المستعرة التي أصابته واستعمرت جسده الضئيل .. بل لازم خياله. وصدقني عندما أقول لك إن الدنيا قد اقتصرت على شارلي وحده في خيال الصبي إبان مرضه .. وبعد أن أبل من المرض.

أتدري ماذا فعل عقب أن فارقته الحمى؟

لقد أسرع، لتوه، فجاء بظرف وورقة وقلم ..

وأخذ يفكر كيف يكتب، وتحير من أين يبدأ، وكيف يبدأ. وأعانه الله .. في النهاية، وبدأ خطابه من حيث رأى معظم الناس يبدءون خطاباتهم إلى بعضهم، فكتب بيد ترتعش:

عزيزي شارلي ..

ثم توقفت يده عن الكتابة، وشرع ينظر إلى ما خطَّته يده، ويطيل النظر ويحدق فيه ..

ثم شطب ما كتب، وسأل نفسه: هل هو عزيزه حقاً؟

وأخذ يفكر، ويفكر ثانية، ثم كتب من جديد، بيد ثابته واثقة:

عزيزي شارلي ..

استمر الصبي في كتابة خطابه إلى عزيزه، ليعرض عليه أن يحضر إلى داره بحارة الأربعين بالقاهرة ..

ووصف له عنوانها وصفاً دقيقاً مسهباً، ليوجهه إلى بابها، وأرفق مع وصفه خريطة جغرافية مفصلة لمكانها من الحارة ولمكان الحارة من حي الصليبة حيث يقيم وأسرته.

ومع كل هذه الدقة .. خشى أن يخطئ شارلي عنوانه فذكر له، أن داره تقع بالضبط أمام محل بقالة الحاج مصطفى العطار وولده .. وهي أشهر من أن تعَرَّف.

لم يسأل صبينا أمه في أمر دعوته لصاحبه ..

إنها لن تعارض مشروعه الإنساني الجليل الذي أقدم عليه. لقد سبق أن أحضر لها – دون أن يسألها رأيها – كلباً يأكل الجرب جلده وروحه، وقبلت منه دون معارضة، وأضفت عليه وعى جربه من حنانها ما عجل له للشفاء. ولقد أقام بقية عمرة معه وشاركه في غرفته وطعامه، وزاد الكلب – بإقامته هذه – من عدد أفراد الأسرة التي تكفل لها الأم الغذاء كل يوم، ولم تئن المسكينة، وإن حق لها الأنين..

مثلها .. لن ترفض شارلي – الذي لا دار له – في دارها أبداً.

وما انتهى صبينا من خطابه حتى شرع يكتب عنوانه :

حضرة المحترم شارلي أفندي شابلن .. يصل ويسلم ليد حضرته في خير وسلام بسينما أوليمبيا الوطني الكبير بشارع عبد العزيز .. إلى مصر المحروسة ..

ثم وضع تحت «مصر المحروسة» خطاً، لزيادة التأكيد ..

وذهب فأودع كنزه فم صندوق البريد

وانتظر صبينا . ومر يوم، وأسبوع، وشهر، وسنة ..

ثلاثون سنة من الانتظار المتواصل .. لم يفقد فيها الأمل أن يصله الرد على خطابه . وصدقني مرة ثانية إذ أقول لك اليوم .. إنه مازال يتوقع الرد على خطابه .. في كل خطاب يصل إلى يديه حتى الآن.

إنا نتوقع المعجزات ممن نُحب.

**

هذه هي الحكاية الساذجة التي وددت أن أقصها عليك ..

ولقد جالت في خاطري حين علمت بالأمس آخر مواقف حكومة أمريكا من شارلي شابلن، ومن

أفلامه ، ومن رسالته في الفن والحياة.

إن حكومة واشنجطن تريد أن تلعب معه – في الحياة – الدور نفسه الذي سبق أن لعبه معه العسكري الغليظ القلب، في ذاك الفيلم الذي رأيته لشارلي منذ ثلاثين سنة، والذي ذكرت لك – لتوي – لمحات من مشاهده.

إن حكومة واشنجطن تريد تشريد شارلي شابلن في قارات العالم، كما شرده ذاك العسكري في الشوارع دون مأوى.

وأقول لك الحق .. لقد خفت على شارلي كثيراً، وبدأ المشروع الإنساني الجليل – القديم – يعاودني، ويلح عليَّ لإنقاذ صاحبي، بل كدت أفكر في إنقاذه مرة ثانية، وكدت أجيء بظرف وورقة وقلم .. لأكتب له خطاباً آخر أعرض فيه عليه أن يأتي إلى مصر المحروسة، ويشاركني داري.

لكني توقفت ، وابتسمت لسذاجة شعوري .. فالعالم كله داره . إن العالم كله داره ..

ومع هذا .. فداري تحت أمره، وبها شباك بحري يرد هواؤه الروح.

لكن .. كيف تمر هذه القضية هكذا بسلام، وهي أبعد قضايا الدنيا عن السلام، وعن مشتقات السلام.

وإستيقظ الصبي الصغير في أعماقي، فأسرعت وجئت بظرف وورقة وقلم، وأخذت أفكر كيف أكتب، وتحيرت من أين أبدأ، وكيف أبدأ، وأعانني الله .. في النهاية، وبدأت كتابي من حيث رأيت معظم الناس يبدءون خطاباتهم في مراسلة بعضهم بعضاً :

عزيزي شارلي ..

الفصـــل الأول

مولـــد نجـــم

مولـــد نجـــم

الزمان : سنة ١٨٨٩

أي .. بعد قرابة نصف قرن من حكم الملكة ڤيكتوريا ..

دعني أعرفك بها، لو سمحت ..

هي صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا وإيرلنده وإمبرطورة الهند.

ولا تسألني - أرجوك - كيف تصبح سيدة إنجليزية - وإن كانت ملكة - إمبراطورة للهند، مع بُعد الإنجليز عن الهنود .. وبعد الهند عن إنجلترا .. فهذا هو الاستعمار

وڤيكتوريا - التي عرفتك بها - لها غير ما ذكرت لك مستعمرات، وممتلكات، وبلاد حرة، وبلاد مستقلة، وبلاد تحت الحماية، وبلاد تحت الوصاية، وبلاد تحت الانتداب السامي .. وهذه هي الإمبراطورية.

لذلك، قال الأولون عن امبراطورية ڤيكتوريا : إن الشمس لا تغرب عنها أبداً.

وكان هذا حقاً، وا أسفاه.

فقد كانت الشمس في ذاك الزمان .. قاصرة، لم تبلغ بعد سن الرشد، فادعت الإمبراطورة الوصاية عليها .. هي الأخري، واستعمرتها بقوة السلاح، وضمتها إلى بقية الممتلكات لتعمل في ظل التاج البريطاني، تتلقى الأوامر من لندن، وتطيع هذه الأوامر، كبقية الممتلكات المختلفة ..

لذا كانت الشمس لا تغرب عن الإمبراطورية أبداً.

هذا هو الزمان الذي نبدأ منه قصتنا. أما المكان فهو لندن .. عاصمة الإمبراطورية التي كانت الشمس تعمل لحسابها سنة ١٨٨٩.

وبذكرى الزمان والمكان، أكون قد قدمت لك نصف الحقيقة فقط. أما نصفها - الباقي لك في ذمتي - فهو الفقر .. الفقر الإمبراطوري.

واستميحك عذراً في أن أعرِّفك به هو الآخر .. ما دمت قد عرَّفتك بصاحبته ڤيكتوريا وإمبراطوريتها ..

إن ڤيكتوريا وأسرتها، ورجال حكومتها، ورجال المال والأعمال المتعاونين معها، والأرستقراطية الباقية على قيد الحياة بجوارها .. كل هؤلاء يكوِّنون طبقة واحدة - أو شبه واحدة - لها وظيفة موحدة، على حسب خطة موضوعة لصالحها العام المشترك ومنفعتها الخاصة ..

وظيفتهم هذه هي الاستغلال ..

استغلال كل شعوب الإمبراطورية ، وفي مقدمتها .. الشعب الإنجليزي نفسه.

وهذا الاستغلال الإمبراطوري له نتيجة حتمية واحدة هي الفقر .. الفقر الإمبراطوري، والعياذ بالله.

هذه هي الحقيقة كلها، عارية.

بقي أن أدلك على مكان هذا الفقر المعظَّم في لندن. لقد اتخذ له حي كيننجتون محلاً مختاراً، وعنواناً رسمياً لإقامته، ولمباشرة اتصالاته الشخصية بأصدقائه العمال المحشورين في جحوره.. لاسيما عمال المسارح والملاهي من صغار الممثلين، وفي مقدمتهم الممثل المضحك المغمور تشارلز سبنسر شابلن.

في طريق جانبي من طرقات حي كيننجتون القذرة الضيقة، الموغلة في ضباب لندن الكئيب .. نلتقي بتشارلز هذا ، وهو يسير مع وجوه مُعتمة من الفقراء غيره، ومعهم – غير فقرهم – الجوع والحرمان .. والأمل.

الأمل في الخروج من أزمة بطالتهم التي طالت .. حتى صعب معها الحصول على لقمة العيش.

من أجل هذا ، سار تشارلز بين غيره من عمال المسارح ودور اللهو، مع بقية العمال المتعطلين، ومعهم مطالبهم التي ساروا بها، مخترقين طرقات حيهم كيننجتون في شبه مظاهرة إلى ميدان الترافلجار.

وهناك دَوَّى الهتاف كالرعد ..

ارتفعت الأصوات عالية تدوِّي بالمطالب لإصلاح حالتهم، والخروج بهم من الأزمة الاقتصادية الخانقة.

هتفوا، وهتفوا كثيراً، ولم يُجد هذا إلا ضياع أصواتهم .. التي فقدوها مع حقوقهم.

وعاد المتعطلون كما ذهبوا .. دون عمل، اللهم إلا البحث عن عمل. وكان آخر العائدين منهم ممثلنا المضحك تشارلز، الذي التقيت به من قبل. رجع إلى داره في كيننجتون، ومعه بطالته..

استقبلته زوجته «هنّا» في مدخل الدار، ورأت وجهه المتحجر .. كأنه رأس تمثال لم يفرغ صانعه من إتمامه فلم تتحدد معالمه بعد .. ملامحه عاطلة من أي تعبير . ولم تسأله شيئاً ..

إنها تعرف سلفاً بحكم العادة والتعود، لقد رجع دون أن يجد عملاً، وعم الصمت الخامل مدخل الدار والفراغ الذي يقود إليه، وساد الصمت بينهما ساعات طويلة .. حتى انقضى النهار وذهب.

ولما جاء الليل ..

لاح على وجه «هنّا» أنها تريد أن تخبر زوجها بشيء، لكنها ترددت واحتفظت بصمتها، وأحس

وشجعه تأثرها لنبضات يديه فسألها ما بها.

أطرقت حياءً وخفراً .. كالعذارى ..

وكرر سؤاله، وكررت صمتها ..

وظلت في إطراقها وهي تقترب منه حتى لاصقته، بجسدها وقلبها. ثم انفرجت شفتاها فانساب صوتها رقيقاً كالحرير يداعب أذنيه وهو يطوف بهما :

- تشارلز ..

وارتدت إلى الصمت ثانيةً.

ولكن أنفاس زوجها القريبة منها أعادت الحياة إلى صوتها وبعثت حريره خَفَّاقاً :

- تشارلز .. ستصبح أباً.

فجأة، ودفعة واحدة .. نسى ممثلنا المغمور المتعطل بطالته، ونسى الأزمة الاقتصادية، ونسى التجمعات في ميدان الترافلجار ..

نسى كل شئ في غمرة النبأ السعيد. إنها حامل، وسيصبح أباً، وحاول أن يقول شيئاً، ولم تخرج الكلمات من حلقه .. وإن رأت زوجته هذه الكلمات ذاتها تخرج من شفتيه، وتنطلق تتهادى لترفرف حول أذنيها وتقبلهما، وتسلك طريقها متبخترةً إلى قلبها فتغمره بالهناء، وتشيع الدفء في جوانبه.

لقد أدركت المرأة سعادة رجلها بحملها منه، وأحست بأبوته لجنينه منها.

وحاول تشارلز - مرةً ثانيةً - أن يقول شيئاً ..

ولم تقل شفتاه .. وقالت عيناه كل شئ، حين ولدت دموعهما وسط ما طوَّف بداره من هناء تلك الليلة.

**

توقفت البطالة بغتة - على غير ميعاد - ليطرق الحظ الباب ..

وفتح له تشارلز وزوجته هنّا، ليجدا عملاً في فرقة مسرحية صغيرة ستجوب ضواحي لندن والأقاليم المجاورة لها. والزوجة كزوجها ، ممثلة مغمورة، تعمل معه حين يعمل، وتشاركه في فنه على المسرح وتسهم فيه بجهدها.

بدأ العمل إذن ..

وأخذت الحياة الحقة تدب .. من جديد .. مع بدئه، وظهر تشارلز وهنّا على المسرح أمام الجماهير كل مساء، وظهر معهما جنينهما في بطن أمه المتضخم أمامها ..

هكذا بدأ هذا الجنين حياته الفنية علي خشبة المسرح .. قبل أن يولد.

وبينما الأم تواصل عملها ذات يوم .. جاءها المخاض، فأسرعت إلى غرفتها حيث تقيم هي وزوجها بجوار المسرح، وفي هذا الجحر الضيق .. قاست آلام جنينها الذي يناضل أنسجة جسدها لينفصل عنها، ليستقبل حياته خارج أحشائها ..

وخرجت إلى عالمنا في ١٦ أبريل من سنة ١٨٨٩ حياة جديدة، إذ رُزقت هنًا من زوجها تشارلز بمولود أطلق عليه أبوه إسمه نفسه .. تشارلز ..

هذا هو شارلي ..

لقد دقت الموسيقى عند ميلاده مثلما تدق حين تخرج للنور مناسبة سعيدة، كانت تنبعث مرحة لاهية من المسّرح المجاور .. حيث يعمل والده، واختلطت أنغامها بصريخه وهو يبدأ مشروع حياته.

لم يتوقع أحد من الناس لهذا الوليد شيئاً طيباً ينتظره، وله ما يعرف الناس من ظروف والديه القاسية، وحالهما السئ غاية السوء.

وكيف يتوقع الناس له غير هذا في يوم ميلاده، الذي ولد فيه مع الفقر في جحر واحد، ومع الشقاء يكتنف ولادته من كل جانب، ومع الهم يحيط به وبأسرته من تحت وفوق وخلف وقدام ..

ما توقع أحد من الناس له شيئاً قد يبشر بخير، أي خير.

لكن الإنسانية نفسها – ولا أريد أن أقول القدر – كانت في حاجة ماسة إلى وليد مثله، له ظروفه نفسها، وله مناسباته نفسها ..

كانت إنسانيتنا في حاجة إليه .. ليضيف إلى حضارتنا وفنوننا جوهراً جديداً، نحن في حاجة ملحة لإضافته إلى عصرنا، وتراثنا.

ولم يكن هذا الوليد رزقاً خاصاً بوالديه وحدهما، كالسواد الأعظم من مواليد الدنيا ..

كذلك لم يكن رزقاً خاصاً أو ملكيةً فرديةً لإمبراطورية فيكتوريا وحدها.

بل كان رزقاً عاماً للعالم، وللإنسانية كلها ..

كان ملكية جماعية للناس .. كل الناس.

وتشاء الإنسانية – ولا أريد أن أقول القدر أبداً – لهذا الوليد أن يولد في هذه السنة ذاتها من الزمان، وهي السنة نفسها التي أخترع فيها إنسان آخر سبقه إلينا هو توماس إيدسون .. اخترع جهاز الكنيتوسكوب، الآلة البدائية الأولى التي قامت عليها السينما فيما بعد ..

لقد ولد شارلي، وولدت معه السينما، في سنة واحدة، ولمصير واحد.

**

أحب هنا .. ونحن بصدد مولد شارلي، أن أؤكد لك تصويب شائعة من الشائعات الكبيرة التي يطلقونها خلفه .. الشائعة التي تُصر على يهوديته، فعلى الرغم مما قد يزعم بعض الثقات ونفر من العالمين ببواطن الأمور، فوليدنا ليس يهودياً ..

حقيقة أن الدم اليهودي يجري في عروق قلة من أفراد أسرته، لكن والده ليس يهودياً، وكذلك والدته.

وعلى الرغم من هذه الحقيقة المؤكدة .. يطلقون الشائعات خلفه وخلف والديه، وهم أبعد الناس عن الصهيونية والصهيونيين.

فالدين موضوع ، والدنيا موضوع غيره ..

وكثير من الثقات والعالمين ببواطن الأمور لا يعلمون .. أو يعلمون ويشيعون غير ما يعلمون.

وعلي كل حال .. لا أعتقد أن النضال اليومي في سبيل القوت قد ترك لوالديه وقتاً كافياً ليفكرا في أمر يهوديتهما أو مسيحيتهما.

إترك لي الآن مجالاً لأحدثك عنهما حديثاً عاجلاً، وإن كانا جديرين بالحديث الطويل العريض، فهمه من النماذج النادرة من البشر ..

الأب .. يُحب حرفته كممثل فكاهي يضحك الجماهير، وييسر لها سعادتها بأغنياته الخفيفة المرحة، وهو – فوق احترافه للغناء الخفيف – مُحب للموسيقى وللاستماع إليها، ولقد زاد هذا الحب من حساسيته ووداعته.

لم يكن رجل علم وثقافة وفكر، بل كان إنساناً عادياً، شأنه شأن الملايين من عامة الشعب في كل زمان ومكان.

لم يتميز عن سواه من بقية ممثلي الفكاهة الضائعين في وقته إلا بميزة واحدة واضحة تمام الوضوح، هي شدة حبه للناس وحب الناس له .. وارتياحهم إليه عادةً، لما يجدونه فيه من ود وصفاء.

هذا هو الأب، والأم ..

زوجة عطوف؛ محبة لزوجها مشغوفة به فوق العادة .. على الرغم من فقره وقلة نصيبه من الدنيـا ..

وتشارلز هو زوجها الثالث، فقد سبق لها الزواج مرتين، وسبق لها أن رُزقت قبل شارلي ابناً من زوجها الثاني، هو سيدني .. الذي يكبر أخاه بعامين فقط.

وهي – كزوجها – في شدة حبها للناس وارتياحهم إليها.

وهي مثله أيضاً .. في حبها للموسيقى، وإلمامها بفنونها إلماماً لا بأس به، وإجادتها الغناء والرقص كما تجيد التمثيل ..

وتساند زوجها في عمله كخير ما تساند الزوجات الأزواج، وقد أبت عليها هذه المساندة إلا الظهور معه على المسرح .. بعد أيام معدودة من ولادة شارلي ..

فطلعت على الجماهير تحمله بين يديها في لفافته، وأرتفع الضجيج والضحك والتصفيق، واعتبرت الأم ذلك بمثابة تحية استقبال رقيقة لها بعد انقطاعها القصير الطارئ عن المسرح، ولم تتمالك زمام نفسها فارتبكت لفرط تأثرها وكادت تبكي ..

وبكى شارلي ، بكى عالياً ..

فازداد صخب الجماهير، وضجت بالضحك والتصفيق .. والتصفيق عالياً كبكائه.

وهكذا نال وليدنا إعجاب الجماهير، لأول مرة في حياته.

**

كيف تريدنى أن أروي لك صفحات حياته منذ البداية؟

لن إخاله إلا ممثلاً للعوامل الخارجية المحيطة به، وبأسرته ، وبمجتمعه عليه أن يحيا تجربة حياته، وعليه أن يمارسها .

وما أظن أنها تجربة سعيدة، كتلك التي تصادف بعض المحظوظين، فعلى أسرته أن تهرول مع فرقتها التمثيلية المستمرة في تجوالها، ولا مناص لها من الرحيل قبل أن تقوى طبيعة جسد الوالدة علي مجابهة السفر والتنقل، وقبل أن يشتد عود الوليد نفسه . علي أسرتنا أن تعيش، وأن تساعد في عيش فمها الجديد الذي جاء إليها يصرخ ..

لذلك رحلت مرغمة، مضطرة، راضخة.

ولا أحسب أبداً أن حياتها كانت على بعض الراحة، أو بعض اليسر بل أعتقد جازماً أنها علي النقيض تماماً ..

فهناك غير السفر والتنقل .. الخوف الدائم من المستقبل المجهول وما قد تحمله بين طياته من احتمال العطلة وتوقع البطالة .. وللبطالة أشباح قاتمة تلازم الممثلين كأشباح الأدوار التي يلعبونها..

وهناك الخوف من الجمهور وإقباله أو عدم إقباله على حفلاتهم، التي يرتبط مصيرهم بمصيرها . ثم الرهبة التي يواجهونها كل مساء يقابلون فيه هذا الجمهور المستأسد عليهم .. الذي لا يقنع غالباً بما يقدمون له من تمثيل وضحك وغناء وموسيقى ورقص .. لقاء أجر هزيل للتفضل بالفرجة على كل ما ذكرت، وعلى غير كل ما ذكرت.



شارلي شابلن عام ١٩٠٠

هذه لمحة عارضة لعيشة .. أسرتنا المتقطعة، البعيدة عن الاستقرار والاستمرار..

وقد يحتمل الإنسان مثل هذه العيشة لفترة من عمره، لا تلبث أن تنتهي لكنه لن يحتملها مدة طويلة .. لاسيما إذا كان عليه تحملها ومعه طفلان صغيران ولد أحدهما منذ أيام.

ويكفيك أن تعلم أن الأم تعمل خادمة وطباخة ومُرضعة ومربية لطفلها طيلة النهار، وأنها تظهر علي المسرح ليلاً لتغني وترقص وتمثل وتضحك الجماهير، وعليها - خلال عملها الليلي هذا - أن تختطف لحظات بين فصل وفصل لتختلس نظرة إلى طفليها في ركنهما من داخل المسرح، وعليها - غير طفليها والمسرح - أن ترعى شئون زوجها وحياته اليومية ..

لا.. لا أحسب أبداً أن حياة أسرتنا كانت على بعض الراحة، أو بعض اليسر.

بل كانت حياة قاسية صعبة .. مرهقة.

ومع ذلك .. كانت حياة، ولم تستمر، فقد تجسدت المخاوف .. وظهرت أشباح البطالة - كما اختفت من قبل - دون موعد سابق .. حين توقفت الفرقة الجوالة، ليتفرق أفرادها كل في واد ..

ورجعت أسرتنا ثانية إلى حي المُعدمين من الناس وأشباه الناس كينجتون، رجعت ومعها فمها الجديد الذي جاء إليها يصرخ، ويطالب بالغذاء وبالكساء وبغير الغذاء والكساء ..

**

فتح شارلي عينيه على دنيانا فرأى عالمين .. كان لهما أثرهما العميق في تكوينه : الأول ، عالم المسرح .. رآه من الداخل ..

تنفس في هوائه من خلف ستاره، وسمع - أول ما سمع - ضجيج الجماهير وصخبها وصفيرها وضحكها وتصفيقها .. لتكون هذه الأصوات أول حصيلة أذنيه من أصوات الناس وتعبيرهم، ومن تجاوب هؤلاء الناس وما يشاهدون ويسمعون ويحسون.

والعالم الثاني، عالم الفقر والفقراء ..

رآه حوله في كل مكان فتح عليه عينيه.

وهنا بيت القصيد كما يقولون، ولا مفر إذن من الإسهاب في هذه النقطة الجوهرية ذاتها، ولا مفر من تركيز الكلام فيها وفي أثرها ..

إن أول ظاهرة وعاها عن هذا العالم الثاني هي بطالة والده وتعطله عن العمل، وما جره هذا من البؤس ومشتقاته ومتفرعاته ..

وهذه هي المأساة.

لا لما أتت به البطالة من قطع أسباب الحياة ومقوماتها المادية فحسب، بل أنها أشعرت الوالد

المتبطل بالجدب والعقم، كأرض طيبة أصبحت مواتاً لا نبت فيها .. وهي القديرة على الإنماء .. والإثمار، وجسد ناضج وروح أصابهما العقم .. وهما القديران على الإنتاج.

ومن هنا بدأت كارثة التدهور والانحلال لما تعطل الأب فأدمن الخمر .. ليفر بها من واقع مأساته، ولما أفرط في إدمانه حين طال به تعطله حتى جره هذا السوء إلى المرض.

وبمرضه .. إضطربت الأمور وتفاقم الخطب، وثقل الموقف على الأم المناضلة وحدها، بمفردها ..

تحدث فصول هذه المأساة .. وصغيرنا شارلي يفتح عينيه على مشاهدها فيراها على مقربة، ويعيش فصولها الواحد بعد الآخر، ويترك كل منها آثاره على تفكيره وتخيله، ويحفر جروحاً عميقة في ذاكرته وحافظته، وينقش في نفسه صورة بارزة للحياة وتجربتها التي يمارسها.

ولم يقتصر الأمر على مرض أبيه فقط ..

بل أخذت الجنيهات الأخيرة التي أمكن للأم تدبيرها بعد جهد .. أخذت تنفلت بسرعة مريبة، فللأطباء أسعارهم، ولأدويتهم أسعارها وما أكثر ما بحثت عن تطبيب الأطباء لرجلها دون جدوى، وما أكثر ما أملت في أدويتهم الشفاء له دون فائدة.

وانفلت الجنيه الأخير من يدها .. مع آخر طبيب، وآخر جرعة دواء. بينما الأب مازال في مكانه من فراشه، وقد اشتدت به العلة فلم يعد يقوى على مبارحته.

وطفلنا الصغير .. يجول حول فراشه، لا يفهم تماماً مما يحدث حوله شيئاً واضحاً.

وذات ساعة، أو ذات يوم إن شئت .. يبحث صغيرنا عن يد والده التي كانت تصطحبه للنزهة في طرقات الحي من آن لآخر، ولا يجد اليد الكبيرة التي كانت تقود يده ..

وسأل عنه أمه ..

فأخبرته أنه ذهب إلى المستشفى، وأنه يغيب فيه عنه إلى عودة قريبة وصمت الصغير، ثم وجل .. فلبث في مكانه لا يتنفس.

وما كان لأمه إلا أن تؤكد له وهي تضمه إليها .. إن غياب والده لن يطول، لكنه طال .. ثم طال.

وخارج المستشفى، وسط الليل الموحش الكئيب .. وقف صغيرنا وحده ساعات وساعات بطيئة طويلة، ظل بصره يرقب في أمل نافذة بعيدة قالت أمه له عنها .. إن أباه يرقد خلفها .. بقى هكذا في مكانه لا يتحرك ليلة بعد ليلة، يرقب خروج أبيه وعودته إليه بعد أن فقده بين الحياة والموت .. وإن كان صغيرنا لا يعلم تماماً ما معنى الحياة والموت.

تلمّس ذات ليلة النور الذي كان يطل عليه من نافذة حبيبه .. ولم يجد للنور أثراً، وانتظر النور طويلاً، كما انتظر خروج أبيه وعودته إليه .. ولم يخرج ولم يعد إليه ، وطالت غيبته.

مات .

وتلقى صغيرنا درسه الأول في معنى الحياة والموت، تفقد اليد الكبيرة التي كانت تصطحبه للنزهة في طرقات الحي من آن لآخر .. ولم يجد اليد الكبيرة التي كانت تقود يده.

**

أيـام الطـفـولة ..

من الصعب أن يضيف الناس إلى كنوز عواطفهم الأصيلة شيئاً جديداً - في جوهره - بعد أيام الطفولة.

ففيها يتكون جنين العواطف الأولى التي تحدد التكوين النفسي للإنسان، وفيها ترسم الخطوط العريضة لشخصيته الحقة.

وما حياتنا العاطفية بعدها .. إلا ترديد، وتشكيل، وتطوير لعواطفنا الأولى .. التي تتكون في طفولاتنا، ثم تلازم أعمارنا بعد ذلك.

لهذا .. وجب علينا أن نمعن التأمل في مختلف الانعكاسات التي زاملت طفولة شارلي، فهي وطيدة الصلة بتكوين شخصيته المستقبلة، وعلينا أن نمعن النظر في تأثيرات أسرته عليه من الناحيتين : المادية، والروحية، وأن ننظر إلى هذه الأسرة كذرة في المجتمع الذي عاش فيه .. فما هذا المجتمع إلا الخالق الأول لشارلي ولشخصيته.

إن المجتمع يصنع أفراده، وينتج الإنسان.

**

أعود .. لأذكرك بأن والد طفلنا قد مات.

فأصبحت أمه العائل الأول والأخير له، فزاده هذا الوضع العائلي الشاذ تعلقاً بها فوق تعلقه الغريزي، وقد صارت له المحور الرئيسي الذي تدور حياته حوله.

كانت - بطبيعتها - قديرة علي مواجهة الصعاب، ومع هذه القدرة تأثرت بموت زوجها تأثراً ترك طابعه على نفسها، التي أخذت تضعف وتنهار مع مطالب الحياة .. التي لا تنتهي لها مطالب.

واضطرتها الرعاية الواجبة لطفليها إلى الإنقطاع عن محاولة العمل في المسرح، ولم يكن لديها ما يساعدها على كسب قوتها وقوت عيالها إلا عملها هذا وحده.

قاومت ظروف واقعها المرير، وقاوم بجوارها طفلاها .. كما يقاوم بقية أولاد الفقراء عادة، حين يواجهون فقر أهلهم .. فينطلقون إلى الشارع، لالتقاط بعض غذائهم من هنا ومن هناك .. على حسب الظروف المواتية.

وفي شوارع حيّ كيننجتون وأزقته .. وجد طفلنا نفسه، كالكلب الضال ..

يلهو ويعبث مع أبناء الجيران، القذر والوسخ لا يبارحان وجهه، وأسماله الباليه لا تقيه شتاء لندن، والغذاء أقل من القليل.

وأقف بك هنا ..

لأقول لك إنه كثيراً ما تعذّر وجود هذا الغذاء الأقل من القليل، وكثيراً ما انعدم تماماً، وكثيراً ما يحث طفلنا عن مادة غذائه بين بقايا الخضر والفاكهة العاطبة .. التي يلقي بها الباعة وقد استحال عليهم بيعها .. بعد أن انعدمت صلاحيتها لتكون غذاءً لأى إنسان ..

وما أكثر ما أضفاه البحث عن هذا العطب ليجد فيه غذاءه، وليسكت به صراخ معدته .. التي لا يكف لها صراخ، ولا يخفت لها عويل.

وأطيل عليك، لأحدثك عن جوعه ..

كم من مرات وقف يجيل بصره من خلف زجاج وجوه المطاعم .. يرى الآكلين، والأكل ضرورة ومتعة محروم منها . وكم مرة وقف أمام المخابز .. حتى الخبز عز حصوله عليه،، ناهيك بمحلات بيع الفطائر والحلوى .. إذ يرى الكعك وأصنافه متعددة ولها فنون .. السكر والقشدة وشرائح الفاكهة المعسولة وغير المعسولة، كل هذا منقوش فوقه رسوم وزخارف تسر الناظرين .. فما بالك بالآكلين، وما بالك بالحالمين .. ؟

وكم اشتهى طفلنا أن يقرن إعجابه بالتنفيذ .. فيشترى بعض هذا الكعك، أو واحدة منه يأكلها لتوه .. دفعهة واحدة سريعة مقنعة .. تريحه من عذابه، لكن كيف السبيل إلى تحقيق الأحلام الكبار..؟

ومع ذلك .. لم يعجز ، لم ييأس، ولم يتقهقر ..

بل كان يأكلها دائماً .. بعينيه فقط.

وكان يلتهمها بأنفه، عندما تأبى رائحتها الشهية إلا غزوه ومطاردته .. إمعاناً في كيده وغيظه، ومع ذلم لم يقنع بنصف الحلول .

ما العمل إذن .. ؟

حاول أن يلوذ بخياله الخصب ينقله إلى آفاق من أحلام يقظته .. مليئة بالفطائر والكعك والحلوى وكل هذه الآمال العريضة التي تشتهيها معدته .. ولم تعترف معدته الخبيثة بأحلام اليقظة هذه التي يقدمها لها، فقد كانت معدة واقعية، لا تحترم الخيال ولا تعترف بالغيبيات.

وعلى الرغم من حداثة سنه، تعلم كيف يصم أذنيه فلا تستمعا إلى صراخ معدته..

**

ما من شك أن لسوء تغذيته أثراً كبيراً في هزاله، وأن لانخفاض مستوى المعيشة – أو لانعدامه – أثراً آخر في القلة غير الطبيعية التي وقف عندها جسمه .. المتعطل النمو.

وهو – على الرغم من ضآلته – من أكثر أطفال حيّه قُدرة على إثارة الشغب والعراك مع رفاقه .. كلما أتيحت الفرصة لذلك.

إنه يعوض نقصه الجسمى بحيويته، وبطاقته النفسية الفياضة، ليثبت وجوده بين الرفاق ..

لم ينخفض صوته عن أصواتهم، وغالباً ما ارتفع عنها جميعاً، وغالباً ما بذّهم في السباب والشتائم بأسلوبه الشعبي اللاذع .. الساخر من كل شئ ومن كل إنسان.

كان غنياً – أكثر مما يجب – في هذا اللون من الفن الشعبي المعبر عن النفس، والمعوض عن النقص. ولقد استغل قدرته الخلاقة هذه ليوطد مركزه بين زملائه، وليجعل من نفسه شيئاً مذكوراً بين أبناء شارعه. وليس من المستبعد – بل من المرجح جداً – أن شتائمه وسخرياته هذه التي ظهرت – أول ما ظهرت – في شوارج كيننجتون .. هي الإنتاج الفني الأول لشارلي، وهي – حقاً – أول صورة لظهور مقدرته البدائية على الخلق والإبداع .. مقدرته الفنية.

هذه ظاهرة جديرة بالتسجيل ..

وظاهرة أخرى :

لقد استهواه العالم خارج مسكنه، أكثر مما يستهوى الأطفال عادة في مثل سنه. أحب الشخصيات الدائبة الحركة في الطرقات، والنماذج البشرية القابعة في أركان الحوانيت .. كأنها بعض أثاثها ومتاعها.

وكان هذا العالم خارج مسكنه – بالنسبة له – دنيا متجددة تنمو كل يوم، وينمو بدوره معها، وتكبر هوايته لها .. لتكون له في النهاية كل دنياه، وكل هوايته ..

وقوّى من هوايته وحبه للشارع .. انعدام البيت في حياته...

إنه مجرد غرفة مفروشة من تلك الغرف التي تؤجر بفرشها الرخيص للفقراء. جدران أربعة يعلوها سقف، يقبع تحته ذليلاً بعض أثاث تافه لا شخصية ولا طراز له على وجه العموم .. هو مجرد أثاث انعدم فيه كل ذوق.

وفي هذه الغرفة الواحدة، تقوم كل الحياة البيتية من أكل وشرب وطبخ، ومن جلوس وزيارة، ومن استحمام وغسل .. وغير الاستحمام والغسل مما يفعل الناس في بيوتهم ..

وبها تنام أسرتنا آخر الليل.

فمن الطبيعي إذن أن ينعدم البيت المريح في حياة طفلنا

كما لم تكن هناك مدرسة يذهب إليها، فكان لابد له من الشارع ليمارس تجربته في مجابهة الدنيا .. وجهاً لوجه.

وفيه .. شرع يقتنص الفاكهة من الباعة الجائلين، وأقول هنا «يقتنص» بمعنى يسرق، ترفقاً مني بطفولته الشقية، التي تعاونت مع زملائه لوضع الخطط من أجل ذلك القنص المغذي .. الذي اعتبروه صيداً حلالاً، كصيد البر والبحر .. سواء بسواء.

وفيه .. الترويح عن النفس يقذف زجاج النوافذ بالحجارة، ولذة تهشيمه لسبب أو لغير سبب.

ثم هناك معاكسات عسكري الشرطة، المتبختر بنظراته المتكبرة المتغطرسة، يحاوره طفلنا بلباقة العفاريت، ويفر من وجهه في الوقت المناسب وهو يضج بالصياح .. ويضج الزملاء بالضحك.

ومشاغبة من يلقي به قدره في طريقه من السذج والبُلّه . ومتعة الضحك من النافلين ، والإيقاع بهم بين الحين والحين ..

والفرجة عى فتيان الحيّ ومشاغبيهم، وتنازعهم السلطة والسيطرة .. وما في ذلك من إثارة وتشويق، وما فيه من تسلية وترفيه عن النفس.

كان يحب الشارع وعالمه من أجل هذا كله، ومن أجل شئ آخر قد تعجب له، وتعجب لبعده كل البعد عما ذكرت لك :

المكتبة القديمة ...

لقد فتنته هذه المكتبة المجاوره لحيّه، وتدله في وجهها لما يعرضه خلف زجاجه من كتب قديمة متوسطة القدم. لم يكن يعرف القراءة والكتابة حتى يود الاطلاع عليها، لكنه يحب ما يراه من صور تُزين صفحاتها، ومن رسوم تشده إلى كل صفحة من هذه الصفحات التي تواجهه ..

وتمنى على الله رؤية هذه الكتب من قريب، وتقليب صفحاتها بيده، واستعراض ما بها من صور، وما بها من رسوم.

ما العمل..؟ وبينه وبين أمنيته مانع من زجاج، وبينه وبين الشراء مانع من فقره وندرة الدراهم في يده ..

وكانت صور هذه المكتبة .. حبه الكبير

وحب كبير آخر :

مشاهدة «الفانوس السحري» وما يعرضه أمامه من صور العالم العجيب البعيد عنه، والذي يتوق إلى رؤيته ابتغاء الفرجة كما يفعل القادرون ..

ومن أجله وحده، بحث ونقب عن الدراهم بكل السبل والطرق ليرى صور قصصه الذي يعرضه .. ساندريللا وما كان بينها وبين زوجة أبيها العاتية .. دون كيشوت النحيف الطويل فوق حصانه الهزيل يحارب طواحين الهواء .. ذات القبعة الحمراء والذئب الذي يريد افتراسها .. وغير ذلك القصص المصور مما يحلم برؤيته الأطفال ويتوقون إليه ..

وأدمن مشاهدة هذه الصور حتى آخر درهم أمكنه الحصول عليه وغزت هذه الصور روحه وملأت كل خياله فلم يعد في أحلام يقظته غيرها، ولم يعد في أحلام نومه سواها. وحرك ذلك شوقه إلى العوالم البعيدة عن دنياه المحدودة في «كيننجتون» .. حيّ المعدمين من الناس وبقايا الناس.

وأهم من هذا كله .. أنها أثارت فيه إعجابه بطريقة عرض القصص في صور .. صورة بعد صورة.

ومن هنا ..

بدأ طفلنا شارلي يتخيل من الأحداث والوقائع ما شاء له خياله. يتخيلها جميعاً على هيئة قصص، وقصص يُروى على الناس في صور ..

صورة بعد صورة.

**

تراكمت أحداث حياته اليومية في ذاكرته، وامتزجت بأعماقه .. ذخيرة قاسية لطفولة معذبة.

ونظر إليها من وجهة نظر بريئة، يمكننا أن نسميها – دون حرج كبير – وجهة نظر مسيحية خالصة ..

وأقول عنها «مسيحية» وصغيرنا لا يعرف على وجه التحديد ما المسيحية .. وما المسيح، اللهم إلا ما عرفه من تلك الصور التي دأب على رؤيتها في «الفانوس السحري»، وفيها لمحات من قصص المسيحية والسيد المسيح عليه السلام.

وفي يقيني .. أن هذه الصور قد أكسبت صغيرنا شارلي بعض تعليمات المسيحية، وأولها سماحتها وإشعاعها الإنساني نحو الفقراء .. وتقدير العطف على البائسين والتعساء أحباب الله .. والحدب على المعذبين والمساكين وصغار الناس المستضعفين في دولة الأقوياء.

إن أول ما يطالعنا في المسيحية هو الحب ..

وهو – أيضاً – أول ما يطالعنا في وجهة نظر صغيرنا إلى الناس وإلى الأشياء حوله، وأول ما يطالعنا في تأثره – على الرغم من صغره .. بأحداث حياته وأسرته.

لم يغنم الحب من المسيحية وحدها .. ولم يكتسبه مما فهمه من تعليمات المسيح وحده.

بل من علاقته الحنون بأمه .. كذلك، أمه الطيبة الصالحة ..

فحبه للناس، الذي أخذ يلون سلوكه الآن، ينبع – أول ما ينبع من فيض حبه لها، وهي الأصل في طاقة الحب عنده ..

ويكفيك أن تتخيل علاقته بها، وتستمع إليها وهي تخبره بمشكلات معيشتهم، وبما تعانيه صحتها الضعيفة التي كادت تنهار من يوم ليوم. ويكفيك أن تتصوره يُصغي إليها بجوارحه وكأنه يفهم كل ما تحدثه من أمور .. هي مما يُحدِّث بها كبار الناس بعضهم بعضاً، ومما لا يعرف عنها الصغار إلا القليل .. أو لا يعرفون عنها شيئاً، لكنها تحدثه عنها. ثم يكفيك أن تحس به بعد ذلك وقد حمل معها قلقها، وشاطرها ضيقها ، وشاركها في خوفها مما قد تأتي به الأيام .. ويكفيك أنه حزن من أجلها أكثر مما حزن من أجل نفسه أو من أجل أخيه .. ولم يكن يملك إلا حزنه يبذله سخياً من أجلها ومن أجل حالها.

وعن طريق حبه لأمه، نضج شعوره ووعيه لها وللناس، فأحس بمسئوليته الغريزية نحوها ونحوهم، وتبين بينه وبين نفسه أن الرجولة المبكرة قد طرقت طفولته فرأى موقفه واضحاً جلياً..

لا مناص له من مشاركة أمه .. حبيبته .. في نضالها من أجل الحياة .. ولا مفر من الكفاح في سبيل الرغيف.

هكذا بدأ صغيرنا – إبن السادسة – العمل الجاد، بدأ أول ما بدأ بمساعدة أمه في حياكة ملابس الجيران والمعارف من أهل الحيّ، فعمل بائعاً للجرائد، وبائعاً للعب الأطفال التي تفنن في صنعها من الأوراق المهملة وقصاصات الأقمشة، ثم عمل صبياً عند حلاق ..

وعلى الرغم من كل ما عمل ..

لم يتمكن من درء الجوع عن نفسه وأمه، فحاجات العيشة أكثر مما يقدر أفراد أسرتنا على كسبه وتدبيره، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

لن أقف بك عند هذا الحد من أيام طفولته ومأساتها، إلا لأذكر لك جانباً آخر منها :

الغرفة المفروشة التي يسكنها هو وأسرته ..

فلها إيجار، وإيجارها متأخر، وتأخره مشكلة مع صاحب المِلك الذي يُلح في طلبه ، ويُصر على الدفع .. والدفع السريع العاجل.

حاولت الأم تدبير نقوده ، دون جدوى ..

ودأب المالك على مطالبته إياها حتى جف ماء وجهها.

ثم حاولت الأم – مرة ثانية وثالثة – تدبير النقود، وخابت المحاولة. وحاول طفلاها معها .. مرة رابعة وخامسة ، ومرة سادسة.

وعجزوا جميعاً عن الدفع .

ثم تنتهي فصول مأساتنا نهاية غير سعيدة، بطبيعة الحال :

الأم وابناها في عرض الطريق، حاملين ما تبقى من فراش نومهم التافه .. يبحثون لقضاء

ليلتهم عن مكان - أي مكان - في عاصمة الإمبراطورية التي كانت لا تغرب عنها أبداً.

وضاقت بهم العاصمة .. على سعتها وسعة إمبراطوريتها.

يعلم الله وحده كيف باتوا ليلتهم ..

وكيف كانت محاولاتهم ومناوراتهم بعدها .. حتى وجدوا الجحر الذي عثروا عليه، ليواصلوا في ضيقه حياتهم، ويصلوا فيه عيشتهم.

فعليهم الاستمرار .. بكل ما في كيانهم من طاقة لتحقيق وجودهم، يوم لهم وأيام عليهم، لكن كان من المحال أن تستمر حياتهم هكذا، ولا مناص لها من التغيير والتبديل .. بشكل أو بآخر ..

وقد حدث ذلك بأسرع مما كان يدور بخلد طفلنا.

ذات يوم .. انتهى صغيرنا وأخوه من تجوالهما الدائم في الشوارع ، جرياً وراء العيش، ولم يعد أمامهما إلا العودة إلى الجحر آخر المطاف وإنهاء يومهما، وعندما اقتربا من بابه .. وجدا جمعاً من الجيران وغير الجيران في جمهرة أمامه، ووجدا الصبية من الزملاء ينظرون إليهما وعلى وجوههم مسحة من وقار جاد تكلفوه تكلفاً، والصمت يحلق فوق الرؤس جميعاً، وكأن القوم في مآتم..

انخلع قلب صغيرنا .. يد غليظة لا رحمة فيها انتزعته من بين ضلوعه واعتصرته بين أصابعها، ولم يحس هذه اليد تتسلل إلى صدره، وأحس كل شئ بوجدانه، ورفع عنه الحجاب .. فأسرع فزعاً نحو جحره، ووجيب قلبه يسبقه إليه ..

ولم يجدها .. لم تكن أمه هناك.

علم - فيما بعد - ما حدث في غيبته. قالوا له إن عربة المستشفى جاءت، وأنهم أخذوها في تلك العربة المغلقة، وذهبوا بها بعيداً خارج نطاق الحيّ كله، ذهبوا بها إلى حيث لا يعلم .. إلى المجهول.

وتطوع من أخبره بأنها وقعت صريعة الانهيار العصبي، الذي قادها إلى الجنون.

الجنون!

ولم يعد يسمع شيئاً مما تطوعوا بإخباره به بعد ذلك. اقتصر سمعه علي كلمة الجنون فشُل عندها وتوقف، وأخذت الكلمة تتضخم ويتكاثر صداها ويكبر ويتضاعف في أذنيه .. الجنون .. الجنون .. الجنون .. حتى كاد يُجن.

ثم أحس سؤالاً في أعماقه يطفو ويتضح لنفسه فيراودها ويلح عليها .. ما الذي يعنيه الجنون على وجه التحديد؟

وأحس سؤالاً آخر لاحقاً لسابقه : لماذا جنت أمه ..؟

ولم يجد الإجابة الشافية عن سؤاليه.

من ثمة .. حاول أن يفكر فيما حوله، خارج نطاق نفسه وإحساسه . لكن تفكيره انتقل به فارتد إلى ما كان فيه من قبل، واجتر ما قالوا له عن أمه وماكان من أمر جنونها .. حتى استقر وعيه عند كلمة المستشفى..

وهنا، تذكر والده الذي مات في المستشفى. لقد نقلوه إليها و .. مات فالمستشفى لها علاقة بالموت إذن .. ذهب والده إليها حياً ولم يخرج منها حياً كما دخله، بل مات ..

لماذا يموت الناس ..؟

سؤال لا إجابة له.

حقاً .. لقد تغيرت الحياة فجأة، فما كان لحياة بائسنا الصغير أن تستمر على الوضع الذي اتخذته قبلاً، وما كان لها أن تظل كما كانت، كان لا مخرج لها إلا التغيير والتبديل .. بشكل أو بآخر، وهكذا تغيرت وتبدلت ، وهكذا تغير وتبدل معها كل شئ ..

لقد فقد أمه، وفقد الوجود كله مع فراقها، وذهب تائهاً عبر الدنيا بمفرده، في عالم استغلق عليه فهمه والتبست عليه أموره..

الحياة لا تعمل على هزيمة الإنسان ..

ولا تقدر على هزيمته أبداً ..

بل هي التي تحشد ذاتها وتمده – في ساعات ضعفه ويأسه – بالمقاومة، وبالرغبة في الانتصار.. حتى ينتصر، ويحقق نصره، ويؤكده.

والنصر يسير في ركاب الإنسانية النامية منذ بدء الخليقة وفجر التاريخ. يلازم بشريتنا الصاعدة، ويصاحبها دواماً وتباعاً . وما تاريخنا – أعنى التاريخ المطلق للبشر – في جوهره .. إلا مواكب نصر للإنسان ..

حلقات يكمل بعضها بعضاً .. حلقة إثر حلقة ..

وكل حلقة تحقق نصراً جديداً على عدو جديد، سواء أكان هذا العدو هو الطبيعة وعناصرها الأولية، أم كان هو المجهول وراء هذه الطبيعة، أم كان هو الحياة ذاتها .. أم كان هو بعض البشر المنحرف من أعدائها .

أما الصفات .. التي قد توجهها الحياة للإنسان ، فهي التي تمده – غالباً – بالوقود اللازم لمواصلة كفاحه من أجل التقدم، خطوة .. أو بعض خطوة ، إلى الأمام.

وها نحن أولاء نرى ..

نموذجاً من البشرية، إنساناً صغيراً في ظروف قاسية جد القسوة .. هو طفلنا شارلي، يستمد من صفعات حياته قوة عزمه القوى على مواجهتها، ومجابهتها، وانتصاره عليها، ليقدمنا خطوة .. إلى الأمام.

إن أمامه طريقه ومصيره ..

قد لا يعرف بشكل إيجابي واضح هذا الطريق .. لكن مجتمعه، وبيئته وظروفه المادية، والحقبة التاريخية التي عاش فيها .. كل أولئك يوجهه إلى المصير الذي ينتظره في نهاية طريقه.

عليه أن يقاوم ، وأن يعرف المقاومة من أجل النصر، وماكان النصر في خياله يومها .. إلا مجرد الرغبة الغريزية في المحافظة على النفس من أجل البقاء ..

عود على بدء إذن ..

تصعلك صغيرنا وأخوه في الشارع ، وعاشا حياة المشردين المعدمين من الكلاب البشرية ..

التي تضرب في صحراء الوجود على هامش الأحياء.

عيشة بالتقسيط .. ساعة بعد ساعة، ويوماً إثر يوم.

وتقدمت المشكلات نحو طفلنا، وأولها الغذاء .. فما أن ينال وجبة تافهة ينقطع بعدها التفكير في آلام المعدة حتى ينتهي أثر اللقمة التي ذهبت، ويعود التفكير في الوجبة التالية وفي الوسيلة إلى العثور عليها. وقد يعثر عليها سريعاً دون داع، وقد لا يجدها إلا متأخرة .. على حسب تصريفات القسمة والمصادفة، أو على حسب القدر والنصيب، أو الوعد والمكتوب .. كما يقولون.

عيشة قدرية .. ترتبط بالحظ.

والحظ لا رابط له، ولا ضابط لإيقاعه، وإن شئت فقل .. لا إيقاع له على وجه العموم.

لكن طفلنا قد تعود - بعض الشئ - التنقيب عن غذائه من قبل، وعرف سبيله إلى فضلات الأزقة، وفيها ما قد يكفيه لخداع صراخ معدته .. والحق أنه قد حاول خداعها .. وفشلت محاولته، وجرَّب أن يعلمها الصوم وفضائله .. فلم تتعلم، وعاش صغيرنا على غير وفاق مع معدته وجوعها.

ومشكلة أخرى ..

لقد قضى نهاره في الشارع، وأتى عليه الليل وهو مازال فيه، ولابد من تدبير أي مكان يُؤويه ليلته.

فكر، وفكر، وحاول التفكير مرة ثالثة .. دون فائدة.

ووجد نفسه يبكي .. ثم قاوم رغبته في البكاء، بكل ما في طاقة طفل للمقاومة .. لكنه وجد نفسه يبكي ويستمر في بكائه، ووسط عويله .. تذكر الحديقة القريبة من كيننجتون ..

وفي ركن منها بات ليلته الأولى.

وتكررت الليالي، وأصبح ركن الحديقة العامة هذا .. غرفته الخاصة، دون أن يضايقه المالكون بإيجارها المتأخر، كما كانوا يفعلون مع أمه .. عندما كانت له أم بجوراه ترعاه، ويرعاها.

أما النهار .. فأمره أسهل من الليل. ولقد سبق واعتاد مشكلاته، وأضحى خبيراً بها .. أخصائياً في شئونها ..

وعلى الرغم من جدارته هذه، أحاطت به معضلات نهاره من كل جانب، وأذاقته مرة بعد أخرى طعم الدموع في هذه الفترة العصيبة التي يمر بها من عمره .. حقيقة أنه كثيراً ما كان يغالب دموعه.. لكن ما أكثر المرات الي بكى فيها، وما أكثر المرات التي حاول أن يشق لبسمته طريقاً إلى شفتيه دون جدوى .. إلى أن عرف أخيراً كيف يرسم الابتسامة على وجهه رسماً، خيفة أن ينسى الابتسام.

وتعزَّى بابتسامته المرسومة حتى أوصلته إلى أول خطوة في طريق النجاح، حين قلد لزملائه



داخل طوق النجاة مع فرقة كارنو آثناء جوله في امريكا عام ١٩١٠

– ذات مرة – بعض شخصيات الشارع التي يعيشون بينها، وسخر من تصرفاتها بحركاته الهازئة، وما كاد يوغل في تمثيلة لها حتى ضج بالضحك منه كل من رآه ..

وهكذا بدأت القصة.

لقد أثار ضحك زملائه بفعلته هذه، ومن هنا أخذ يعمل فكره فيما رآه منهم .. كيف ضحكوا وكيف أمكنه أن يضحكهم، وكيف تسنى له انتزاع ضحكاتهم المجلجلة بسهولة من قلوبهم المطبقة على الهم والكرب؟

وراجع طفلنا نفسه ..

لقد قلد لهم الشخصيات الشاذة التي لا يحبونها .. عسكري الشرطة المتعجرف .. صاحب الفتوة الضخم الجثة .. الغني المتغطرس الشامخ الأنف .. العجوز الشوهاء المتصابية .. البقال . لم يجد ما ما يقنعه من مراجعته لنفسه، ووجد أنه قدير على انتزاع الضحكات من الناس بسهولة.. أكثر بكثير من انتزاع دراهمهم ..

هذه هي الخطوة الأولى في الطريق الطويل.

وتلتها خطوة ثانية، عندما عرف أنه يجيد الرقص أيضاً، على طريقته الخاصة المضحكة، فما اقترب عازف البيانو المتجول حتى بدأ يرقص، ويعجب الزملاء به، ويتعلم شيئاً جديداً من إعجابهم هذه المرة ..

تعلم كيف يخطو في حياته العملية جاداً ..

فقرر أن ينتزع بعض دراهم الناس لقاء إضحاكهم وإمتاعهم برقصه، وبدأ التنفيذ لتوه ..

ما عليه إلا أن يتبع عازف البيانو المتجول ، فيرقص على أنغامه أمام المارة ويقوم بحركاته البهلوانية التي حذقها، وفي الوقت نفسه يقدم أخوه سيدني قبعته خلسة للمتفرجين .. على حين ينهمك عازف البيانو في غزفه..

وفي النهاية .. يجرى سيدني بالقبعة فيها الدراهم، ويجري شارلي خلف سيدني، ويجري عازف البيانو خلف الاثنين. دون جدوى.

ونجحت اللعبة ..

وينقضي يوم، ويجيء آخر، وتتوالى أيام شريدنا الصغير بخير أو بشر، إلى أن جاء يوم لم ينقض على خير أبداً ..

**

فجأة ..

تنبهت السلطات الحكومية إلى وجوده

وقبض رجال الشرطة على شارلي وأخيه بتهمة التشرد، وقررت السلطات المسئولة إدخالهما المستودع المجاني المعروف رسمياً بهذا الاسم .. الملجأ .. «ملجأ هانويل للأيتام».

فتح رجل الشرطة بابه، والباب من حديد، كقلب السلطات التي تنبهت أخيراً إلى طفولتنا الممزقة في طرقات لندن.

ومن خلال فتحة الباب الكبير .. ظهرا فى أسمالهما البالية المرتوقة كقلبيهما، وتحركت أقدامهما الصغيرة المترنحة تتعثر في مشيتها لتدخل، وأغلق رجل الشرطة بابه.

وفي يقيني أن طفلنا لم يتوقع إطلاقاً – طوال حياته القلقة التي مر بها – ما كان من أمر هذا المستودع الذي أخذوه إليه. لم يكن في حسبانه قط أن أيامه ستقوده إلى ما قادته إليه.

وكما سلب القبر والده، وكما سلب المستشفى والدته، سلب الملجأ كل ما بقى له في الوجود:

الحرية.

لم يكن ملجأ . كان سجناً ..

وفي هذا السجن .. تلقى شارلي أول دروسه في معاني الحرية، وفي أهمية الحرية، وفي ضرورة الاحتفاظ بها لنفسه ولمن حوله، وغالباً ما يتلقى الناس أكبر دروس الحرية في السجون.

أحس طفلنا – في هذه الفترة القاتمة من حياته – أنه يخوض أكثر أيامه إيلاماً لنفسه، فأين هذه الأيام من تلك التي مضت وهو يجوب الشوارع ويذرع الطرقات حراً سعيداً بحريته.

وما عليه لو اجتر ذكريات الأيام التي مضت .. ليعيش على ذكراها أخذ يرى والده يصطحبه ممسكاً بيده للنزهة .. كواليس المسرح والجماهير تضحك وتصفق .. والده المريض يدخل المستشفى .. الفطائر والكعك وراء الزجاج .. الحلاق والصابون وهو يحضره إليه .. الفانوس السحري وقصصه .. وصوره .. بائع الجرائد .. المكتبة القديمة وكتبها وصورها .. أمه غير موجودة في غرفتهم .. عازف البيانو المتجول .. رجل الشرطة يقبض عليه .. الملجأ .. الملجأ .. الملجأ ..

انقطع تدفق ذكرياته ، ودار ما بقى منها في حلقة مفرغة لا نهاية لها .. الملجأ ، السجن الذي يعيش داخل جدرانه الصماء.

لا جدال أن شارلي قاسى فيه أسود أيام حياته، وأنه مر فيه بمحنة لم يخضها إلا قلة من أصحاب الطفولات المعذبة .. ما بالك بطفلنا وله حساسيته المرهفة وله خياله الواسع الذي يجسم الأحداث ويهول له المصائب، وله ذاكرته التي تختزن ما يراه ويسمعه ويحسه .. وما كان ذلك له إلا العذاب كل العذاب، والشقاء المر كله.

كل شئ موقوت بنهايته ..

ولقد جاءت نهاية عذابه كما بدأت .. فجأة ..

وفتح رجل الشرطة باب الملجأ، ووجد طفلانا من ينتظرهما أمامه. كانت هناك بسمة حلوة صيغت من حنان الأم .. في انتظارهما وقد سارعت إليهما بمجرد خروجها من المستشفى. تحيرت الدموع في جفونها ، أتهبط إلى خديها أم تنتظر لقاء صغيريها الخارجين من خلف حديد الباب الكبير ..

وانطلقت دموعها، وامتزجت بدموعه ودموع أخيه ..

وتم لقاء دموع مخلوقات ثلاثة عاشت في فرقة مع الحرمان.

وظهرت الشمس وأشعتها الدافئة مع ظهور الأم، التي أذاب حنانها ما كان يحجب الشمس من ضباب كئيب.

**

نظر شارلي إلى السماء ..

وابتعد عن الملجأ الذي سجنوه خلف بابه الحديدي، ونظره مازال شاخصاً إلى السماء لا يهبط إلى الأرض، ولا يقدر على الهبوط .. حتى إن أراده.

وأغلب الظن أنه لم ير الشمس وحدها تتوسط السماء فوقه ..

بل رأى الشمس والقمر بجوارها وحولهما النجوم في وضح النهار .. وللحرية قدرة عجيبة على خلق المعجزات.

ولد صبينا من جديد ..

بُعثت حياته حقاً ، عندما خرج من ملجأ هانويل للأيتام ليعود إلى سابق عيشته .. مع أمه، حبيبته، في جحر متواضع كبقية الأجحار المفروشة التي أعتادوها من قبل في أزقة لندن الموغلة في الفقر.

وفي هذا الجحر تعهدته أمه ..

وعرفت مواهبه – التي أخرجها الشارع كما قدمت لك – لوناً من الرعاية والصقل والإرشاد، هو بلا نزاع .. النواة الطيبة التي أنبتت فيما بعد فناناً من أكبر فناني عصره .. وبقية عصور تاريخ إنسانيتنا دون نزاع.

وفي يقيني ..

أنه أكبر فناني عصره إطلاقاً .. وبقية عصور تاريخنا القديم والحديث .

**

أضفت أمه عليه من خبرتها ما وجهه نحو الفن المعروف في زمنه، فلقنته ما مارست من فنون المسرح والموسيقى والغناء والتمثيل، لاسيما التمثيل الصامت .. البانتوميم، الذي كانت تجيده إجادة تامة.

ولقد تدله في حبه للبانتوميم منذ البداية .. بطبعه وبطبيعته.

وما من شك أن حبه الطبيعي للصمت وكراهيته للكلام .. عنصر هام في شدة ميله إلى هذا الفن الذي يعتبر الكلمات .. خطيئة.

لذا .. أقبل على هذا الفن بشغف جارف سهل له الطريق إلى النبوغ فيه، فما لبث أن أتقن كيف يعبر بحركات وجهه ويديه عما يريد قوله .. دون الاعتماد على الكلمات قط .. كثيرها أو قليلها.

كان الشارع له خير مدرسة، وكان كذلك لأمه .. لذا لم تبارح شباك مسكنها ساعات طويلة كل يوم، توجه منه نظرات شارلي الصغير إلى النماذج البشرية المختلفة من المارة .. كيف يسيرون وكيف يتحدثون وكيف يتجاوبون. هذا الرجل الذي يركض كالحصان، وهذه العجوز تتبختر في مشيتها كالعربة القديمة، ذلك الشاب المتأنق كالطاووس المنتفخ، والسكران المترنح فاقداً توازنه، الصبي الذي يهرول لغير ما سبب .. والشاب الذي يأكل فتاته بنظراته ويجردها عارية.

وأثارت تعليقاتها انتباهه، وفتحت أمامه مجالاً عريضاً لمعرفة طبائع البشر، وطرق التعبير التمثيلي عنها، وكيفية محاكاتها وتقليدها وتصويرها.

ثم جاء دور الرقص، وأمه راقصة كما عرفت ..

فصقلت مواهبه الغريزية للإيقاع ، وهذبت من استعداده الطبيعي للرقص وللحركات التوقيعية المرتبة وللاهتزازات المنسقة على حسب أصول الفن وقواعده.

وكان صبينا يزخر بحركة قوية حبيسة في جسده .. تريد أن تنطلق، فوجدت منفذها في انطلاقة الرقص وانتفاضته، ووجهت الأم كل ذلك إلى مضمونه الفني المقصود منه .. للتعبير عن خلجات النفس البشرية وعواطفها المتباينة.

وعندما أحست باقتراب ابنها من نضوج الاحتراف .. عملت على إلحاقة بفرقة «صبية لا نكشير الثمانية»، وهي فرقة صغيرة جوالة .. طافت بصبينا بين دور الغناء والموسيقى واللهو في شمال انجلترا.

هكذا احترف الفن.

ولا أحب أن أقول لك إن احترافه كان مجرد تلبية لنداء العبقرية عند شارلي العظيم – أكبر فناني عصره إطلاقاً كما سبق أن قلت لك – بل أود أن أؤكد لك أنه احترف الفن ليعول نفسه، وليأكل خبزه بعرق فنه. ثم ليقتطع من أجره الضئيل ما يسهم به في إعالة أمه .. على قدر طاقته، وعلى قدر أكبر من طاقته.

هذا شئ ..

وشئ آخر، أود أن ألفت إليه نظرك ..

إن حياته الفنية في هذه الفرقة التي عمل بها، لم تكن حياة أو عيشة فنية أو غير فنية. كانت جحيماً، وهلاكاً لطفل صغير في مثل سنه .. ينتقل وحيداً من بلد إلى بلد، ومتى كان ذلك؟

في نهاية القرن التاسع عشر .. لا منتصف القرن العشرين.

كانت حياة مرهقة لصبى لم يبلغ العاشرة بعد ..

كان يعمل في ملاه، هي أقرب إلى المواخير منها إلى دور اللهو، حفلات كل يوم في المساء حتى ساعة متأخرة من الليل، وقلة النوم في الغرف شبه المفروشة، وسوء الأجواء في مثل هذه الغرف، والفراش القذر حيث يشترك أكثر من فرد واحد في سرير واحد .. أو في شبه سرير لا سرير، وجيش من الحشرات والهوام تتغذى جيداً .. على هذه الأجساد التي تقاسي قلة الغذاء ..

وفي الصباح .. التجارب التي تجريها الفرقة استعداداً للظهور على المسرح أمام الجماهير الصاخبة ليلاً ..

وفي الليل .. الظهور على المسرح .. إلخ .. إلخ .. إلخ ..

إن الثمن الذي كان يدفعه صبينا باهظ.

ومع هذا ..

كان سعيداً بظهوره أمام الجماهير كل مساء، يبذل كل ذرة في روحه، وفي دمه، وفي أعصابه، ويحاول بكل ما فيه من قوة وبأس .. أن ينال رضاء الجماهير، التي يحلم بانتزاع الضحكات من أفواهها ..

وكان يحقق حلمه ..

ويعيش كل ليلة .. يغذي أذنيه بالضحك منه.

وكان سعيداً بوجود اسمه بين أسماء الممثلين والممثلات، يحتل مكاناً في آخر القائمة .. لكنه كان على ثقة باسمه الصغير كسنه، وعلى بينة من جوهر هذا الاسم ومعدنه ..

الرسم الذي سيصعد يوماً - حتماً - إلى رأس القائمة .. بل كل القوائم ..

**

نحن في سنة ١٨٩٨

شارلي في التاسعة ، ومازال يعمل في فرقته نفسها التي حدثتك عنها ومازالت أحواله المالية على غير ما يرام .. الفقر يضيق الخناق عليه، وعلى سائر أهل الجزيرة البريطانية من عامة الشعب وسواده الأعظم ..

مرت أيامه .. والفقر هو الفقر ..

وجاءت سنة ١٩٠٠، وقد كبر سنتين، وكبر معه فقره.

لم يتغير حاله كثيراً، ظهر في فصل روائي صغير اسمه «جيدي أوستند» على مسرح «لندن هيبودروم»، ثم رشح لدور صغير في مسرحية «شارلوك هولمز» المعروفة، وعندما سلمته إدارة الفرقة النسخة المكتوب فيها دوره للاطلاع عليه واستذكاره .. توقف قليلاً، تأمل نسخته ، وأسرع لتوه إلى مسكنه

ولجأ إلى أمه .. مرة أخرى ..

وأمضت ملاكه الحنون الليل طوله وهي تستذكر له كلمات دوره .. كلمة كلمة .. إذ لم يكن يعرف القراءة بعد ..

وفي الخامسة عشرة من عمره .. اشترك في مسرحية «بيتريان» على مسرح «الدوق أوف يورك».

وفي السابعة عشرة، أجاد الغناء .. واحترف إلقاء أغنيات جادة حيناً وهازلة أحياناً، وكثيراً ما قام ببعض المشاهد الهارجة الراقصة .. وأجاد خلالها القيام بشخصية المهرج، وهي من أصعب

الأدوار التي قد يقابلها ممثل في حياته الفنية.

تقدمت به الأيام – بعض الشئ – إذن على مسارح لندن، وأخذ وهو الآن في صدر شبابه .. يهتم بنفسه قليلاً ، ويعوض جزءاً مما فاته ، حقيقة أنه مازال فقيراً .. ولكنه لم يعد بعد معدماً ..

وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية التي بدأت تجتاح أوروبا سنة ١٩٠٧ فشابنا يهتم بأناقته، ويعني باختيار ملابسه .. ويدقق في اختيارها.

وهو مع شدة عنايته بشبابه .. يستكمل إلمامه بالقراءة والكتابة، ويوسع مداركه ومعارفه ومعلوماته العامة كلما سمحت بذلك ظروف عمله، فمضى يلتهم الكتب التي يبتاعها من المكتبات القديمة بنصف الثمن، ويدفع فيها كل ما يوفره من قوته الضروري..

وواظب في هذه المرحلة من كفاحه الشاق على صعود السلم إلى أعلى ... التياترو ... حيث المقاعد الرخيصة، ليشاهد المسرحيات العالمية الكبيرة ويدرس الأساليب المتباينة لكبار ممثلي المسرح في وقته ..

يتعلم منهم فنون التمثيل الذي يتوق – بكل قوته – إلى تمامه وإلى إجادته ليبرز فيه، وعن هؤلاء الفطاحل من مشهوري عمداء المسرح الإنجليزي .. درس شابنا المبتدئ كيف ينقل إلى الجماهير الأحاسيس والعواطف الإنسانية التي يود إبرازها في أدواره .. التي يحلم من الآن بتمثيلها يوماً..

كان يأخذ عنهم الفن بمقدار، ويصيغه بالشكل والأسلوب الذي تهضمه طبيعته، والذي يريده لنفسه دون التقيد بتقليد غيره من الممثلين ..

وهكذا درس المسرح الجاد، والمسرح الهازل، وشكسبير .. ورواياته كلها التي أدمن دراستها والعمق فيها.

ولم ينس الموسيقى ..

ففي «كينجتون كروس» داوم على الاستماع إلى الموسيقات العالمية، وتذوقها، وحاول فهمها والتعمق فيها على قدر طاقته.

وكثيراً ما أفرد جانباً مهماً من وقته وفكره محاولاً دراستها.

ووسط هذا الزحام من الكفاح المر: طرق الحب قلبه، والحب وملائكته لا يعترفون بالزحام، ولا بقوانين المرور وإشاراتها الحمراء ..

اسمها هيتي كيلي ..

وحبه لها هو حبه الأول.

والحب الأول عند شابنا .. حب ساذج مثله مثل شخصيته الإنسانية الساذجة، البعيدة عن التعقيد والالتواء، والتي لا تعرف الانحراف والشذوذ.

حب فتى فتح قلبه لفتاة فتحت قلبها له، وهما يجوبان معاً حدائق كيننجتون القريبة من مسكنه، والتي كانت يوماً .. مسكنه الذي لا يضايقه مالك بإيجاره ..

وفي طرقاتها، وتحت أشجارها ، وفوق مقاعدها .. تحدثا عن أحلام المستقبل يملأ أمامهما عرض الأفق الفسيح. تكلما كثيراً عن كل شئ في كل موضوع، وتماسكت أيديهما ونظر كل إلى صاحبه .. ولم يتكلما إطلاقاً عن أى شئ في أى موضوع، وقالت العيون ما عجزت عن نطقه الشفاه، وافترقا ..

للقاء آخر يتجدد من تلقاء نفسه دائماً.

وساعة الافتراق .. ليتها ما وجدت أبداً.

وموع للقاء ..

فالانتظار ولوعة انتظارها. كم عد شارلي الدقائق ملهوفاً قلقاً في انتظارها على محطة الترام. إنه معها على ميعاد ومع الشوق إليها على ميعاد، كل خيال من بعيد خيالها، حتى يقترب .. ويتضح حقيقة الخيال .. ليست «هيتي» ..

والآتية من بعيد .. تخطر على أرض الطريق، إنها ولا ريب هي، وتقترب الرشيقة آتية من بعيد ليست هيتي، كيف لا تجئ..؟

وتأتي عربة ترام ..

وتنزل منها الحسان .. ليست بينهن فتاته .. لن تجيء، وتُظلم الدنيا مرة واحدة في عينه، وتَسْوَد الحياة ويضيع الوجود. لكنها ستجيء وستقبل معها الحياة ويعود الوجود ويعم الدنيا نور لن يسوده ظلام .. وتجيء معها الحياة .. كل الحياة.

حب .. فيه من الواقع أقل القليل، إن كان لهذا القليل كيان، وفيه من الحلم والخيال ذاك الضوء الذي يجعل الواقع الملموس عالماً عجيباً مسحوراً من اللهفة تطارد قلب المحب .. وتطارد قلب المحبوب، وتدغدغ عاطفة الحبيبين وتلاعبها نهاراً وتلاعبهما ليلاً ..

وسرق هذا الحب الأول قلب شابنا شارلي، وأيقظ فيه الهوى الدائم الذي لاينسى طوال الحياة.

ومن هنا، من حب شارلي لهيتي كيلي ..

من هذا الحب الأول وحده، تبدأ نقطة أولى صغيرة .. من خط طويل عريض لحياة غنية، لقلب كبير ..

سبقه أخوه الأكبر سيدني إلى النجاح.

لا تعجب ..

لقد أغفلت – في غمرة تركيز الكلام على شارلي وتسليط الأضواء عليه – ما كان من كفاح أخيه الأكبر، وهو كفاح لا شك مرير، ويكفينا منه هنا الإحاطة بأنه وصل به في النهاية إلى نجاح من حيث إنه ممثل صغير، ودليل نجاحه عقد للعمل عند .. فريد كارنو.

وكارنو .. هو أكبر أسماء المسرح الهزلي الإنجليزي لمعاناً وشهرة في ذاك الوقت. كان لديه أكثر من فرقة مسرحية يرسل بها فتجوب أنحاء انجلترا وأوربا .. وتصل إلى الأمريكتين أحياناً .. يكفي أحد الفنانين فخراً أن يعمل عنده لترتفع قيمته، ولتضمن مستقبله المقادير.

وأعود بك .. وقد عرفت كارنو، لأعرفك أنه من المعجبين بسيدني إعجاباً شجع الأخ الكبير أن يرجوه لرؤية شارلي .. فقد كان سيدني يحب أخاه الصغير ويشعر بقدر من المسئولية عنه. وقبل كارنو العظيم مقابلة الممثل الناشىء ، شارلي .. أخي سيدني شابلن.

ولم تكن المقابلة مشجعة ..

فشارلي فتى شاحب الوجه، عليه قناع من الحزن والأسى. أهم ما لاحظه عليه كارنو .. خجله، إلى حد غير طبيعي، حتي اعتقد خبيرنا الكبير بالمسرح وشئونه .. أن فتانا لن يقدر على مواجهة الجماهير كما يجب أن تكون المواجهة، وأنه لن يملك زمام نفسه ومو قفه أمامها .. ما بالك بإضحاكها أو إرغامها على الاستغراق في الضحك خلال الفصول التمثيلية التي سيقدمها لها. وهي فصول تعتمد على المفارقات والمواقف الشديدة الحركة ، وعلى المفاجآت العنيفة الماجنة التي تتطلبها المساخر والضحكات الهَرْجيّات البعيدة عن التهذيب أو الذوق السليم.

لم يظن كارنو العظيم بشارلي خيراً .. قط.

ولكن ..

عندما اعتلى فتانا خشبة المسرح، ولفته الأضواء بسحرها، وتطلعت العيون إليه ترقبه وتنتظر منه .. تغيرت الأوضاع وتبدلت المقاييس.

إنه في الحياة العادية كالسمكة أخرجتها م الماء، أما إذا اعتلى خشبة المسرح فالأمر يختلف .. إنه في مياهه.

وموهبته للإضحاك وللتأثير على الجماهير لا تعرف الحدود، تنطلق لا تعرف التوقف. قديرة دائماً على انتزاع ضحك يخرج من أعماق الناس لا من شفاها ، ضحك يثير فيك المرارة التي

يصعب نسيانها، ويمزج عندك المأساة بالمهزلة، ويؤلف بين الفاجعة والسخرية فيجعل منهما وحدة متجانسة. إن موهبته تكمن في استعداده الطبيعي للجمع بين النقيضين في صعيد واحد .. يثير الهزء والشفقة معاً.

ولقد دعم هذه الموهبة بالمران الذي اكتسبه من العمل الطويل في الفرق الجوالة، لكن الأصل فيها هو نصيبه الكبير من الخبرة بالحياة، ومعرفته الوثيقة بالبشر بعد أن خبرهم عملياً على مقربة.. وتمرس بفهمهم حق الفهم، وبالرغم من صغر سنه .. كانت حياته التي مر بها يقظة ملونة خارجة من الأعماق، حياة صعبة متغلغلة الجذور في النفس الإنسانية ومضمونها وقيمها ومفهوماتها التي لا غنى عنها للفنان الخارج من صميم الشعب .. ليلاقي أبناءه .

اعتلى فنانا خشبة المسرح إذن .. وظهرت موهبته ومقدرته، وانتهت المقابلة التي لم تكن مشجعة أبداً في أولها ..

انتهت نهاية سعيدة ..

وعمل ممثلنا الناشئ شارلي عند فريد كارنو العظيم .

**

لم يحبه الزملاء والزميلات المحيطون به في الفرقة التي التحق بها .. إذ كان يبتعد عنهم وعن مجتمعهم الصغير، ونادراً ما يتدخل في أمورهم، أو يخالطهم في حياتهم الخاصة أو العامة خارج نطاق العمل في المسرح.

ولم يكن نفوره هذا من الحياة الاجتماعية حوله إلا ظاهرة طبيعية من عوارض العزلة، التي فرضها عليه المجتمع من قبل طوال طفولته القاسية. إن هذا النفور هو التعبير البدائي عن الخوف الذي سبق أن عاش فيه خلال طفولته الشقية .. إذ لم يكن في مقدوره مثلاً أن ينسى الملجأ الذي وضعوه فيه يوماً، وهناك الكثير مما يخيفه غير الملجأ ..

وكيف ينساه ؟ .. وكيف ينسي كل ما أخافه في طفولته غير هذا الملجأ .. ؟

إنه مازال يرهب هذا السجن، ويرى في كل مكان شبحه .. وشبح سجانيه الذين حرموه كل ما كان يملك ويحب .. حريته ..

وأذكر لك هنا الملجأ على سبيل المثال .. لا الحصر.

وما أكثر ما أمضى ممثلنا المسكين أسابيع كاملةً يذهب إلى الفرقة صامتاً، ويعمل فيها دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة .. إلا ما تمليه ضرورة استمرار العمل . ولم يكن صمته وعزلته إلا جزءاً ساذجاً من محاولة شارلي حماية نفسه ممن حوله ..

ووجد الجزء الآخر من هذه الحماية الذاتية في دعم شخصيته بالعلم والمعرفة . بالقراءة الجادة الدسمة. إطلع على كثير من الموضوعات المتباينة التي شعر بحاجته إليها، قرأ في السياسة والاجتماع والفلسفة، كما قرأ بعض كتب الطب والقانون، واستكمل ما فاته من دراسة شكسبير وأدبه ومسرحه، وأجال فكره في تأملات شوبنهور ونظراته للوجود، وبحث في كتب التاريخ ليعرف العالم، ولم يكن لديه من الوقت ما ينفقه في مخالطة الزملاء والزميلات والثرثرة معهم فيما لا يجدي أو يفيد.

وقد ينطلق بين الفينة والفينة في حديث عابر معهم، لكن سرعان ما يعود إلى عزلته .. إلى صومعة صمته ورهبانية تأمله.

ولا يعادل كراهيته للثرثرة إلا عدم ميله إلى الخمر وأجوائها، وهذا تأثير آخر لمأساة والده التي خبرها من قرب

لفتة واحدة آمل في استيعابها معك :

دقته الحسابية في تنظيم مرتبه الضئيل : إنه يقبضه من صراف الفرقة، ويغادره إلى المكتبة ليشتري كتبه المتوسطة القدم بنصف ثمنها، ثم يسرع إلى البنك حيث فتح فيه حساباً .. فيضع فيه معظم مرتبه. كان الفقر قد علمه حكمة اليوم الأسود الذي قد يجيء .. وعلمه حكمة القرش الأبيض الذي قد ينفع فيه.

هذه .. لمسات عاجلة من حياة شارلي في فرقة كارنو المسرحية؛ وأنت ولا ريب ترى معي أن حياته فيها لم تكن مريحة كل الراحة ولا متعبة كذلك. لكنها كانت تضيره وتقض مضجعه .. وتتعبه كل التعب.

لماذا .. ؟

سؤال جدير بعلامة تعجب، وعلامة استفهام ثانية ..

إن فقدنا بالأمس، لا يطمع في الثراء .. كما قد يُظن - بل يطمع في أن يكون فناناً، وفناناً كبيراً، مبتكراً يغير مجرى الفن وتاريخه .. هذه هي حقيقته.

وأهم ما يضيره في حايته الراهنة .. هو تعجله تحقيق هذه الآمال الرحبة التي لا تهدأ في صدره أبداً .. كان يحس حاجته لخلق فن جديد يستشعره في أعماقه، فن مغاير لما يقوم به في فرقته هذه من فصول هرجية صاخبة تثير ضحكاً لا طائل تحته .. ضحكاً لا معنى له ..

إنه يريد أن يُحَمل الضحك .. المعاني.

يريد أن يخلق فناً لا يدري بعد ماهيته تماماً، لكنه يحسه جيداً في أغوراره حتى يكاد يسمعه ويراه ويلمسه.

ما هو هذا الفن الجديد ..؟

إنه لا يدريه بعد تماماً على الرغم من شدة إيمانه به، وكثرة ما يحلم بتحقيقه .. ودائما تسبق الأحلام الحقائق.

**

وعلى الرغم من عدم رضاه عن عمله عند كارنو .. قام بتمثيل عدة ألوان متعارضة من أدوار الكوميديا والدراما، على السواء.

وقام بدور الفتى الشرير في رواية «لعب كرة القدم».

وأذكر لك هذه الرواية ذاتها لأنها شهدت ميلاد شارب شهير في عالم الشوارب، إذ ظهر ممثلنا فيها وقد وضع شارباً صغيراً تحت أنفه .. وكانت لحظة حاسمة في بدء تكوين نموذج شخصية شارلي التي عرفها بها فيما بعد ..

وقد خرج من هذه الرواية بإعجابه الطائل بهذا الشارب الصغير.

ثم ظهر في الدور الرئيسي في رواية «جمي الجسور» .. وهي فصل تمثيلي يروي قصة حلم أحد صغار العملاء. وأتاحت له هذه الفرصة تحقيق بعض ما تصبو إليه نفسه، إذ بدأ يخلق لوناً من الإضحاك المشبع بالعاطفة إلى حد ما .. على قدر ما سمح به الدور، وعلى قدر ما بالقصة من إمكانات ..

وثبّت دوره هذا قدميه على المسرح.

أفاد شارلي من عمله عند كارنو تجربة وخبرة عملية، تركت في نفسه أثراً كبيراً. عرك عنده صناعته، وما يكمن خلف الفن من التزام كبير بدقائق حرفية لا غني للممثل عنها مهما كان ملهماً .. حتى يتمكن من التعبير عن المضمون الذي يريد توجيه الجماهير إليه وإقناعهم به، وحتى يتمكن من تحقيق الفن الذي يريد خلقه .. يوماً ..

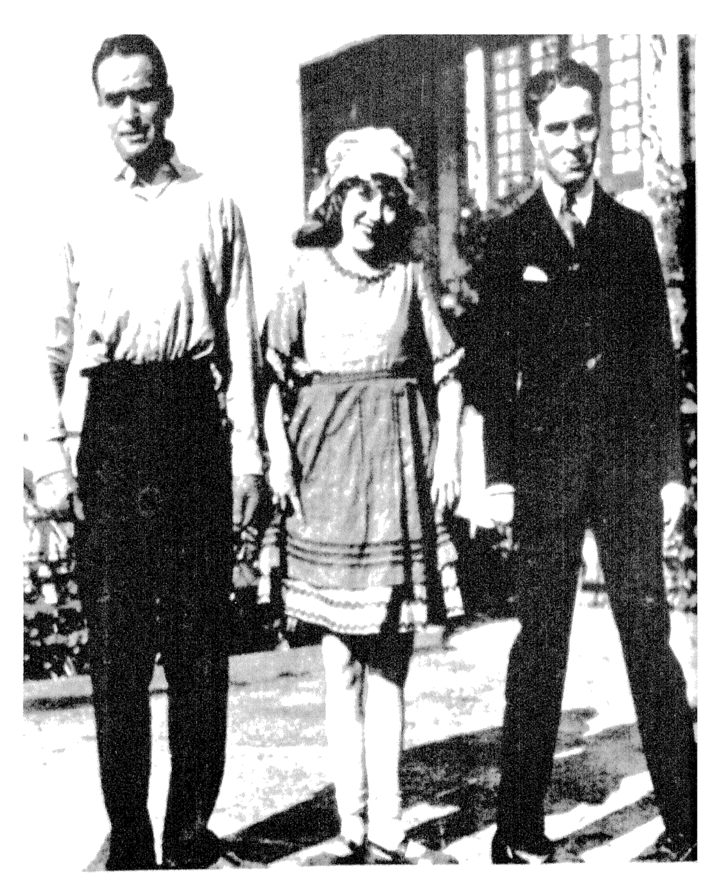
استكمل عند كارنو صناعته وحرفته ..

ولم يجد عنده المضمون الذي يريده لفنه الجديد.

وانفضت سنوات وهو يحلم بفنه هذا ..

حتى جاءت سنة ١٩١٠ - وهو ما زال يحلم به، على حين كانت الأزمة الاقتصادية العالمية مستمرة في توسعها المطرد .. تضيق على الدنيا الخناق أكثر وأكثر ..

وأمريكا، أعنى هوليود ذاتها، تضيق الخناق على كارنو ..



مع دوجلاس فيربانكس وماري بيكفورد
في هوليود - ١٩٢٠

فقد دأبت مدينة السينما الناشئة على السطو .. على أفراد فرقه التمثيلية التي يرسلها في رحلات فنية إلى العالم الجديد، تنشلهم منه الواحد بعد الآخر، وتضمهم إلى حظيرتها ليظهروا في أفلامها.

كانت في حاجة إلى ممثلين ..

تلوح لهم بالدولار، وللدولار رائحته النفاذة .. كعبير الكباب أمام أنوف الجياع، وكان ممثلو فرقة كارنو جياعاً ، ويتدلهون في غرام الكباب ..

لذا .. كان كارنو ثائراً، هائج الأعصاب .. عندما أخذ يفكر في أسماء ممثليه الذين يجب أن تضمهم فرقته، التي سيرسل بها هذه المرة إلى أمريكا.

وبناء علي نظريته – التي أ وردتها لك – في الكباب وعبيره النفاذ .. جمع كل نباهته وحذره، ورأى بثاقب فكره أن يحتفظ بسيدني فلا يرسله .. ويرسل أخاه الأصغر شارلي فهو دونه أهمية، ولن يطمع فيه النشالون ..

وسافرت الفرقة فنالت بعض الرواج ثم عادت ..

ولم تنشله هوليود ..

وبعد سنتين – في سنة ١٩١٢ – أرسله في رحلة ثانية، وقد اطمأن إلى تفاهته وعدم الرغبة فيه ..

ولم تنفع كارنو نباهته هذه المرة ..

كانت السينما هناك على موعد معه .

**

وفي طريقه إلى أمريكا ..

أفراد الفرقة في الباخرة، يلهون ويصخبون وثرثرون .. شأن كل الفرق. بعضهم يقامر، وبعضهم يغازل، وبعضهم يتحدث مع الصحاب، وبعضهم يتحدث مع كأسه ..

ولم يكن شارلي مع أي من كل هؤلاء ..

كان – كعادته دائماً – مع نفسه .. مع صمته المطبق عليه.

واقتربت الباخرة من الشاطئ، ولاحت نيويورك في عرض الأفق البعيد.

ربما كان ممثلنا الشاب أكثر ركاب الباخرة تأثراً، فقد امتلأت نفسه بالعواطف والآمال والأحلام حتى ضاقت بما فاضت به من شعور جياش غريب .. لم يلمسه في نفسه خلال رحلته الأولى، شعور من مصدر مجهول ومعلوم .. في خياله، خاله حيناً مجرد حلم يقظة يمر به، وخاله حيناً آخر حقيقة

امتزجت بالخيال .. ولكنها ليست من الحقائق الملموسة في شئ، وليست من بنات خياله وأوهامه أيضاً. إنه يرى القدر، وإن كان لناس أن يروا الأقدار ..

يرى القدر في انتظاره علي الشاطىء ومعه باقة من الأزهار.

إن كل الثقة في جانبه الآن، النور يشع من قلبه وعقله وروحه .. وينير له الطريق الذي يراه اليوم بوضوح ما رآه هكذا من قبل ساعة إلهام سيحقق فناً طالما راود حلمه وسكن خياله - سيخلق من الضحك عاطفة تهز الكون، وتدمج الخيال بالواقع، وتقرب الإنسان من الإنسان، وتربط الناس بالناس .. جميع الناس، والكون، معاً يتحدون في ضحكة واحدة .. نصفها حب ونصفها حنان .. وكلها أمل.

وأخذت الرؤي التي داعبته سنوات وسنوات في أزقة حي كيننجتون تداعبه الآن من جديد، هذه المرة الثانية التي يزور فيها البلاد الجديدة عليه .. وعلي الدنيا نفسها .. أمريكا.

ويشاء شارلي أن ينظر إلى نيويورك على بعد يحدثها بكلماته ..

- أمريكا .. خذى حذرك، قد أتيتك غازياً.

وفاضت الدموع الخفيفة الشفافة من عيني طفلنا الفقير البائس، اليتيم الأب، المتشرد الصغير المحروم، وربيب الملجأ، الصبي المكافح في الفرقة الجوالة، الفنان المحب للكون .. المحب للناس.. المحب للحرية ..

ومن خلال شفيف دموعه رآها .. رأى الحرية..

رأى للحرية تمثالاً ..

قابل نظره «تمثال الحرية» والباخرة تقترب من الميناء، ونظر إليه في إعجاب وتقدير وتقديس .. وأقرأها سلامه :

- صباح الخير أيتها الحرية ..

ثم دقق النظر في المشعل العالي في جلاله ووقاره ونبله، وأطال من رؤيته لتفصيلاته ودقائقه، وغاب بخياله معه ..

رأي تمثال الحرية يرتفع في السماء، ويرتفع أكثر، ويرتفع حتى يخترق السحاب، ثم يرتفع حتى يصعد السموات عالياً عالياً .. فتبدو المدينة وناطحات سحابها خلفه أقزاماً، أقزاماً صغيرة قاصرة عاجزة .. ضئيلة وسط الوجود.

وارتفع وجيب قلبه وأسرعت دقاته وهو يشهد تمثال الحرية يكبر ويتضخم ويعلو .. حتي لم يعد لنيويورك أي وجود بجواره.

وملأ التمثال العملاق كل الفراغ .. في السماء، وفي الأرض وفي ماء المحيط يحف بالشاطىء..

حتي التصق التمثال بجانب الباخرة، وهنا ارتفع شارلي وقبل الحرية في الجبين ..

وصديقنا عاشق متيم بها منذ افتقدها .. في ملجأ هانويل للأيتام.

**

عندما وطئت قدماه ظهر الأرض ..

لم ير القدر في انتظاره على الشاطىء ومعه باقة من أزهار ..

بل وجد رجال الجمارك.

وكان ما يحصل عادة من مضايقات في الفحص عن الجوازات، والتقنين الجمركي، والبحث عن المهربات والممنوعات، والكشف الصحي. وكان الضجيج والعجيج والزحام، وتكالب المسافرين .. قادمين وراحلين .. وكان المستقبلون ..

ولم يكن له بينهم من يستقبله.

ولم ير القدر في انتظاره ومعه باقة أزهار كما قلت لك، ومع ذلك .. عبق عبير أزهاره بكل جو الشاطىء حوله.

الفصـــل الثانـــي

الطريق الطويـــل

الطريق ألطويل .. له بداية ..

وقد بدأت هكذا تماماً ذات ليلة ..

دخل المخرج السينمائي الأمريكي ماك سينيت مسرح بانتاجز في مدينة لوس انجلوس ليرى مسرحية «ليلة في تياترو بلندن» . ولم يكن لاسم شارلي أي وجودفي برنامج السمرحية، أو في إعلاناتها .. اللهم إلا في نهاية القائمة بعد الأسماء اللامعة والمتوسطة اللمعان - لقد كان اسمه مكتوباً بالخط الصغير .. الباهت اللون لا يكاد يرى أو يلفت النظر.

كان يمثل دور السكير العربيد الذي يندس في أحد الألواج - كأنه متفرج عادي لا ممثل - ليعاكس الممثلين ، وهم يقومون بأدوارهم علي المسرح .. فيقذفهم بالطماطم وغيرها فيثير غضبهم ليتبادل معهم النكات .. وهي خدعة معمول بها في المسرح الاستعراضي في ذاك الوقت ..

هذا هو كل دوره.

وأعجب المخرج السينمائي ماك سينيت ليلتها بشارلي .. وانتهى الأمر.

تشاء المصادفات أن يشتد ضيق مخرجنا الكبير بممثله الأول فورد سترلنج لمغالاته في أجره، ولاعتداده بشهرته أكثر مما يجب، ولتهديده المتواصل بالانقطاع عن العمل .. مما دعا ماك سينيت لأن يبرق إلى مدير أعماله في نيويورك .. ليتعاقد له مع ممثل رآه في مسرحية نسى اسمها .. في مسرح لا يذكر اسمه في مدينة نيويورك على الأرجح ..

ثم أضافت البرقية المعلومات الدقيقة التالية :

إن اسمه «شابمبان» أو «كابلن» أو شئ من هذا القبيل.

انتهت البرقية وتفصيلاتها الدقيقة.

وجرى البحث والتنقيب في كل مكان عن «شايمبان» أو «كابلن» هذا، حتي وجدوا أخيراً «شيئاً من هذا القبيل» .. وقدموا له عقداً لمدة سنة واحدة، يتقاضى فيها مائة وخمسة وعشرين دولاراً .. كل سبوع .. أي ثلاثة أضعاف مرتبه في فرقة كارنو المسرحية ..

ووقع العقد ..

ولم يكن توقيعه «شابمبان» أو «كابلن» بل .. شارلي شابلن. عبق كل اجلود حوله بعبير الأزهار . فجأة .

وتذكر القدر، ونظر خلفه .. فرأى الأزهار، تقدم إليه حقاً .. لم تكن من يد القدر يحمل إليه طاقته ..

بل من يد مندوب شركة أفلام كيستون في لوس أنجلوس ، شركة الإنتاج السينمائي التي وقع عقده معها .. وشرعت منذ تاريخ توقيع العقد تحسب حساب المكاسب والفوائد المئوية لرأس مالها الذي سيستغل في أفلامه ، ويستثمر في عرق جبينه، ويأتي لها بالأرباح التي ستجنيها من خلف هذا الذي كان بالنسبة إليها منذ أيام قليلة مجرد «شيء من هذا القبيل».

إن الدولارات - مهما كثرت - طُعم لصيد أكبر قيمة من هذه الدولارات

وصل شارلي إلى لوس أنجلوس إذن .. وهناك عاش غريباً في مدينة غريبة، فبين حيّه الذي عاش فيه في كيننجتون وبقية أحياء لندن التي يعرفها جيداً .. وبين هذه الديار الجديدة الغريبة عليه .. أميال وأميال من الأرض والماء والهواء . وبينه وبين الغرباء حوله هنا أميال أخرى من البعد في المعاني والاتجاهات والنزعات وطرق التفكير والذوق العام .. وغير هذا كله من اختلاف وجهات النظر في الحياة شكلاً وجوهراً .

لقد وجد نفسه وحيداً بمعنى الكلمة ..

واسودت الدنيا في عينيه ..

وفجأة .. قفزت إلى ذاكرته صورة الرجل الوحيد الذي يعرفه هنا، والذي يستريح إليه كثيراً .. بواب المسرح الذي عمل فيه ذات مرة بهذه المدينة، خلال رحلته مع الفرقة ..

وكان لقاء إنسان لإنسان.

عادت طمأنينته إليه فأخذ يرتب حياته وإقامته. وجد سريعاً غرفة مفروشة متواضعة، اختارها في الفندق الصغير المواجه للمسرح .. الذي يعمل ببابه صديقه الوحيد في هذه المدينة الأمريكية العجيبة.

لكنه وجد نفسه وحيداً من جديد، وعاوده إحساسه بالعزلة .. عندما دخل الأستوديو لأول مرة، ليمثل أول أفلامه.

لقد بدأت مرحلة الخلق الفني ..

والخلق الفني يربط الفنان الخلّاق بالعالم كله، ويعزله - في الوقت نفسه - عمن يحيطون به .. حتى أقرب المقربين إليه. إنها عملية حمل لجنين عجيب تتشكل نطفته في أعماق الفنان، الذي ينصهر خلال هذه العملية إلى أن يتم الوضع.

وكان شارلي يقاسي الكثير، لأنه يحس ما يريد خلقه .. لكنه يعجز عن تحقيقه.

وقبل أن يقف أمام الكاميرا السينمائية لأول مره .. حاول أن يجرب كل ما دار في خلده من عمليات الماكياج والتنكر . بدّل ملابسه مراراً وتكراراً، وغيّر من طريقة تصفيف شعره أكثر من مرة، وغيّر من شخصيته التمثيلية التي يريد تقديمها للجمهور، وبحث في كل ذرة من قلبه وعقله

وذاكرته علّه يجد ما يوده .. هذا «الشيء» الذي يحسه ويريد خلقه وتحقيقه ..

وضاعت محاولاته سدى وذهبت هباءً منثوراً.

تملكه قنوط أليم استبد به ..

لقد وجد الجو المحيط بعمله في الاستوديو على غير ما كان يتصور. كل من حوله .. لا صلة لهم به. شعر أنه غريب يحيا بين غرباء، وأحس أن الفنيين القائمين علي عمليات الفيلم الذي سيمثله.. يرون فيه دخيلاً عليهم وعلى صناعتهم .. وعلى حياتهم أيضاً.

وأخذ كبار الممثلين – من نجوم الشركة المتعاقدة معه –• يفدون إلى مكان عمله، وينظرون إليه نظرات بغيضة بعيدة عما يجب أن تكون عليه نظرة الزميل لزميله، ويراقبونه عن قرب مراقبة دقيقة في انتظار ما سيقدم «هذا الإنجليزي» الذي جاءهم من فرقة كارنو المسرحية.. وماذا سيقدم من بضاعة للمتفرجين ..؟

- ما لون الضحك الذي سيحاول إثارته ..؟
- وما هو أسلوبه في المكياج والتنكر والملابس ..؟
- وكيف سيمثل ..؟
- وما هي الروايات التي ستؤلف له ..؟

وعلامات استفهام كثيرة أخرى، وعلامات تعجب أكثر من علامات الاستفهام. كل هذا أقلقه وأحزنه نهاراً، وأقض مضجعه وحمَّله الهم طيلة الليل، لتعود القصة نفسها وتتكرر ثانية في الصباح التالي .. وهكذا دواليك، وهلم جرا .. كما يقولون.

بدت له صورة الاستوديو كريهة قابضة لنفسه، مخيفة كالغول.

وعاود تجاربه الفنية من جديد، وأتت نتائجها لا ترضيه في النهاية، ولا يستريح إليها أبداً .. ولا يثق بها تمام الثقة.

وتملكه القنوط أكثر وأكثر، ولم ييأس ..

وفي اليوم التالي .. ثابر على تجاربه. بدأ مرة أخرى يجرب شيئاً آخر. ارتدى ملابس متشرد صغير ضئيل الجسم .. ممن تعود رؤيتهم كثيراً في جحور كيننجتون، حيث عاش حياة المشردين في لندن .. الملابس بعضها فضفاض أكثر مما يجب، وبعضها ضيق أكثر مما يجب أيضاً..

وكأنها ليست من ملابسه، أو كأنه ابتاعها في منتصف عمرها من مخلفات مرحوم كانت هذه هي كل تركته، لونها من ذاك السواد الذي يصبغها بالقدم وبالفقر وبالبؤس .. وبالوقار .. أما حذاؤه، فكان أبعد الأحذية عن مثل جسمه الضئيل، كان من الضخامة بحيث يبدو واسعاً على عملاق يفوق متشردنا طولاً وعرضاً، وترتفع بدايته ملتوية شامخة أمامه .. كأنها مقدمة مركب عجوز ..

وأحس شارلي نفسه في هذه الملابس ..

كان فيها .. في موطنه.

ومن ثمة .. انطلق يمثل أمام الكاميرا، لأول مرة في حياته.

دارت عجلاتها في لفاتها السحرية العجيبة، وانبعث صوت لفاتها يزغرد لفناننا الناشئ زغرودة حلوة .. إن كان للكاميرا أن تعرف ما الزغاريد..

وتغيرت نظرات كبار الممثلين من نجوم الشركة إلى ممثلنا شارلي . وعرفوا أنهم أمام عملاق، وعملاق كبير. لكن لم يدر بخلدهم أبداً أنهم أمام جِنّي انطلق من قمقمه ..

وكان بدء الطريق ..

**

لم تكن لصناعة السينما - في ذاك الوقت - الهرقلية المعروفة عنها اليوم، ولا الضخامة والتعقيد الأخطبوطي المعروفان عنها في أذهان الناس الآن ..

كانت في مرحلتها الابتدائية الأولى .. في دور النشوء والتكوين ..

لذا .. كان من الطبيعي جداً، بل من العادة المتبعة، أن يشترك أكثر من ممثل واحد في غرفة واحدة من غرف الأستوديو البدائي الصغير الذي يعملون فيه .. مما أتاح الفرصح أمام ممثلنا ليلتقي عن مقربة بممثلة الشركة ونجمتها الأولى .. مابيل نورماند.

شاركها في غرفتها .. بناءً على ذلك .

وحدث ما لم يكن في حسبانه .. قدمت له صداقتها فكانت أول من أظهر له الود ممن التقى بهم في حياته الجديدة عليه، في وقت كان فيه في مسيس الحاجة إلى الصداقة والود ..

أعاد هذا إليه الكثير من ثقته بنفسه التي اهتزت شيئاً ما ، بعد الذي رآه من جو الأستوديو والعاملين فيه . خرج من عزلته التي كان قد لجأ إليها .. ليلتقي بالفنانه الكبيرة القلب، وارتد إليه بعض الأمن الذي افتقده وبعض السلام اذي كان يبحث عنه، وممثلنا في حاجة دائبة إلى الأمن والسلام .. قبل حاجته إلى الدولار.

ورأت مابيل نورماند بعينيها البعيدتي النظر .. أن شارلي لن يتمكن من رؤية طريقه واضحاً .. قبل مرور الوقت اللازم علي عمله في الأفلام وصناعاتها الجديدة عليه تماماً، وأنه لن يجد نفسه الحساسة المرهفة في هذا اللون الصاخب من الإضحاك الماجن .. الذي تقدمه فيه الشركة، في أفلامها الأولى له .. الأفلام المليئة بالهرج الرخيص ..

الصفعات على القفا ، والوقوع على الأرض لسبب أو لغير سبب، والركلات المبتذلة في أماكن معينة من جسمه، والمواقف التافهة المحشودة بالإسفاف .. و «التورتة» تطير في الهواء تشق

طريقها المحتوم إلى وجوه الممثلين ، وتلطخ ملابسهم .. بعد وجوههم.

عليه أن يقوم بتمثيل كل هذا العبث، وغير هذا العبث مما هو أدهى وأمر، وأن يقوم بتمثيل كل ذلك مرغماً، حسب تعليمات العقد الذي قدموه له .. ووقعه وانتهى الأمر.

رأت مابيل نورماند ما قدمت إليك، ورأت ما هو أهم ..

إن لشارلي مقدرة عجيبة على خلق لون آخر من الضحك والسخرية، أعمق بكثير من هذا اللون الذي يضطرونه لأدائه مكرهاً .. في قصصهم الغث الذي لا طائل تحته، والذي لا هدف له ولا غرض منه ولا قصد إلا الإضحاك بأي شكل .. بناءً على قانونهم الفني المشهور عنهم : أي شيء في سبيل ضحكة .

ما العمل إذن .. ؟

كانت الممثلة الصديقة ترى أن ما عليه هو الانتظار . إنتظار الوقت الكافي والفرصة المناسبة ليشق طريقه .. إلى فنه الصادق الصحيح.

واقترب ممثلنا من ممثلتنا الصديقة .. إقترب أكثر، وأكثر .. ولقد أخرج الدفء الذى أشاعته مابيل نورماند شارلي من عزلته الروحية، كما أخرج الدفء الذي أشاعته المدفأه - في غرفتهما المشتركة - الكلام من معقله .. فانطلق شارلي يحدثها عن عمله في السينما، وعن مشكلات هذا العمل بالنسبة إليه، وعن آماله التي يبني أبراجها من الآن حجراً إثر حجر، ليشيد فناً يحسه في أعماقه .. وينبغي عليه تحقيقه.

وطال به الحديث فطرق الكتب التي قرأها، والتي يقرؤها الآن، والتي يريد قراءتها بعد ذلك، وأهمية العلم والمعرفة عنده .. والثقافة اللازمة له.

وفاض الحديث يوماً بعد يوم .. حتى شمل مشكلات الفن، ثم فاض أكثر فدخل في مشكلات الحياة، فحدثها عن حياته التي تركها خلفه في لندن ، وعن والدته حبيبته التي يعبدها بعد الله .. ماذا فعلت له طول عمره إلى أن خلقته بعد الله خلقاً، كيف قضت عمرها وكل ما في هذا العمر .. في سبيل تربيته وتنشئته النشأة التي صار عليها اليوم، وكيف يساعدها الآن بكل قوّته ليخفف عنها شقاء حياتها المريرة التعسة، وحدثها عن سيدني أخيه لأمه .. كيف يحبه هو الآخر، كحبه لأمه الذي لا يعادله لديه حب.

حدثها عن كل ذلك .. ولم ينس كيننجتون فحدثها عنها، وعن أزقتها التي شاهدت طفولته وتشرده..

حدثها عن كل شئ، إلا شيئاً واحداً أشك أنه حدثها عنه :



مع اونا اونيل - ١٩٥٥

حبه الأول، الحب الذي كان فيه من الواقع أقل القليل، إن كان لهذا القليل كيان، الحب الذي كان فيه من الحلم والخيال ذاك الضوء الذي يجعل الواقع الملموس عالما عجيباً مسحوراً من اللهفة، تطارد قلب المحب .. وتطارد قلب المحبوب ..

إن شارلي مازال يذكر الحب الأول، ولم ينسه أبداً ..

ولا أشك – الآن – إطلاقاً في أنه حدثها عنه، وفي يقيني أن حديث حبه لهيتي كيلي .. كان أهم ما قاله لمابيل نورماند من حديث ..

**

انتهى من تصوير أول أفلامه ..

وانهالوا عليه، فأظهروه في أكبر عدد من الأفلام .. فيلم وراء الآخر دون توقف، كالليمونة يعصرونها حتى آخر قطرة.

ولقد أظهروه في السنة الواحدة التي تعاقدوا عليها معه .. في خمسة وثلاثين فيلماً .. كانت الأفلام – أيامها – قصيرة لا تتجاوز مدة عرض الواحد منها العشرين دقيقة.

ومع ذلك .. فكمية هذه الأفلام ضخمة بالنسبة لسنة واحدة. لقد عصروا الليمونة حقاً حتى آخر قطرة، ولكن .. ليمونتنا من صنف نادر معجز .. لا ينتهي لها عصير.

خمسة وثلاثون فيلماً ..

غزت عالم الضحك في صناعة السينما الأمريكية الناشئة، وكان لها شأن أى شأن في تثبيت أقدامها، لا في أمريكا وحدها فحسب .. بل في العالم أجمع ..

وتثبّت أيضاً – في الوقت نفسه – أقدام ممثلنا الشاب ابن الثالثة والعشرين، الذي أخذ يغزو بسرعة البرق قلوب الملايين، في كل مكان من الدنيا رأى فيه الناس هذه الأفلام.

كان هذا هو مكسبه. إنه مكسب أدبي لا مادي إطلاقاً ..

أما ملايين بل بلايين الدولارات التي كانت حصيلة هذه الأفلام من كل أقطار العالم، فقد دخلت خزان شركة كيستون التي أنتجت هذه الفلام كلها، لقاء دولاراتها المعدودة التي تعاقدت بها مع شارلي المسكين .. تدفعها له نهاية كل أسبوع لمدة سنة واحدة فقط لا تلبث أن تنتهي، على حين تستغل هذه الشركة الأمريكية الأفلام لحسابها الخاص .. مدى الحياة .. في كل مكان . إنها مأساة كما ترى ..

ولكن ..

كان هناك مكسب آخر لشارلي أهم من هذه البلايين، وأهم من مكسبه الأدبي في إعجاب الملايين به ..

لقد بدأ – خلال تمثيله لهذه الأفلام – تكوين شخصية المتشرد .. الذي هز شعور العالم أجمع. عرف العالم جيداً الملامح الأولى لهذه الشخصية .. الشارب القصير تحت الأنف ، والملابس الفضفاضة هنا، والضيقة هناك، والقبعة المكورة السوداء، والحذاء الضخم المرتوق.

عرف العالم هذه الشخصية حق المعرفة ..

وعرف شارلي أن مقدرته الخلاقة في السينما لا تقف عند حدود، ولا نهاية لحدودها بتاتاً.

وأجد لزاماً على هنا أن أقول لك .. أن اللفتات الإنسانية التي ظهرت في أفلام شارلي هي جميعا – دون استثناء تقريباً – من وحيه هو، وليست من وحي شركة كيستون وقصصها التافهة، وليست من وحي مخرجها ماك سينيت الذي أخرج هذه الأفلام .. على الرغم من الكثير الذي أفاده شارلي من تجربة العمل مع هذا المخرج الكبير.

كانت هذه اللفتات الإنسانية كلها تقريباً .. تنبع من ذكريات طفولة شارلي وصباه في حيّ كيننجتون، وهي – أعني هذه اللفتات الإنسانية . من ألزم مظاهر أهل لندن من فقراء الإنجليز.

**

أعود إليك ، وإلى النجاح العريض الذي حققه شارلي

لم يقنع بنجاحه هذا، ولم تسعده الشهرة الغزيرة التي عادت عليه منه، ولم يفرح بالثروة التي شرعت تهبط عليه .. من جرائه.

ويسيل المداد بسؤال يقفز على هذا السطر في كلمة واحدة فقط .. لماذا؟ والجواب ما زال هو الجواب ..

إنه ما برح يتشبث أكثر من أي يوم مضى .. بهذا «الشئ» الذي يحسه في أعماقه جيداً، ولا يدرى كهنهه تماماً بعد، ويريد خلقه وجعله حقيقة ملموسة .. ولكنه يعجز عن تحقيقه.

ومن الممكن أن نسمى هذا «الشئ» .. الفن الأصيل الإنساني، أو الفن الذي يريده فناننا شارلي لنفسه وللناس معه .. كل الناس.

وأسميه لك هنا اليوم هكذا، ولم يكن كذلك محدداً في ذاك اليوم الذي حلم به فناننا الشاب، بعد بدء نجاحه وشهرته، وبعد الثروة التي شرعت تهبط عليه .. إثر هذا النجاح والشهرة التي جاءت معه.

ورأي شارلي هذا «الشئ» – أعني هذا الفن – أكثر وضوحاً .. عندما استحوذ عليه شعور جديد استبد به، وألح عليه ذات مرة، ثم عاود إلحاحه مراراً:

لا سبيل إلى ما يبغيه من فنه .. إلا إذا تولى هو بنفسه توجيه الأفلام التي يمثلها ..

ولابد له من التدخل شخصياً في اختيار موضوعات أفلامه وقصصها.

ولا بد له من التدخل في إخراجها .. حتى تجيء كما يجب أن تكون عليه أفلامه .. وإلا فلا فائدة ترجى منها على وجه الإطلاق.

ووضح الطريق الطويل أمامه أكثر من ذي قبل حقاً، ولكن اشتدت وعورة الطريق ..

سنوات الحرب العالمية الأولى

ظهرت أفلام شارلي التي أنتجتها شركة كيستون .. وقد اشترك معه فيها غير ممثلة الشركة الأولى مابيل نورماند .. عدد كبير من الممثلين المهمين في عصرهم .. فورد سترلنج، فاتي، سليم سمرفيل، وآخرون غيرهم.

وكان من أمر هذه الأفلام وأمر ممثلها الأول ما قدمت لك قبلاً، وأضيف إلى ذلك .. أنها أخذت تشق طريقها إلى أسواق التوزيع العالمي بين نهاية سنة ١٩١٣ وبداية سنة ١٩١٤.

١٩١٤ - الرقم الرهيب ..

الحرب العالمية الأولى.

كيف تريدني الآن أن أستمر في حديثي معك فأتم ما بدأته لتوي عن شارلي، وعن فنه، وعن حياته ..؟

إن أنين احتضار الموتى والجرحى، وبكاء الثكالي، وصراخ الأطفال، وصمت الشيوخ .. يصم أذني، يملأ الغرفة حولي بالعويل والصوات، وأسمع دفوف الندّابات في قريتي ترفرف مع بكاءاتها. رثاءً للموتى وللجرحى وللثكالى من جميع الشعوب، من جميع الملل والأديان ..

ناهيك بأصوات أخرى أكاد أسمعها ولا تكاد تبين .. أصوات رصاص وقنابل، وغير الرصاص والقنابل من متفجرات ومفرقعات . إن أنين احتضار الموتى والجرحى أعلى من أي أصوات لكل متفجرات الحروب ومفرقعاتها، أعلى .. وأغلى.

لا .. لا قدرة لي على الاستمرار معك في حديث الفن وشجون هذا الحديث، فمن المستحيل علينا فصل الفن عن الحياة عن الحرب.

وشخصية شارلي مرتبطة تمام الارتباط بالفن والحياة معاً ..

ومن ثَمٍّ .. كان لابد لنا من ربط الحياة بالحرب.

لقد بدأت جريمة هذه الحرب عندما نضجت الأزمة الاقتصادية العالمية في أوائل سنة ١٩١٤، حين رأت ألمانيا وبطانتها أن لا خلاص لهم من شرور الأزمة ومضاعفاتها .. إلا بالاستيلاء عنوة على الأسواق التجارية الحيوية لهم، وعلي منابع الثروة الخام، وعلى المواقع الاستراتيجية المهمة، وعى المرافق العالمية المختلفة، وعلى .. وعلى ..

وكل هذا .. أين ؟

- في المستعمرات ، وعند شعوب المستعمرات.

إذن .. فلا بد من ضرب الدول الاستعمارية الكبرى المتاخمة لها، أي إنجلترا وفرنسا وبطانتيهما.. العصابة المنظمة ، التي سبقت العصابة الألمانية في الاستيلاء على الأسواق التجارية الحيوية، وعلى .. وعلى ..

وبذلك يتم للعصابة الألمانية الاستيلاء على المستعمرات، وعلى شعوب المستعمرات ..

هذه هي الحكاية.

وبناءً عليها .. دخل الحلفاء الحرب سنة ١٩١٤

ولم تدخل الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في سنواتها الأولى ، ولا تظن أنها لم تفعل هذا لأنها من أنصار السلام .. أو رأفة ورحمة بالمستعمرات وبشعوب المستعمرات ..

لا أبداً .. وحياتك .

بل .. لتظل بعيدة عن تخريب بلادها وتدميرها ..

وحتى يمكنها أن تحتفظ بقوتها الحربية والمدنية سليمة لم تمس بسوء، على حين تضعف قوى غيرها من البلاد المشتركة في الحرب ..

وحتى يمكنها أن تقوم بدور المرابي للحلفاء المحاربين، فتقرضهم بالربا الفاحش .. وهذا هو الأهم فضلاً على ما تقدم من غنائم.

ولقد أقرضتهم فعلاً مبلغاً وقدره ١٦٧١٣٨٠٢٢٨٨ دولاراً ..

اقرأ الرقم بنفسك ، فأنا لا أعرف قراءته ..

لكني أعرف جيداً أنه قام بوظيفته خير قيام، وأنه حقق لأمريكا أرباحاً محترمة بلغ قدرها ما يأتى :

٢١٢١٩٤٥٢ جريحاً

٨٥٣٨٣١٥ قتيلاً.

وبلغت قيمة الدفع الأولى من الأرباح الحقيقية التي دفعها الحلفاء لأمريكا ٥٢٤٧٧٢٩ دولاراً، تحت الحساب ..

أى بسعر نصف دولار تقريباً للقتيل الواحد .

وماذا تريد أن أقول لك ..؟

هذه هي الحرب .. وقد أمدت أمريكا - فضلاً على ما تقدم - بزيادة كبرى فى إنتاجها، وبزيادة

أخرى في الفرص الحسنة لأسواقها التجارية، وبزيادة ضخمة من الرواج لبضائعها وسلعها المُصَدَّرَة..

وفي مقدمة هذه البضائع والسلع المصدرة .. الأفلام، ولاسيما أفلام شارلي شابلن.

الأفلام .. إنتاج وبضائع وسلع تصدر قبل أن تكون فناً صرفاً خالصاً، فالسينما صناعة لها مالها وتمويلها وبنوكها واقتصادها .. قبل أي شئ آخر.

ولقد أوجدت هذه الصناعة مجالها الحيوي عند روادها في فترة الحرب، أكثر مما أوجدته في أي وقت آخر، وأصبح شارلي من أهم مقومات هذا المجال .. بل دعامته الأساسية الأولى .

لذا ، لم تبخل شركة إسيناي عليه عندما أسرعت إلى إرسال مندوبها ليتفق معه على عقد للعمل لحسابها، يتناول فيه.. ألف دولار كل أسبوع.

ولم يُبهر شارلي كثيراً لقيمة العقد الجديد المعروض عليه. إنه يعرف الآن قيمته التجارية .. لذا رفضه دون إبداء الأسباب..

وطلب منه المندوب عن الشركة أن يحدد رقمه .. الرقم الذي يوده .. ولم يطلب شارلي إلا ألفاً.. وخمسة وسبعين دولاراً فقط .. كل أسبوع، فوافق المندوب لتوه، وتعجب من أمر ممثلنا .. ثم سأله:

– ولماذا تصر على هذه الزيادة الضئيلة .. الخمسة والسبعين دولاراً فقط، هل يمكنني أن أعلم..؟

ثم تعجب أكثر عندما أجابه شارلي في هدوء :

– أريد الخمسة والسبعين دولاراً الزيادة لأعيش بها حياتي كل أسبوع، أما الألف .. فسأضعها كاملة – دون أن تمسها يدى – في البنك.

وكان مخلصاً صادقاً في إجابته ..

كيف يمكنه أن ينسى فقره وعوزه اللذين مر بهما منذ سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. كيف ينسى فقره الذي ما زال يعيش في خياله ولا يبعد عنه شبحه المزمن الكريه . كيف ينسى حياته عرض الشارع والتصعك فيه والمبيت في أجحاره .. وفضلاته المعطوبة التي عاش على غذائها سنوات. كيف ينسى جوعه والجوع كافر .. لا ينسى أبداً. سيضع إذن الألف دولار كاملة دون أن تمسها يده في البنك .. حتى لا يكفر ثانية .

وأمر آخر ..

سيتفرغ للحلم الذى استحوذ عليه واستبد به، ليحقق في فنه بعض هذا «الشيء» الذي يحسه ويريد خلقه، لكنه يعجز عن تحقيقه .. سيسهم هذا المال – الذي يضعه في البنك – في تحقيق حلمه ..

وما دام المال هو عصب الحياة، وعصب السينما بوجه خاص .. فلابد من المال إذن، وهاهي

ذي فرصته أمامه، ولن يتركها تفلت أبداً .

قبلت شركة إسيناى شروطه، وعدّلت عقدها بالشكل الذي أراده، قبلت راضخة مرغمة .. وعدّلته راضخة مرغمة أيضاً.

وفي تجربة أفلامه معها، أخذ يدعم شخصية المتشرد التي وضعها لنفسه قبلاً، فأضاف في بعض مشاهد الأفلام الأربعة عشر التي عملها لحسابها .. شيئاً جديداً لأول مرة : العاطفة.

دعم الضحك الذي يخلقه ببعض العاطفة. لم يعد الإضحاك بالنسبة له هدفاً أساسياً، وأى شيء في مقابل ضحكة - كما يقولون في هوليود - بل ضحكة ممزوجة بالعاطفة الإنسانية، وبالإحساس، وبالشعور النابع من القلب ..

ونجحت التجربة، وقبلتها منه الجماهير ، وزاد نجاحه أضعافاً.

ولم يكد ينته عقده مع هذه الشركة حتى كاد يصبح أهم ممثليها، ولم يبلغ بعد السابعة والعشرين من عمره .. وتهافتت الشركات الكبرى في هوليود لاختطافه، واحتكار جهده وفنه، لا لمجرد تقديرها الأدبي لهذا الجهد والفن بل لاغتنام الأرباح الخرافية التي تدرها أفلامه في كل بلاد العالم التي تتهافت جميعاً على عرضها مراراً وتكراراً.

أحست شركة إسيناي - التي يعمل لحسابها - بتكالب الشركات المنافسة عليه، وخشيت أن تضيع منها الأوزة التي تبيض ذهباً، ولم تضع الوقت فقدّمت إليه عقده ليجدده لها .. وقفز الرقم في العقد الجديد إلى خمسة أضعاف الرقم القديم، خمسة آلاف دولاراً كل أسبوع ..

وقفز مع الرقم شارلي .. لشدة فرحه، لا يكاد يصدق، ويكاد يطير لفرط هذا الفرح .. ولم يعد يعرف ماذا يفعل أمام هذا العقد المعروض عليه. أهرع لنقل الخبر السار إلى أخيه سيدني - وكان قد لحق به في هوليود - فلم يطر أخوه من الفرح، بل شرع في تريث يحسبها له بالأرقام وبالإحصائيات ليخرج في نهاية حسبته .. بأن عرض الشركة عليه خمسة آلاف ليس له غير معنى واحد .. أنه يساوي عشرة أضعافها على أقل تقدير، وأن عليه التريث والاحتفاظ بتوقيعه لبعض الوقت .. فقد أصبح اسمه «ماركة تجارية مسجلة» تكفل للبضاعة التي تحملها كل الرواج.

وأقنعه سيدني أن يترك الأمر يدبره له ..

وتريث شارلي .

ثم قام سيدني بمناورته. ذهب إلى نيويورك - وكيلاً شخصياً عن شارلي - وقابل مديري الشركات المنافسة، وضارب كلاً منهم بالآخر حتى أمكنه في النهاية أن يعقد عقداً مع شركة ميوتوال .. وصلت قيمته إلى أكبر رقم وصل إليه عقد ممثل في هوليود حتى هذا التاريخ.

الرقم هو عشرة آلاف دولار في الأسبوع الواحد ..

وحمل العقد «الماركة التجارية المسجلة» التي تكفل للأفلام كل رواج .. «شارلي شابلن».

لقد نالت الأوزة التي تبيض ذهباً .. بعض هذا الذهب .

وتسلم ممثلنا الشيك الأول عند توقيع العقد الكبير، ونظر إلى الرقم الضخم الذي يحمله، ونقل بصره إلى أخيه سيدني بجواره .. ولم ينظر إلى وجهه ، بل إلى قيمته التي أخذ يتأملها ويدقق في تأمله لها ..

لم يعد يراها جيداً، ورأى قبعة ثانية أصغر منها حجماً وأقل سعة .. قبعة في يد أخيه الصغير يدور بها على المارة في شوارع لندن، بينما هو يرقص على نغمات عازف البيانو المتجول، ورأى بعض المارة يضعون فيها بعض دراهم لقاء ما متعوا به أنفسهم من رقصه الضاحك، ثم رأى القبعة وقد ارتفع ما بها من حصيلة دراهمهم .. وأخاه الصغير يجرى بها وهو يجرى خلفه وصاحب البيانو يجرى خلفهما، وقد لاذا بالفرار .. وبالقبعة .

وتمنى شارلي على الله .. لو أنه يرى الان صاحب البيانو الجوّال هذا، فيرد إليه بعض دينه. وعندما هبط شارلي من مكاتب الشركة ، لم يكف طوال الطريق عن تحسس الشيك الضخم في جيبه بين الحين والحين ..

**

هذه الدولارات كلها .. لم تكن أهم ما في الموضوع.

لقد نص عقده على أن يقدم اثنى عشر فيلماً .. في كل شهر فيلم، وأعطوا له الحرية الفنية في أمر هذه الأفلام، وأطلقوا يده فيها دون قيد أو شرط .. حرية مطلقة تامة غير مشروطة أو منقوصة.

وهذا هو المهم .. الحرية المطلقة.

وقد كفلت له .. لا أن يقوم بتمثيل الدور الأول في الأفلام كما جرت العادة فحسب، بل أن يخرجها أيضاً .. وهذا ما كان يطمح فيه منذ زمن ليس بالقصير.

وأكثر من هذا كله .. كفل له هذا العقد أن يكتب قصص أفلامه بنفسه.

إن شارلي، الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة حتى الحادية عشرة من عمره، والذي مازال يذكر كيف لجأ إلى أمه يوم تسلم دوره الأول من فرقة كارنو المسرحية، وكيف بات ليلته حتى مطلع الصباح وهي تقرأ له الدور وتحفظه إياه، شارلي هذا .. سيكتب اليوم كل أدواره بنفسه، وسيكتب كل أدوار غيره من الممثلين العاملين معه ..

إنها إرادة الإنسان .. عندما يريد.

وضع ممثلنا - ومخرجنا ومؤلفنا - قدميه على عتبة ستوديوهات شركة ميوتيوال، ليبدأ عمله فيها..

وما أن فعل، حتى بدأت مخاوفه تعود إليه. إنه لا يدري بعد ماذا سيفعل في الأفلام الإثنى عشر التي تعاقد عليها. أي الأدوار سيكتب، وكيف سيمثل، وكيف يخرج هذا الذي سيكتب وسيمثل ..

ولم يكن لديه أية فكرة عن الفيلم الأول .. وكان في حاجة إلى وحيه وإلهامه ، وكلما أمعن في البحث .. أمعن الوحي في الهرب .. وأمعن الإلهام في البعد، بينما تطلعت إليه عيون الفنيين والفنانين حوله .. في انتظار ما سيقدمه لهم ليشرعوا في العمل معه..

إنتظروه طويلاً حتى ملّوا الانتظار، وأخذت الظنون تهدهد رءوس أصحاب الشركة ومديريها.. وهم يقضون الوقت البطئ في انتظاره ..

وتعطل الأستوديو تماماً.

مر يوم، وتبعته أيام، والانتظار يطول أكثر فأكثر، وشارلي لم يبدأ أول أفلامه بعد ..

وذرع أرض الاستوديو الكبير بحثاً وتنقيباً عن هذا «الشيء» الذي يريد أن يقدمه .. دون نتيجة مباشرة .. كل هذا .. والاستوديو ورجاله على أهبة الاستعداد لأي إشارة منه .. للبدء في التنفيذ.. في التو واللحظة. كانوا كأصحاب العرس الذي تم فيه الاستعداد لكل كبيرة وصغيرة، وجهز فيه كل شيء .. إلا العروس لم تحضر بعد.

وبحث شارلي عن العروس المنتظرة .. عروس أحلامه، فكرة قصة جديدة أو موضوع جديد، وذهب بحثه أدراج الريح، عاودته عزلته ومرارته كلها دفعة واحدة، فرجع إلى صمته وحزنه، وأخذ ينظر في الفضاء حوله إلى لا شئ باحثاً عن «شيء». ابتعدت الابتسامة نهائياً عن شفتيه، وأصبح فوجد نفسه في أسوأ أيام حياته، وعاش مع الشقاء أسابيع تزحف ساعاتها بطيئة ثقيلة كالاحتضار.. ولا موت.

وغادر الاستوديو إلى الحياة ..

وفي الحياة وجد نفسه يسير مع الناس، ويتصعلك في الشارع مشرداً كما كان يوماً مضى .. يسير على غير هدى في لجة الدنيا وضجتها، ورأى نفسه يدخل متجراً عاماً .. دون قصد منه .. ودون أى هدف ..

شاهد فيه ما استوقف نظره .. البساط الميكانيكي الذي يكفى أن تقف عليه ليصعد بك إلى الطابق الأعلى .. السلم المتحرك ، واستراح إلى منظره وإلى شكل الناس فوقه، وتصور نفسه وتخيل الاحتمالات التي قد تحصل له إذا ما ركب هو ذاته هذا البساط العجيب ..

احتمالات كثيرة ولاشك قد تحدث له، وللناس معه ..

وغادر المتجر العام لتوه، جارياً إلى الاستوديو .. وقد وجد بعض هذا «الشئ» الذي أعياه، وأضناه، وسوّد عيشته.

وأظهر للعالم فيلماً قصيراً من أروع أفلامه الضاحكة، الهازلة في دعة وعذوبة مليئة بالمتعـــة والخيال الخصيب .. البعيد عن الإسفاف ، والقريب من الناس وحياة الناس ..

ظهر «الماشي على البساط» في مايو ١٩١٦ - من تمثيله وتأليفه وإخراجه.

وكما التقط موضوعه من الحياة .. التقط نجمة أفلامه الأولى، فقد قابل الشقراء الجميلة إدنا بيرفيانس في سكرتارية أحد رجال الصناعة في سان فرانسيسكو، ودربها بنفسه على التمثيل ليخلق منها بطلة شاركته أفلامه، وقامت أمامه بدور الحسناء التي يتعبد المتشرد في حبها .. من بعيد ، دون أن يحقق من حبه لها شيئاً لنفسه.

ولقد حقق شارلي بمجموعة أفلامه هذه - التي عملها لشركة ميوتيوال - مجداً وصل به إلى قمة السينما في وقتها. وفي كثير من هذه التحف الصغيرة .. تسنى له أن يضع الكثير من الأسس السينمائية التي دعمت هذا الفن الجديد كما حدد القوانين الأصيلة للفن الكوميدي في الأفلام، ووصل به إلى قمم لم يكن يحلم بها رجال هذا الفن من قبله ..

إنه هو الذي أدخل على هوليود ألواناً من الفن الإنساني، لم يعرفها الفن الأمريكي قبلاً على الإطلاق، ولم يفكر فيها البتة رجال هوليود قبل شارلي.

أضاف إلى الضحك لهجة ثانية .. هي العاطفة ..

فلم تعد كل الأفلام مجرد وسيلة تتكلف نشر الهرج والعبث.

ومن الجدير بنا أن نتريث هنا قليلاً، لنعرف لمحة عن طريقة عمله، ونلتقي به في أثناء مرحلة أخرى من مرحلة المهنة السينمائية التي كرس لها حياته ..

إن أول ما يميزه في أسلوب خلقه لأفلامه .. أنه لا يترك كبيرة أو صغيرة في العملية الضخمة التي يديرها ويشرف عليها .. حتى يباشرها بنفسه ليتأكد من نتيجتها التي يبغيها.

وأسوق لك مثلاً من أحد أفلامه..

والمثل الذي أحدثك عنه، يتكرر تقريباً في كل فيلم، بشكل أو بآخر. في فيلم «المهاجر»..

بعد انتهاء شارلي من تصويره وإعداده الأولى للعرض، قضى فناننا أربعة أيام كاملة يعمل نهاراً وليلاً عملاً متصلاً متواصلاً .. بلا رحمة ولا هوادة، ودون أن يعطي نفسه أو جسده أى حق من الراحة أو الغذاء، وقذف - خلال هذه الأيام الأربعة - إلى سلة المهملات .. تسعة أعشار المناظر التي قام بتصويرها لكثير من المشاهد .. بالرغم من جودتها ونفقاتها الباهظة، لأنها لم تكن - في رأيه هو - على الصورة المرضية تماماً مائة في المائة .. لما يرتضيه لمستوى عمله الفني ..

وبلغ من قدر إجهاده لنفسه في سبيل حصوله على هذه النتيجة، أنه ظهر في ردهة العرض الخاصة بالأستوديو آخر الأيام الأربعة .. وحول عينيه هالة زرقاء داكنة من الإجهاد وعدم النوم ..

لا قلته، وعلى ذقنه شعر لم يلتق بموس الحلاقة منذ أيام، وعنقه النحيف يتأرجح وسط ياقة قميصه المتسعة عليه .. والتي كانت بيضاء منذ أيام مضت ..

ولم يكن يقوي حقاً على الوقوف علي قدميه ..

لكن فيلمه كان قد انتهى على صورته التي يريدها له .. وهذا هو الأهم لديه .. وإن كان فيلمه لم ينته إلا على حساب أعصابه التي تغذى عليها.

إنه إحساسه بالمسئولية، ووعيه بالشرف الفني.

هذا هو احترام شارلي للناس السذّج من الجماهير العريضة .. التي ترى أفلامه وتوليها ثقتها، وهو أيضاً .. تقدير منه لوعي هذه الجماهير.

هذا مثل دارج من فيلم «المهاجر» الذي كُتب له الخلود، وهو من خير أفلامه القصيرة جميعاً..

لا تزيد مدة عرضه علي عشرين دقيقة فقط. وقد أنتج في يونية ١٩١٧، أي منذ أكثر من أربعين عاماً، ومازال متداولاً في دور العرض، في كل بقاع الدنيا .. حتى اليوم ..

ومازلنا نتذكره بكل خير، ونذكره ذكراً طيباً عطراً ..

فيلم صامت قصير .. أبيض وأسود، نتذكره من آن لآخر في زمن لا نكاد نتذكر فيه ما رأيناه بالأمس القريب فقط .. من أفلام ناطقة طويلة، وبالألوان الطبيعية، وبالسينماسكوب .. والسوبرسكوب.

ودعني أذكرك بالفيلم .. إن كنت لا تذكره، أو كنت لم تره..

شارلى المتشرد يلعب دور مهاجر فقير، في طريقه إلى أرض الميعاد وجنة الله في أرضه .. أمريكا .

ماذا جرى له.. ؟

نراه فوق ظهر السفينة التي أقلته وزملاءه إلى الجنة الجديدة، وقبل وصولهم إلى نيويورك .. نرى جماعة المهاجرين البؤساء محشورين في أجحار السفينة وعلى ظهرها .. كالسردين في علبته، وقد علق المسئولون الرسميون لكل منهم بطاقته مربوطة حول عنقه .. كأكياس البضائع والسلع المكدسة. وتقترب سفينة الأحلام هذه من الميناء .. تحمل لحومنا البشرية هذه ..

ونرى الضباط يكبلون المهاجرين بالحبال في صف طويل .. كالمواشي، أو كأسرى قرون ما قبل العصور الوسطى، في الوقت الذي يرى فيه هؤلاء العبيد التعساء .. تمثال الحرية.

مرة أخرى ..

وعلى الرغم من سنوات الحرب وظلامها .. وسوادها .. وانهيار القيم البشرية العليا خلال سنواتها العجاف ، يحلم رجلنا المتواضع الشريف .. شارلي .. يحلم بالحرية وبتمثالها .. وسط القيود والسدود.

شهرة مدوية وصلت إلى أقصى حدود المعمورة ..

ومجد مشى في ركابه .. وهو ما زال في صدر الشباب.

أصبح شارلي صديق الملايين والملايين من الناس، في كل أنحاء العالم، ومع ذلك .. لم يكن له أصدقاء.

كان أصدقاؤه من الندرة حتى لتخاله وحيداً في هوليود، كما كان من قبل في لندن. يعيش على صلة محدودة بقليل من زملائه .. ماري بيكفورد ودوجلاس فيربانكس الكبير وماك سينيت المخرج الذي قدمه للشاشة .. وصديق رابع .. خادمه الياباني.

لقد بدأت أحدثك عن حياة شارلي خارج نطاق السينما، وبدأت فيما يبدو لي .. أخوض في سيرة الناس. حسناً فلنخض فيها معا .. ولكن بمقدار، بالمقدار الذي تسمح به طبيعة مثل هذا الكتاب الذي اشتريته، أو استعرته ..

لنخض سيرته إذن، خوضاً هادفاً يصل بنا إلى معرفة الرجل عن قرب ورؤية صورته واضحة تمام الوضوح .. ما أمكن إلى ذلك سبيلاً .

لا تظن شارلي معبود الجماهير الآن، وممثل السينما العالمية رقم ١، وفناننا المبدع الكبير .. يختلف – إذا ما التقيت به – عن شارلي الذي رأيته منذ سنوات في طرقات كيننجتون . لم يكن هناك فرق كبير بين شارلي اليوم، وشارلي بالأمس .. الشاب الخجول الذي قدمه أخوه إلى فرقة كارنو المسرحية .. لم يكن هناك فرق كبير بينهما ..

بل إنك لتراه وقد غمره الحزن نفسه والانطواء عينه والصمت ذاته الذي قلما يخرج من إساره إلا ليعود إليه مرة أخرى. لكنه إذا خرج من قوقعة صمته وحزنه، فهو عندئذ ينطلق في طفولة ضاحكة مرحة تبلغ أحياناً حد الهرج الصاخب مع الزملاء المقربين .. ليثير البهجة والفرحة في اجتماعاتهم حيث يكونون وكيف يكون ..

وفي مثل هذه الاجتماعات الخاصة .. يقلد لمن حوله شخصيات الشارع التي يعرفها جيداً بقدر حبه لها، ويقلد الكثير من النماذج البشرية والمواقف الشاذة. كم مرات قلد لهم مشهد الفتاة المراهقة التي تستمع لكلمات الحب الأول .. في خلوة الغرام والنجوى .. كيف تخجل أو تتظاهر بالخجل، وكيف تحمر منها الوجنات أو تدعى الخفر، وكيف وكيف .. مما يعلم المراهقون وتعلم المراهقات. وغير ضروب التقليد، يرقص شارلي نمراً ضاحكة بارعة .. كأى راقص «باليه»، وكأى مهرج في سيرك. أما غناؤه لأصدقائه .. فهو كثير الغناء إذا أحب الجو الموجود فيه، وهو يغني كل ألوانه وأنواعه .. بكل اللغات التي يعرفها، والتي لا يعرفها.

إنه يحب أن يسعد الناس حوله، وكأن إسعاد الناس في دنيانا هو أهم وظائفه .. وكل رسالته ..

ولا يوجد أحب إلى قلبه أكثر من رؤية قلوب غيره تنبض بالسعادة، وهو يعمل المستحيل ليحقق لغيره سعادته هذه بأي ثمن .. فهو خير من يعرف ثمن الشقاء ..

لا يهدأ باله إلا إذا حقق سعادة القوم معه .

ثم ..

يعود هو آخر المطاف إلى داره .. وقد غادر القوم والأصدقاء والزملاء ، وحيداً إلا من الحزن نفسه .. والانطواء الملازم لذاته الدائمة.

يعود إلى الدار الصغيرة المتواضعة، المكونة من حجرات قليلة، بسيطة الفراش حتى لتكاد تكون خالية .. وقد تجد بعضها عارياً تماماً من الأثاث. فإذا ما دخل حجرته، أغلق بابها علي نفسه ليقرأ ..

يقرأ كثيراً ، في كل ميادين العلوم والفنون والآداب.

إنه يثقف نفسه، ويعوض مافاته في سنوات عمره الأولى .. التي حَرَّم فيها فقره عليه العلم والعرفان، وسلبه فيها فقره حقه في الثقافة والمعرفة.

لم يغلق عقله على لون واحد من هذا العلم وهذه المعرفة، بل فتح الباب على مصراعيه واسعاً لكل مدارس الفكر المختلفة، يقتطف من ثقافة العالم أقربها إلى حسه ووعيه ومنطقه، وأقربها إلى وجهات نظره في الحياة والفن، وأقربها إلى رسالته التي يبتغيها في الحياة والفن.

وبجوار قراءاته التي ذكرت لك، يقرأ دارساً الأديان وتاريخ كل دين من عقائد بشريتنا .. منذ العصور الأولى حتى عصر محمد صلى الله عليه وسلم، ويقرأ في الفلسفات كلها بعقل متحرر، وإنك لترى فى دراساته هذه فلسفة إفلاطون تسير بجوار فلسفة ديكارت .. وبوذا مع شوبنهور .. وعمر الخيام وكارل ماركس . فإذا ما بعدت عن الفلسفة والفلاسفة .. وجدت عنده الموسيقى والموسيقيين معاً في أخاء .. وجدت باخ وبتهوفن وتشايكوفسكي .. ومتتابعات حديثة وكلاسيكية .. وأغاني شعبية من إلهام الشعوب. ثم أضف إلى كل هذا : الشعر والشعراء .. المحدثين أو القدامى منهم سواء بسواء.

ثم، تفاجأ بجوار ذلك الشعر ..

بدراساته الجدية الرزينة عن تمويل البنوك، أو عن تأثير الاقتصاد الدولي في الحضارة، أو عن العمال ومشكلات البطالة بعد الحرب.

هذه .. لمحة خاطفة عن ثقافة ودراسة ممثلنا الضاحك، الذي تركناه وقد أغلق باب غرفته المتواضعة على نفسه ليقرأ، وحيداً حزيناً مع همومه.

ونحن .. إذ نعود إليه ونطرق بابه، قلما يفتح لنا الباب ..

وإذا انتظرناه خارجه، قلما يخرج علينا .. أياماً، وأياماً قد تطول، فكثيراً ما يظل بابه مغلقاً عليه .. وهو على ما رأيت من وحدة وما أحسست من حزنه وهمِّه، وكثيراً ما يظل في عزلته المطلقة هذه .. لا يرى أحداً ولا يكلم مخلوقاً ..

إنه في سجن مع نفسه.

وما أتعس حياة السجون لاسيما حين تنعدم فيها القضبان، وتصبح أنت نفسك الساجن .. والمسجون .. والسجّان.

**

نخوض أكثر في سيرة الرجل ، في مزاجه الخاص ..

مراراً .. ترك الأستوديو والعمل على قدم وساق .. وهناك الأضواء والتصوير وجيش من العمال والفنيين والممثلين. ترك كل هذا - دون سا تمهيد أو ترتيب أو إخطار - ليمضى اليوم كله متصعلكاً في شوارع هوليود الجانبية ، البعيدة عن الحياة الصاخبة .. والقريبة من قلبه.

بماذا يمكنك أن تؤول هذه الظاهرة المتكررة عنده ..؟

فيما يلوح لي أنا - إن أردت الرأي - أنه حنينه الدائم للتشرد .. التشرد الكامن في أعماقه .. منذ طفولته وأيامها الأولى التي لا تنسى.

أما إذا كان لنا أن نذكر رأى أوسكار وايلد القائل :

«إن الحياة تقلد الفن»..

فسنجد - بناءً على ذلك - شارلي الإنسان .. في حياته الخاصة، يقلد .. شارلي الفنان في أفلامه.

أي شارلي يقلد شارلي ، يقلد نفسه.

لكنه في واقع الأمر، يهرب من السيد/ شارلي شابلن الممثل الكبير. والمخرج الكبير .. والمؤلف الكبير، يهرب من سيادته ليلتقى بشارلي الصبي الصغير في أحياء كيننجتون المعدمة وأزقة لندن الموغلة في العدم.

وقد يكون هذا بعض ازدواج الشخصية عنده، ولكنى لا أميل إلا إلى الأخذ بالتفسير الساذج القريب من الطبيعة التي نسير معها .. في حياة رجلنا الذي نسير معه، وهذا التفسير عندي هو:

إنه يعود إلى شارلي المتشرد .. في مادة أفلامه وفنه دائماً .. وها نحن نراه بين الحين والحين.. يعود إليه في مادة حياته الشخصية أيضاً. هذا هو كل ما هنالك.

ونرجع إلى حياته العملية .. لسطور فقط، لنربطك بموقفه العام ..

فأقول لك : إن عقده مع شركة ميوتيوال قد انتهى ، وبانتهائه انهالت على شارلي العقود من

كل حدب وصوب .. من كل الشركات الكبرى، أمطروه وابلاً من الترغيب والغواية ليعمل لحسابهم.. كما يحب أن يعمل، وبالشكل الذي يريده ويبغيه.

ولم تُقدم الشركات هذه على ما أقدمت من وضع أموالها وإمكانياتها تحت إمرته .. إعجاباً بفنه لوجه الفن وحده، أو تقديراً لمواهبه .. إحتراماً لمواهب البشر الخارقة للعادة، أو حتى لسواد عينيه.. فعيناه يميل لونهما إلى العمل المصفي المنعكسة عليه زرقة سماء لندن .. عندما ينقشع عنها الضباب.

إذن، لماذا أقدمت على ما أقدمت عليه ..؟

ومرة أخرى، أقول لك إن الشركات الأمريكية فعلت كل هذا معه .. لقيمته التجارية، لأرقام الإيرادات القياسية التي تدرها أفلامه في جميع الأسواق ، ولأن الجماهير – كل الجماهير – تقبل على أفلامه إقبالاً انعدم نظيره منذ بدأت الأفلام حتى اليوم .. وإن هذا الإقبال يعني زيادة في تذكرات الدخول وإيرادها ، أي زيادة في المكاسب وفي الغنائم وفي الأرباح .. زيادة في الدولارات.

إنها مسألة حسابية محضة .. تجارة مربحة كل الربح.

لذلك .. تقدمت شركة فيرست ناشيونال في يونية سنة ١٩١٧ ومعها عقدها. نصَّ العقد على أن يعمل لحسابها ثمانية أفلام، يحدد أطوالها بالشكل الذي يراه، وينجزها في مدة لا تزيد على سنة ونصف، ونصَّ العقد أيضاً على أن يتقاضى لقاء جهوده الفنية مبلغاً إجمالياً قدره مليون دولار..

مليون دولار .. في سنة ونصف.

ووقع العقد صديقنا .. خريج ملجأ هانويل للأيتام.

كان في الثامنة والعشرين من عمره، ولديه – كما رأيت – من المال الكفاية، ومن الشهرة والمجد ما فوق كفايته، وينقصه ما هو أهم من المال ومن الشهرة والمجد ..

ينقصه الحب.

الحب الذي فقده هناك فوق مقاعد حدائق كيننجتون العامة، حبه الأول .. الذي كان فيه من الواقع أقل القليل، إن كان لهذا القليل كيان، حبه للآنسة هيتي كيلي.

ولندخل في حياته الخاصة ثانية، وقد عرفت الآن بالضبط موقف حياته العامة .. من حيث أنه شخص عام ملك للناس وللرأي العام.

فجأة .. وبغير مقدمات ..

تزوج شارلي في سبتمبرمن سنة ١٩١٧

إسم الزوجة : ميلدريد هاريس.

ولم تكن ميلدريد بطلة أفلامه، أو ممثلة ثانوية في هذه الأفلام، بل مجرد «كومبارس» .. أي

نكرة من نكرات الممثلات، واحدة من الفتيات ممن لا تحس الجماهير بوجودهن عند رؤيتها الأفلام، واحدة قد تمر من بعيد في شارع أو تجلس مع غيرها في مؤخرة المنظر وسط الزحام.

لم تكن من النجوم ، أو شبيهات النجوم .. لكنها مست قلبه، وأصعدته معها إلى النجوم الحالمة بين السحب.

وفي الحياة، لا يعترف الحب بنجوم السينما بقدر ما يعترف بنجوم السماء.

والحب لا يعترف بنظام الطبقات .. وشارلي هو الحب نفسه.

ميلدريد هاريس ..

لا أملك أن أعرفك بها إلا في سطر واحد : كان الزهر من عمرها - إذ كانت بنت الخامسة عشرة - وكان له منها جمالها، وليس له منها عيونها الزرق والشعر الذهب ..

وكان شارلي يقاسي من وحدته كما أسلفت .. حين رأي ميلدريد . أرسل لهاأزهاره، وتكررت الأزهار كل يوم، ثم أخذ ينتظرها في سيارته ساعات أمام باب الأستوديو حيث تعمل .. حتى يفتح بابه ساعة هناء، فيفتح قلبه معه .. على عيونها الزرق والشعر الذهب يتوج الخمسة عشر ربيعاً المتبخترة تتهادى نحو سيارته ..

وتركب السيارة، وتنطلق بهما إلى حيث يعلم الله، ولا أعلم ..

الممثل الكبير والمخرج الكبير والمؤلف الكبير .. ونكرة معه.

وفجأة .. وبغير مقدمات كما سبق وقلت لك :

كان الزواج الذي لم ينتظره أحد، ولم يتوقعه أحد .. حتى أقرب المقربين إليه، حتى أخوه سيدني الذي فوجىء بخبره كغيره من الملايين.

تزوج شارلي شابلن .. ميلدريد هاريس ..

وأصعدته معها إلى النجوم، والصعود إلى النجوم ينتهي دائماً أبداً بالهبوط منها .. لأن جاذبية أمنا الأرض تشد إليها أبناءها الآدميين .. تشدهم إليها بقوة أكبر بكثير من جاذبية النجوم. إن للسفر إلى النجوم نوع واحد من التذكرات كله «ذهاب وإياب» ..

لذلك آب شارلي من سفره .. ليوقع وثيقة الطلاق.

وإليك بعض التفصيلات .. إن كنت من غواتها :

لم يكن من المعقول أبداً أن تعيش عقلية كبيرة مركبة كعقلية شارلي .. مع طفلة مراهقة، إذ ينعدم بينهما التجاوب الذهني في الأحاسيس والمشاعر والأذواق الخاصة والعامة، كما تختلف أيضا غالبية وجهات النظر عندهما.

هذا هو الأساس الجوهري .. في طلاقهما.

وأياً كانت الأسباب التي أدت إلى هذه الزيجة الفاشلة .. فقد بدأت طفلتنا المراهقة تفتح فمها الجميل لتتكلم .. ولتكيل الإتهامات لزوجها، لتبرر للرأي العام المتتبع لأخبار شارلي .. ولتبرر للقضاء وللصحافة طلبها الطلاق.

فتحت فمها الجميل واسعاً .. على قدر طاقتها، وعلى قدر أكبر من طاقتها ..

وقالت كل ما شاء لها محاميها أن تقوله لتكسب قضيتها، وتكسب مع حكم الطلاق الآلاف المؤلفة من الدولارات تجنيها من صفقة زواجها وطلاقها الرابحة. ولقد لقنها محاميها البارع الكثير.. لتظهر بمظهر البائسة المجني عليها والمضحى بها.

قال الفم الجميل .. عندما فتحه لها محاميها واسعاً :

كثيراً ما كان يفر شارلي منها .. ليلجأ إلى الشاطئ ، ليحملق ساعات في أمواجه التي تتكالب نحو اليابسة. ثم أردفت فقالت - لا فض فوها - كثيراً ما استمع شارلي ساعات أخرى إلى الموسيقى.. ولا يستمع إلى صوتها المراهق - صوت ميلريد - بجواره يثرثر بما لا قدرة لأذنيه الناضجتين على إحتمال تفاهاته الفجة. ثم عادت ففتحت فمها الجميل أوسع وأوسع لتقول عن شارلي .. إنه كثيراً ما نسى جسدها المزدهر بالستة عشر ربيعاً - وهكذا قالت هي - ليحلق مع أحلامه الفنية تشده إليها، وتباعد بينه وبين عيونها الزرق وشعرها الذهب .. عيون وشعر ميلدريد، واستمر فمها الجميل فقال إنه .. كثيراً ما راح في صومعة صمته، وللصمت عنده قدسيته ..

وقال فمها الجميل الكثير، ولم يقل شارلي شيئاً .. على الإطلاق .

كما رفض أن يدلي بأي تصريح للجرائد التي خاضت في عرضه .. وفي حياته الخاصة، بالأسلوب نفسه الذي سلكته معه مطلقته ومحاميها البارع الحريص على قضيتها .. حرصه على أجوره المتضخمة منها. وماذا تظنه يقول لهذه الجرائد الأمريكية بعد كل ما قالت عنه الزوجة، وكل ما قالت عنه الجرائد مما لم تقل الزوجة. وللجرائد في أمريكا - إن كنت لم تدر بعد - تخصص في الفضائح وأنباء الفضائح .. ولها اهتمام بالخوض في أعراض بعض الناس .. لإثارة وتسلية بعضهم الآخر.

لقد رفض شارلي أن يدافع عن نفسه، وفضل أن يلوذ بصمته، وفضل أن يتحمل المأساة في أناة وفي روية .. وفي صبر ..

حقيقة جميلة ما بدأت به هذا الفصل من حديثي معك .. من أول عنوانه : شهرة ومجد .. وهموم.

وأجمل من هذا .. وأقرب إلى الحقيقة، أن أنهي هذا الفصل من حديثنا معاً :

هموم .. وهموم .. وهموم.

ذهبت ميلدريد هاريس ..

وذهبت معها آلاف الدولارات التي سلبتها، من صفقة زيجتها المريحة ..

وذهبت معها حملة الصحافة الأمريكية الرهيبة، التي شنتها ..

وذهبت معها المأساة وهمومها من البداية إلى النهاية ..

ذهب كل هذا .. وغيره، وبقى شارلي شابلن.

بقى .. ليعمل من جديد. ليعمل مرة أخرى للإنسانية كلها، وهو أكثر إيماناً بها الآن مما كان في أي يوم مضى – إن حق لنا أن نتصوره أقل إيماناً بها من قبل – فمأساته التي عرفت .. سحابة صيف في حياة هذا الرجل المليئة بالسحب .. صيفاً وشتاءً.

إن قوة إيمانه بالقضايا العامة لإنسانية من التبشير بالحب وبالخير وبالرحمة، والتنوير بجوهر مشكلات عصرنا، والوقوف في صف واحد مع الشعوب والدهماء والمستضعفين في الدنيا، والإشادة بالمثل العليا ومبادئ الحق والحرية والعدل بين الناس .. كل هذه القوى الروحية تقف بجانبه .. ويقف بجانبها، فتفتت ما قد يمر بحياته من هموم ومشكلات خاصة .. كالمشكلة التي مررنا بها للتو واللحظة .. مشكلة طلاقه.

بقى .. ليعمل من جديد ، ماذا يعمل .. ؟

أ قول لك ..

قفزت إلى مخيلته صورة شاحبة لغلام صغير، يعيش في ظروف جد مؤلمة على النفوس عموماً .. وعلى نفس شارلي بوجه خاص، ولكن .. أي غلام هذا الذي قفز إلى مخيلته، وفي هذا الوقت بالذات ..؟

أقول لك ، ولا تتعجل الحوادث ..

لقد رزق شارلي طفلاً من ميلدريد هاريس .. قبل طلاقهما، ولم تمهل الحياة طفلنا كثيراً، ومات الطفل قبل أن يموت زواج والديه ..

فارق الحياة قبل أن تفارق أمه أباه ..

لكنه .. لم يفارق مخيلة أبيه أبداً ..

وأغلب الظن أن هذا الطفل عاش في مخيلة أبيه حياته كلها، وأنه لم يمت في خياله كما مات في الحياة، وأنه احتضنه طويلاً .. ورعاه يترعرع في أحلامه، ويكبر يوماً بعد يوم، وتمر عليه الشهور والسنوات الصغيرة وهو يكبر .. حتى أصبح في عمر الغلام الذي قلت لك من سطور إن صورته الشاحبة قفزت إلى مخيلة شارلي ..



الاوسكار - ١٩٧٢

هذا الغلام، هو الذي بدأ به وعكس من خياله الخصب عليه فناً منحه الوجود الذي حرمه الموت على ابنه .

وأنا إذ أقول لك إن فن شارلي منح هذا الغلام الوجود .. أقولها تواضعاً مني خيفة الإشادة بفن

شارلي أكثر مما يجب، وإن تركت لشأني لفضلت أن أقول لك إن فنه منح هذا الغلام .. الخلود، لاالوجود .. ومجرد الوجود. كان ذلك في الفيلم الذي عرفه العالم .. ومازال يعرفه باسم «الغلام».. أو «الصبي».

إن كثيراً من جوانب إنسانيتنا تعيش دائماً في طفولاتنا ..

وطفولة شارلي – أقصد وجهة نظره في الطفولة عموماً .. لا طفولته هو – التي صورها في الفيلم .. مزيج موحد للغالبية العظمى من الطفولات الشقية، وفي مقدمتها – بطبيعة الحال – طفولة شارلي نفسه. والفيلم في جوهره تعبير عن الحنين الذي يكتنفنا عندما نوغل في أعمارنا .. حتى ليدعونا إلى اجترار ذكريات أيامنا التي مضت، وما يكون قد صاحبها من هناء . أو من شقاء.

وربما كانت النواحي الشقية من طفولاتنا هي أحقها بالاجترار فالذكرى، وأحقها بدخول أعمال الفن وتاريخه .. من الباب الكبير.

لذا عاش جزء مهم من نتاج الفن والأدب في بعض مناحي هذا الشقاء الذي غلف فن الطفولة – أعني الفن الذي طرق موضوعات الطفولة. وكذلك عاش الأدب الذي عالجها .. وربطها بالألم وبالدموع، وربطنا معها في هذا الإسار الذي لا فكاك منه.

والقصة .. في فيلم «الغلام» من حيث الأدب الصرف، تقف في لونها مع بقية تحف الآداب العالمية .. وفي صف واحد .. إن لم تتقدم بعض مناطق هذا الصف.

وهي ، ككل أفلام شارلي الأخيرة التي كلمتك عنها .. من تأليفه.

وهي أيضاً، مثال واضح لمقدرة هذا الرجل المتعددة العبقريات.

وهي – بعد كل هذا – تقودنا الآن لنطرق أدب شارلي ونلتقي معه بالأديب المؤلف، فمن هذه القصة يبدأ أدبه في النضوج، وهي – فيما أعتقد عن يقين – أول مزج للأدب السينمائي بالأدب المقروء المعروف لنا من قبل، وأول تزاوج بين السينما بوصفها فناً .. والأدب من حيث هو فن كذلك.

سألخص لك القصة ..

نلتقي أول ما نلتقي بأم تجبرها الظروف الاجتماعية القاسية على التخلص من رضيعها .. الذي يرفض والده الشرعي الاعتراف ببنوته ونسبه إليه، كما رفض الزواج من أمه قبلاً.

تضعه أمه في عرض الطريق .. مرغمة ..

ويلتقي بالطفل الحديث الولادة متشرد فقير لا يكاد يجد قوت يومه .. هو شارلي، لا يستريح قلبه في نهاية الأمر حتى يتبنى هذا الرضيع الذي لا يجد من يتبناه .. أو يقبل بنوته، وسواء في ذلك والده الشرعي وغير والده. يتبناه هذا المتشرد الضائع في المدينة الكبيرة التي أضاعته .. قبل أن تشرع في إضاعة هذا الرضيع الآن ..

يتكفل إذن هذا الضائع بحياة ضائع غيره.

وهنا، ترى مرحلة من أدق مراحل القصة .. كيف يلعب المتشرد دور الأم الرضيع، وكيف يوفر له ما لا يوفره لنفسه من أسباب العيش .. في ظروف جد قاسية، وكيف يحقق له مالا قدرة له به.. حتى يشب الرضيع، ويبلغ طفولته ..

وتربط الحياة بين البائسين.

وتلمس الإرتباط الوثيق، الذي لا تنفصل عراه بين الطفل ووالده بالتبني .. شارلي المتشرد. صورتان مختلفتان لمخلوق واحد .. في عمرين مختلفين.

متشرد كبير ومتشرد صغير

هاتان الشخصيتان للمتشردَيْن ، هما شخصية واحدة لشارلي. يلعب الشخصية الأولى شارلي متشرد الأفلام السابقة، ويلعب الثانية جاكي كوجان .. يمثلها كما لو أنه شارلي الصغير، الطفل المشرد في أزقة كيننجتون بلندن.

وهذا الترديد الجميل لذات الشخصية الواحدة في عمرين مختلفين ، هو حسنة مهمة من حسنات هذه القصة.

يستمر كفاح المتشردَيْن في سبيل الحياة، ويصل بهما حد المأساة، ولكن أية مأساة ..؟ مأساة مجلجلة بالضحكات القارصة، وبالسخرية من طبائع بعض البشر الملحد ببشرْيته .. وفي مقدمة هولاء الملحدين السلطات الرسمية المتظاهرة بالعطف على الطفولة المشردة. وفي هذه المنطقة من القصة تجد نفسك وجهاً لوجه أمام ما عرفت من طفولة شارلي، وما كان من موقف هذه السلطات الرسمية معه في لندن، وما كان من قصة سجنه .. في ملجأ هانويل للأيتام.

يصب أديبنا المؤلف مادته الأولية هذه .. في قالب واقعي ..

ومتى كان ذلك .. ؟

– في سنة ١٩١٧ وسنة ١٩١٨، لا في سنة ١٩٥٨ – يكتب هذه القصة لأكثر من أربعين سنة بمثل واقعيتها ..

هذا هو بعض قدرها التاريخي.

أما أسلوبها ، فهو فريد وعجيب ، أسلوب شارلي الذي عُرف عنه من مزج للواقع المادي بالخيال الشاعري. الخيال البَنَّاء المعبر عن أحلام الواقع وآماله، وليس الخيال الواخم .. المريض .. المنحل

أو المنحرف .. خيال هو بعض الواقع وجزء متمم له حتى تجيء الحقيقة كاملة، غيرُ مبتورة أو منقوصة .. أو معتلة.

ونعود إلى قصتنا ..

التي وصلت إلى حد المأساة باشتباكها مع السلطات الرسمية الملحدة يصل الاشتباك إلى ذروته عندما تصر السلطات على فصل المتشرد الكبير عن الصغير، وهنا ترينا الحادثة كيف قاوم كل منهما الانفصال، وكيف نجح المسئولون في فصلهما أخيراً، وكيف يتمزق قلبك مع تمزق قلبيهما.

ثم .. كيف يحاول كلاهما - بعد ذلك أن يرى صاحبه ويتصل به وكيف يكون النصر في نهاية قصتنا..؟

في لقاء البائسَين المنفصلين قصراً وظلماً وغبناً. لقاء ينتصر فيه حب الحياة على أعداء الحياة.

لاشك أنى قد شوهت لك القصة .. بمجرد تلخيصي لها أولاً .. وما من ريب أني عدت فأكدت تشويهها بكتابتها .. وهي التى لا تكتب أبداً، ولا تقرأ إطلاقاً ..

بل ترى ..

إن أسلوبها السينمائي المحض، لا يعنيها على الحروف والألفاظ والجمل فوق السطور .. وبين السطور ..

بل يبنيها بالصور ..

صورة بعد صورة، والمنظر يتلو المنظر .. والمشهد يعقب سابقه ويلحق بما بعده .. هذا الأسلوب السينمائي الذي يبنى قصتنا برؤيتك الممثل وخلجات تعبيره، ويبنيها لك بعناصر كثيرة تمهد لخلق الجو الذي يساعدك علي فهم أحداثها .. والإحساس الكامن في هذه الأحداث، ثم يساعدك على التأثر بمضمونها العاطفي .. والتشبع بما حمَّلها مؤلفها من عواطف.

وقصتنا - قبل أى شيء آخر - قصة عاطفية.

وعاطفيتها هذه .. هي قمة ما وصل إليه فن شارلي، وهي أوّل نجاح كبير في تحقيق ذاك «الشيء» الذي أضناه البحث والتنقيب عنه. لقد وجده في هذه العاطفة المتدفقة السارية في مشاهد القصة، والتي تصل بك إلى البكاء والدموع .. وقد تتركك في بكائك وقتاً ليس بالقصير دون أن تجد فيها ما يثير ضحكك .. وإن وجدت الضحك فهو موقوت لا يلبث أن ينتهي .. ليعود بك إلى ما كنت فيه من دموع.

وبعد ..

فقد سبق أن قلت لك من صفحات فقط أن «القصة ..» في فيلم «الغلام» من حيث الأدب الصرف، تقف في لونها مع بقية تحف الآداب العالمية، وفي صف واحد ..».

كنت أعني ما أقول .. ولا أرمي بالقول جزافاً، ولنقلّب معاً صفحات الآداب العالمية .. ولأبدأ بتذكيرك حتى ترى بنفسك ما تريد أن تراه .. «الأيام» لطه حسين .. إن صلب عنصر الدراما في«الأيام» هو ذاته في «الغلام» .. فالعمى الذي يدفع الصبي عند طه حسين هو التشريد الذي يدفع الصبي عند شارلي، والتفصيلات الإنسانية نفسها واحدة، وان اختلف لونا القصتين من ناحية مادتهما .. فإن مضمونهما الدرامي واحد، وهو الذي يسمو بهما إلى المستوى الفكري العالمي الذي قصدته.

وصبي آخر، في تحفة عالمية أخرى ..

محسن .. في «عودة الروح» لتوفيق الحكيم . إن طفولته الحزينة تسيطر على ذكريات الجزء الأول من القصة، وتقترب بك من حزن «الغلام» عند شارلي .. وإن اختلفت طبقة محسن المتوسطة، فلم يصل به فقرها إلى التشرد الذي التقينا به في قصة فيلمنا «الغلام».

وطفل آخر .. من الأدب العربي المعاصر لثورتنا التحريرية، هذا هو محور قصة واقعية لإبراهيم عبد الحليم صاحب «أيام الطفولة» ، وهي أيام مريرة لطفولة أمَرّ، وربما كان صبينا هنا هو أقرب الصبية إلى الواقعية بمفهومها الحديث، وربما كانت طفولته أقرب طفولات أدبنا العربي – قديمه وحديثه ومعاصره – إلى طفولة «الغلام».

ثلاثة صبية من الأدب العربي، العالمي النزعة والتفكير.

وثلاثة آخرون .. من الأدب الغربي ..

«دافيد كوبرفيلد» للكاتب الأستاذ الذي لعب دوراً إيجابياً في فكر شارلي .. شارلز ديكنز، لا ريب عندي في أن دافيد وغلام شارلي من أصل واحد، ولاسيما أن جو الأحداث في القصتين واحد .. لندن وجوها الفقير.

وكاتب وأستاذ أكبر .. ماكسيم جوركي، في قصة طفولته .. نفس الطفولة ذاتها التي رأيتها عند شارلي، مع فارق واحد .. إن الواقعية عند جوركي أكثر وعياً بحقيقة المشكلات المادية وتفسيراتها منها عند شارلي .. للغرف في العاطفية أصلاً وفصلاً.

ومثلما صعدت بك إلى هذه القمة العليا عند جوركي، أهبط بك كثيراً .. أو قليلاً، إلى قمة ثانية وقصة ثانية وصبي ثان .. بطل «المهزلة الإنسانية» تأليف الكاتب الأمريكي الأرمني الأصل وليم ساروبان، ومع هذا الصبي نشهد لوناً آخر من السخريات التي تمر بنا في غلام شارلي، أصل حديثنا هذا ..

حقاً لم أرم بالقول جزافاً عندما ذكرت لك .. أن الفصة في فيلم الغلام تقف في لونها مع بقية تحف العالم الأدبية .. ولْتَرَ بنفسك ما تريد أن تراه.

ولابد من عودة إلى الفيلم، وإلى سيرة صاحبه ..

لقد إنتهى شارلي من إعداده للعرض، في الوقــت نفسه الذي كانت فيه الحرب العالمية الأولى قد أنتهت ، لتبدأ الدنيا مرحلة ثانية من مراحل تاريخها المتطور دواماً ..

وحياة شارلي .. ترتبط بدنيانا، وهي لذلك ترتبط بتاريخ العالم، وبمراحل تطوره . فعليه إذن أن يلعب دوره .. في الحياة.

**

وبانتهاء فيلمه الأخير .. تدخل حياته دوراً جديداً .. يرتبط بالعالم أكثر، مما ارتبطت به حياته من قبل، ويسهم في حياة الناس بقسط إيجابي من التأثير والتوجيه .. لم يتعوده الناس من ممثل- وممثل مضحك - مفروض فيه أن يسلي الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ..

الفصل الثالث

ما بعد الحرب الأولى

ما بعد الحرب الأولى

نحن الآن في أواخر سنة ١٩١٨

وقد انتهى الحرب والضرب .. والكر والفر.

وبهذه النهاية .. جدَّ على العالم حدث تاريخي كبير، هز أركان الدنيا هزة عنيفة .. زعزت جذور السياسة العالمية والاقتصاد العالمي . ولم يكن هذا الحدث إلا ظهور نجمة حمراء .. في سماء روسيا القيصرية التي دالت دولتها فاختفت من الوجود .. كأن لم تكن.

وسجلت النجمة الحمراء اسمها في دفاتر المواليد .. «اتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية».

اسم غريب ..

وأغرب منه، أنه أقض مضجع العم سام .. النائم فوق سريره في واشنجطن، يحلم باستعمار الدنيا دفعة واحدة وقد انتهت الحرب آخر الأمر، لذلك .. غادر العم سام سريره مذعوراً، لأنه أحس أن حلمه باستعمار الدنيا دفعة واحدة .. أصبح في خطر ، خطر أحمر.

ومن هنا بدأت القضية ..

القضية التي ذكرتها لك عرضاً في أول صفحة من هذا الكتاب، فقد شاء العم سام أن يربط بين هذا الخطر الأحمر .. وبين شارلي، وأن يخلق علاقة بين النجمة الحمراء في سماء روسيا .. وبين شارلي، وأفلام شارلي ، ورسالته في الفن والحياة.

هذه هي القضية ، ومن هنا بدأت حين غادر العم سام سريره مذعوراً .. ومعه أكبر معداته الحربية، وأكبر دفاتر شيكاته. ثم اتجه ومعه ما تيسر من الحلفاء .. إلى بلاد النجمة الحمراء .

ولم يكذب خبراً ..

فأعلنت أمريكا الحرب على النجمة الحمراء، مثلما أعلن الفارس المغوار «دون كيشوت» الحرب من قبل .. على طواحين الهواء ..

وهذه الحرب – حرب أمريكا لا دون كيشوت – هي المعروفة في كتب التاريخ تحت اسم .. حرب التدخل، وإن لم يجد تدخل أمريكا في شئون الشعوب شيئاً .. كما هي العادة، اللهم إلا فشلها الذريع هي وأعوانها .. وما كان من تراجع العم سام إلى سريره في واشنجطن .. يحلم من جديد باستعماره العالم دفعة واحدة، وماكان من بقاء الاتحاد السوفيتي ونجمته الحمراء .. في سماء روسيا.

وبدأ السطر الأول، من عريضة الاتهام في قضية شارلي :

إنتهزت الفرصة صحافة المليونير الأمريكي راندولف هيرست، ولم تدعها تمر دون أن تزج بعدوها اللدود شارلي .. في معركة النجمة الحمراء التي يتتبع العالم أخبارها أولاً بأول.

ولقد سبق لجرائد هيرست الهجوم على شارلي من قبل .. والتشهير به عندما طلق زوجته، وها هي الآن تواصل حملة العداء .. مرة أخرى .. أخذ رجالها يمطرون شارلي بوابل أسئلتهم المغرضة لإحراجه وهو الذي هاجم في أفلامه كبار الأغنياء الأمريكيين وملوك المال منهم .. لاسيما كبار الاحتكاريين من أمثال ملك الصحافة هذا .. المليونير راندولف هيرست.

وكان أهم الأسئلة التي وجهوها إليه :

- هل تفكر في زيارة الاتحاد السوفيتي .. وما رأيك في الثورة الروسية .. وماذا تظن في لينين، وهل تريد مقابلته .. ومتي وأين ستكون هذه المقابلة .. ؟

وأسئلة أخرى غير ما ذكرت لك - على النمط نفسه والأسلوب المحرج عينه - إبتغاء الصيد في الماء العكر، وابتغاء زجه فيما لا دخل له به ..

ولا تنس أن هذه الأسئلة قد وجهت إلى شارلي .. الإنجليزي الجنسية المقيم في أمريكا، وأمريكا التي رجعت بخفَّي حنين - كما يقولون حقاً - من محاربتها الاتحاد السوفيتي وتدخلها في أموره.

وانتظر رجال الصحافة رداً على سؤالهم .. بالتفصيل .

إنتظروا طويلاً .. وتحالف شارلي مع صمته.

وماذا تظنه قد يقول لهم غير هذا الصمت والتذرع به ..

إنه لم يكن علي علم كبير بالأحداث التي جدَّت على تاريخ العالم .. في الروسيا ذات النجمة الحمراء ، شأنه في ذلك شأن معظم الناس البعيدين عن السياسة .. وكل ما كان يعلمه عنها .. هو ما يقدِّر للرجل المثقف المتتبع لمجريات الأمور في الدنيا حوله .. مما قد يقرأ في الجرائد المعنية بالسياسة وتطوراتها .. ولا يمكن أن نسمي هذه المعرفة .. معرفة بمعناها الصحيح، فغالباً - وبي شوق أن أقول دائماً - ما تزور الجرائد وقائع السياسة لتبرزها بالشكل الموائم لنزعاتها .. من الزاوية التي توافق ميولها وتحقق أغراضها وتوجيهاتها لما تريد وتبغي ..

وكيف يتيسر له أن يعرف أكثر من ذلك .. في ذلك الوقت ..؟

وحقيقة الأمر، أنه كان بعيداً عن أسئلة الصحافيين وما اكتنفها من إغراض وما حشدوه له فيها من شر وسوء مبيتين، في وقت كان فيه معنياً بفيلمه الذي انتهى منه .. وبفيلمه الذي يعمل فيه .. وبفيلمه الذي سيبدأ به بعده .. فيلم بعد فيلم، كالنهار بعد الليل .. وكالسبت يتلوه الأحد ..

هذه هي حياته، وتلك هي حقيقتها .. عارية ..

وفي وسط هذه الضجيج والصخب الصحافي المدبَّر كالطبل الأجوف، جاءت برقية ..

دعوة رقيقة لشارلي .. لحضور حفل الافتتاح لفيلمه الأخير «الغلام» الذي سيعرضونه في لندن، وتمنوا على الله حضوره إلى المدينة التي شهدت طفولته .. والتي شهدت - أيضاً - طفولة «الغلام»..

لندن .. ؟

قفزت حياته كلها تجاهه فجأة، ومرت صورها أمامه سريعة متلاحقة .. كأفلامه ، ثم راح مع بعض ذكرياته التي مضت ، ثم عاد منها ..

هل سيزور لندن حقاً ..؟

ثم أحس- مرة أخرى - أنه مازال مشدوداً إلى ماضيه بحبل وثيق، وأيقن أنه في حاجة ملحة إلى دوام هذا الارتباط بذاك الماضي التعس الذي لا يقدر على الفرار منه .. ولا يريد أبداً التنكر له .. بل الترحيب به . إن لهذا الماضي روحاً تلازمه كظله، تلازمه كظله حقاً وحقيقة، وتجلب له كل الأمن والسلام .. وكل القلق والتوتر - معاً - وفي وقت واحد ولمدى الحياة .. كل الحياة .. ثم توقف إحساسه هذا ..

ولتوه .. وبغتة ..

أوقف جميع أعماله في أمريكا، على الرغم مما قد يجره هذا التوقف الفجائي من خسائر فادحة .. وأضرار لاشك أنها فادحة أيضاً.

سيزور مهد ماضيه البعيد، القريب من عقله وقلبه وروحه .. لندن .

إقتربت الباخرة من مياه بلاده ..

ولاحت في البعيد بسمة كبيرة تظلل الأفق الذي تقبع تحته ميناء سوثهامبتن تضحك له.. وتهل عليه طلعتها .. قطعة من أرض الوطن، واعتراه شعور غريب .. مكتنز بالغبطة وبالخوف ..

الغبطة .. للعودة إلى الوطن .. الأم، إحساس لا يعرفه إلا من بارح بلاده ثم عاد إليها بعد غيبة طويلة .. أو قصيرة ..

والخوف .. من لقاء جماهير مواطنيه له، إنه يعرف جيداً كيف تلقاه الجماهير بحماسة وحب وإعجاب لا أول له ولا آخر .. أينما ظهر في أمريكا، لكن الوضع هنا يختلف بعض الشئ .. إنه يعودإلى بلده بعد غربة طويلة، لقد بارحها فتى يافعاً في صدر فتوته وأوج فقره، مجهولاً لا يكاد يحس بوجوده إلا أقرب المقربين إليه، وها هو ذا يعود إليها وقد أصبح .. أصبح شارلي شابلن.

لازمه خوفه هذا حتى ظهر فجأة في قلب لندن، ولم تكن الجماهير تتوقع حضوره وتلتقى به هكذا .. في عرض الشارع ، وعلى غير موعد.

لقد توقفت حياة الناس الطبيعية أينما ظهر شارلي بينهم، لتتركز حوله وحده بمجرد رؤيتهم له. تكالبت عليه الجماهير محاولة الظفر به عن قرب، تريد لمسه بيدها وكأنها لا تصدق الرؤيا، وكأنها تريد المزيد منها .. والتزود من الرجل المعبود .. رجلهم.

دوّت الهتافات باسمه تشق عنان السماء، تحمل إليه حماسة الناس وإعجابهم وحبهم وتقديرهم لابن البلد .. الذي عاد إليهم.

واندفعت الدماء حارة في عروق الكتلة البشرية المتراصة حول الفندق الذي نزل فيه، وأطل شارلي من شرفته .. واهتز الهواء فوق لندن من هتاف الجماهير وقد زاد بمجرد رؤيتهم له .. واستمر الهتاف الصاعد في وله مجنون يدوي :

- شارلي .. شارلي .. شارلي ..

خفق قلبه بحب لا يدانيه في الحياة حب ..

ولمعت عيناه وقد انتقلت الحماسة من الكتلة البشرية المتراصة حول الفندق .. إلى واحد منها في شرفته .. يهتفون باسمه.

أخذ شارلي يقذف إلى الناس بالورود التي ملأت حجرات الفندق وردهاته المخصصة له .. ومع كل وردة حبه، ومع كل حبه قبلة ..

ولم يكن يملك للناس إلا الحب ورمزه القبل والورد، فأعطاهم كل ما يملك.

وتضاعف الهتاف، واهتز الهواء فوق لندن حقاً، وسارع رجال الشرطة إلى شارلي يرجونه ي توسل أن يتوقف عن إلقاء الورد إلى الناس، فالجماهير تقتتل للحصول عليه، ويكاد بعضهم أنيدفن حياً تحت أقدام بعضهم الآخر .. للفوز بوردة.

وتوقف شارلي ..

فازداد هياج الناس وارتفع صراخهم كالهدير.

لم يضايق شارلي طيلة يوم النصر هذا - الذي حدثتك عنه وأنا أخطف الحديث خطفاً - إلا خجله من نفسه. ولقد زاد ضيقه بنفسه وخجله منها لأنه لم يقدر بعد أن يعطي الناس من فنه .. ما قد يستحق عليه كل هذا الحب الذي أعطاه له هؤلاء الناس.

لم يفق حب الملايين من البسطاء والفقراء لشارلي .. إلا حب العشرات من رجالات لندن وأغنيائها وعظمائها في مختلف الميادين..

بحث هؤلاء الرجالات عنه ذات يوم، وأعياهم بحثهم دون جدوى، لم يعثروا له على أثر في أي مكان دار بخلدهم احتمال وجوده فيه.

إختفى من دائرة الأضواء المسلطة عليه، ليظهر في الظلام .. بعيداً عن الأضواء وضجيجها وعجيجها وصخبها.

كان لابد له من أن يلبي نداء الحنين الدائم .. الذي يشده إلى طفولته وإلى موطنها. لابد له من أن يزور حي كيننجتون .. موطن الكادحين والفقراء والمعدمين حيث عاش سنواته الأولى، وحيث يفكر كل يوم ويستتبت فكره، وحيث يعيش خيال تشرده الذي يصاحبه دائماً ولا يفارق ظله أبداً .. حتى اليوم. وهكذا وجد شارلي شابلن نفسه تحج إلى أرض طفولته وتشرده وفقره .. أرضه المقدسة.

كتب شارلي - فيما بعد - عن هذا الحج:

«أعادت كل خطوة خطوتها الذكريات إلى نفسي .. ومعظمها ذكريات حنون. كنت هنا بين سنين شبابي، ولكن كنت بعيداً عن هذه السنين .. منفصلاً عنها. كنت أراها من خلف زجاج كثيف، ومع ذلك كان من اليسير عليّ أن أراها بوضوح تام، وكلما حاولت الوصول إليها والاقتراب منها لألمسها بيدي .. فرت من أمامي، لأجد نفسي ألمس الزجاج الكثيف وحده، وأحس وجود هذا الزجاج الذي صقلته السنون منذ غادرت كيننجتون. كم أتمنى اختراقه لألمس الشيء الحقيقي الحيّ الذي دعاني إلى لندن ثانية .. ولكني لا أقدر».

هذه حقيقة ما لمس في أول زيارة له الأرض طفولته.

وحقيقة ثانية : أنه عاود زيارته مرة أخرى بعد أيام ..

ولم يكن وحده - هذه المرة - بل كان معه بعض أصدقائه. تطلع إلى المساكن المتعددة البائسة، وإلى الأجحار الخربة .. التي سبق له أن عاش فيها مع أمه وأسرته ورفاق طفولته وصحاب صباه. إن الحال اليوم كما كان عليه أيامه .. فالفقر هو الفقر والبؤس هو البؤس، والفقراء البائسون هم الفقراء البائسون.

بحث بين هذه الأجحار عن جحر معين .. يقصده ذاته ..

وقادته قدمها إليه دون عناء، وبلا بحث أو تنقيب، وبغير تفكير، إنه يعرف الطريق إليه جيداً مهما طال به الغياب عن هذا الجحر وهذا الطريق، فسرعنا ما وصل إلى مسكنه أيام طفولته، وأخذ يتأمله كأنه يلتقي بصديق قديم أوحشه فراقه..

ثم دخل البيت، وكأنه قد غادر هذا الصباح فقط ليعود إليه الآن ..

إن الحال مازال كما كان عليه أيامه من قبل .. تماماً، فالسلم هو السلم نفسه المتآكل الدرجات، وهذه الدرجة هي الدرجة ذاتها كما كانت عليه، والحائط المستخ هناك، وهذا الجدار أمامه وقد زادت فيه الشقوق والصدوع .. كأنها تجاعيد السنين في وجه الفقير.

والضوء الرمادي الذابل .. المحتضر.

يترنح جاهداً يحاول شق طريقه إلي الغرفة الهرمة .. التي كانت يوماً غرفته. إن رائحة الفقر والحاجة تعم أركانها وتتصاعد متبخرة إلى أنفه .. الرائحة هي نفسها التي عرفتها جيداً طفولته، وصاحبها صباه.

طافت الدموع بعينيه، وهو يهدهد بصره في كل هذا الفقر الذي يواجهه .. ويهاجمه دون رحمه بغير شفقة، يهاجمه صريحاً عنيفاً. . وقحاً ..

واسترد روحه، بعد تعب وجهد ليستردها.

اقتلعها من ذكرياته اقتلاعاً.

ثم ثبَّت نظره علي ركن قريب في الغرفة، ولم يتحرك لحظات. ثم اتجه في وقار نحوه، ونظر حواليه لمن معه، وانحنى على أرض الغرفة ليراه .. وكان الثقب مازال في مكانه كما كان في زمانه..

إنه ثقب في أرض الغرفة العجوز، كان ينظر منه متلصصاً – بين الحين والحين- ليطل عبره على الجارة المقيمة في الدور الأسفل .. وهي تخلع ملابسها .

حتى الثقب في أرض الغرفة، كان مازال في مكانه ينتظره .. على موعد معه.

حتى الساكنة الحالية التي أحتلت غرفته، واحتلت معها فقرها .. كأنها أمه يوم كانت أمه بعض أثاث هذه الغرفة .. أو كل أثاثها حيِّه وجماده.

وعند مغادرته المكان، وضع ما معه من نقود في يد الساكنه العجوز .. التي مات زوجها في الحرب.

وفي طريق العودة .. مَرَّ بحدائق كيننجتون العامة ..

لقد بات فيها ليالي لا ينساها، وها هو ذا يمر بها الآن والناس فيها تحتشد لتحييه أجمل تحية يقدمها مخلوق لمخلوق .. ومن القلب للقلب رسول.

وبينهما هو يسير تقدمت منه فتاة بيدها دفترها الصغير لتحظى بتوقيعه فيه للذكرى، إنها هي ولا شك .. هيتي كيلي .. حبه الأول، ونظر إليها ..

لا .. ليست إياها.

إنها منها.

ووقع لها اسمه.

لقد سال المداد يرسم .. شارلي شابلن .. والقلم بيده يرتعش في حركة تلقائية من أصابعه الدقيقة الناحلة، ولم تكن أصابعه ترتعش وحدها وهي تخط حروف اسمه. كان قلبه أيضاً ..

يرتعش، ويرتعد، ويرتجف ..

قفز حبه الأول فجأة حباً قوياً وجارفاً .. هيتي كيلي .. كيف كان ينتظرها ساعات علي مقاعد الحديقة هذه ، وكيف كان يعد الدقائق دقيقة بعد دقيقة وشوقه يسبقه إلى ساعة اللقاء .. وخيال ساعة اللقاء .. وفرحة ساعة اللقاء التي تحمل معها هناء القلب .. وآمال الصبا وأمنيات الشباب. لكنها آمال ذهبت وأمنيات راحت .. وكثيراً ما تذهب الآمال وتروح الأمنيات إلي قبور .. قبورها، وكثيراً أيضاً ما تنموا في تربة هذه القبور آمال أخرى .. لا تلبث أن تزدهر، وكثيراً جداً ما تنموا في تربة هذه القبور أمنيات أخريات تملأ الدنيا بالأحلام .. ثانية.

وأخذ شارلي يسأل عن هيتي كيلي كل من يلقاه ممن قد يدله عليها، سأل كثيراً، وفي كل مكان، ولم يترك وسيلة قد تدله عليها إلا طرقها ولم يدع أي طريق قد يقوده إليها – أو إلى خبر عنها – إلا سلكه وبذل كل ما في طاقته للعثور عليها .. أو على أنباء عنها .. دون أن يصل إلى نتيجة مجدية أو غير مجدية، ولم ييأس .. وأخيراً وجد بغيته ..

إن هناك من سيدله حتماً عليها .. فقد كان معها منذ سنتين فقط، وجرى شارلي ليجده .. حتى وجده آخر الأمر ، ولتوه سأله :

– هيتي كيلي .. هل تعرفها ..؟

– وكيف لا أعرفها ..

– أين هي الآن ..؟

وجاءه الجواب مقتضباً قصيراً واضحاً :

– ماتت منذ سنتين فقط.

ولا أدري بالضبط ماذا حدث ..

وماذا قال .. وماذا فعل ..

شئ واحد أدريه تماماً .. هو ما سمع . لقد رن في أذنيه صوت جرس الكنيسة البعيدة، يدق في بطء وجلال ووقار شديد .. ورهيب، وسمع معه كل أجراس كنائس الدنيا .. وهي تدق أيضاً في التو واللحظة، مع دقات قلبه التي أوشكت علي التوقف .. وكأن الحياة قد توقفت بغتة مع دقات الأجراس التي انبثق رنينها من كل مكان في أركان الدنيا، ليسمعها عزيزنا وحده دون بقية العالمين.. وهي تشيع جنازة حبه الأول ..

ثم تبدلت الأصوات، وتغير رنين الأجراس، وخيل إليه أنه يسمعها الآن تردد اسمها الحبيب عبر السموات : هيتي كيلي ..

وأحس أنه يسير في جنازته.

ثم أخذته الحياة في غمرتها وهو ابن الحياة البار. عاد إلى دنيا الواقع ثانية ليستقبل الجماهير التي تحج إليه آناء الليل وأطراف النهار .. كل يوم.

كان من المستحيل على كل أهالي لندن أن يحظوا جميعاً برؤيته . لذا سارع الكثيرون ليكتبوا إلي عزيزهم شارلي .

وازداد العمل في مصلحة البريد..

فنقل سعاتها إليه حباً وتقديراً وإعجاباً لا نهاية لحدوده، ولقد بلغ عدد الخطابات التي وصلته في الأيام الثلاثة الأولى فقط لزيارته ٧٣٠٠٠ خطاباً، مما دعاه إلى الاستعانة بفريق كبير من رجال السكرتارية لفض هذه الرسائل وتبويبها.

وحاول أن يرد على كل منها ..

ورد على كل ما وسعه الرد عليه.

لم تكن كلها رسائل تقدير وإعجاب .. كان كثير منها للغرام والهيام وماخلف الهيام والغرام، وكان بعضها من المحتاجين الذين يطلبون شيئاً من العون مما رزقه الله يقيهم شر العوز، وبعضها الاخر من المتعطلين يريدون عملاً بوساطته يخرج بهم من بطالتهم.. وأهم هذه الرسائل هي ممن ادعوا انتسابهم إليه وقرابته لهم .. وهم مئات وألوف لم يسمع عنهم قبل اليوم.

وكانت هناك تسع رسائل هي ألطف ما وصله من السيدات ..

تسع سيدات طالبن ببنوته .. على اعتبار أن كلاً منهن أمه.

ولن نترك زيارة شارلي هذه للندن قبل أن نلمس ما بقى منها، فقد بقى أعز مخلوقات الله إلى قلبه ، وأقرب أهل الأرض رليه.

أمه حبيبته ..

كان الابن البار قد نظم لها من قبل حياتها وهي بعيدة عنه، وخلال هذه الزيارة . قام بعمل الترتيبات اللازمة لسفرها إلى أمريكا ، إذا أرادت أن تكون بجواره في آخر أيامها..

ولم يكن – هو أيضاً – بأقل حاجة إلى هذا الجوار الحبيب.

وكما زار لندن فجأة .. غادرها فجأة..

طاف بباريس، واكتشف أن الفرنسيين لا يسمونه شارلي .. بل شارلو، من باب التدليل. وأعجبه هذا الدلال الفرنسي كثيراً واستراح إليه، ومنذ ذلك اليوم وهو لا يوقع على الآلاف من خطاباته وصوره إلى المعجبين به من أهل فرنسا إلا باسمه .. شارلو.

وغادر فرنسا ، ليمر بألمانيا فترة من الوقت ..

وفي برلين .. لمس بنفسه الصخب والضجيج الذي تثيره اجتماعات النازي وجماعات «اليونكرز» والإقطاعيين، ولفتت نظره تلك الصلبان المعقوفة .. وقد بدأ البعض يرسمها هنا وهناك بالطباشير علي جدران المنازل والأماكن العامة .. وعلى أرض الطريق حيث تسير الأقدام.

سأل عنها عرضاً ..

فأجابوه : إنها شعار لرجل مجنون ، ضئيل الجسم وكثير الخصب والضجيج ، له شارب شارلي الأسود الصغير المعروف عنه نفسه.

وسأل ثانية :

- وما اسم هذه المجنون الذي يقلد شاربي ..؟

وجاءه الجواب :

- هيتلر ..أدولف هيتلر.

وتضايق شارلي يومها أشد الضيق، لا لأن هناك مجنوناً يقلد شاربه الذي يعتز به ويفخر، بل لأن هناك من يقلد شاربه ويثير الصخب والضجيج .. وهو أول من يكره مثل هذا الهرج.

أكدت له زيارته لأوربا أن المجد يسير في ركابه قطعاً ..

وأن الحب - النابع من قلوب الشعوب في كل الدنيا - يؤيده ويناصره، وأن لكل هذا مسئوليته الكبرى الملقاة على عاتقه، وعليه وحده تقع تبعة هذه المسئولية .. وليس هذا بالهين السهل علي رجل يقدر التبعات.

وفي طريق عودته إلى أمريكا ، تذكر شيئاً :

اللقاء الأول مع جماهير لندن، وخجله من نفسه .. لأنه لم يُقدر له بعد أن يعطي الناس من فنه ما يستحق عليه كل الحب الذي أعطاه إياه الناس - بدون قيد أو شرط.

وأحس شارلي شابلن - بوصفه فناناً شريفاً - هول مسئوليته أمام الجماهير.

عاد شارلي إلى الولايات المتحدة ، بعد رحلة المجد في أوربا..

ونظر إلى مدخل ميناء نيويورك، مثلما فعل عند حضوره إلى أمريكا .. لأول مرة .. كان تمثال الحرية ما يزال قائماً شامخاً في مكانه، رابضاً أمام ناطحات السحاب، وكان مشعل الحرية ما يزال قائماً في يد تمثالها. نظر إلى التمثال فاطمأن إليه وإلى مشعله .. وارتاحت نفسه.

ولم يكد يصد إلى الأرض الأمريكية حتى أهرع إليه لفيف من كبار الناشرين، يعرضون عليه كتابة مذكراته عن رحلته إلى أوربا .. لينشروها له في كتاب . ودفع الناشر الذي فاز بها خمسة وعشرين ألفاً من الدولارات وهو على ثقة بأن أرباحه ستفوق أضعاف ما دفع..

وبدأ شارلي يكتب، وبدأ الشعب الأمريكي ينتظر ما يكتب له ..

وبدأت عجلة المطبعة تدور لتقدم لعالم الأدب كتاباً تحت عنوان : «رحلتي المدهشة».

ولكن .. قبل أن يصل الكتاب إلى أيدي القراء، وصلت إليهم الجرائد، وكانت كلها من جرائد محتكر الصحافة الأمريكية .. راندولف هيرست، والجرائد الموالية له والدائرة في فلكه ..

تناولت شارلي بالتعريض والهجوم لتشويه حب الشعب الأمريكي له، ولزعزعة ثقة الجماهير به وبأفلامه، ولتشكيك الناس في أمر رسالته التي إياها يضمن هذه الأفلام الذائعة الانتشار في داخل حدود أمريكا .. وخارجها، وهي الأفلام الساخرة من الطغاة والظلمة والرأسماليين المحتكرين الكبار في أمريكا .. بوجه خاص.

وراندولف هيرست .. أحد أفراد هذه الطبقة الحاكمة بأمرها هناك، بل هو – أولاً وأخيراً – كبير المدافعين عنها .. وبوقها الصحافي رقم ١ .

ولم تخرج خطة الهجوم هذه المرة عن الخطة نفسها التي سبقتها قبل رحلته : الاتحاد السوفيتي ونجمته الحمراء.

لقد تبلورت القضية .. قضية شارلي شابلن وحكومة واشنطن التي نناقشها الآن في هذا الكتاب .. بوصفها قضية من القضايا المتعددة التي تشنها حكومة واشنجطن ضد الحرية .. حرية الرأي .. لدى الأفراد ولدى الشعوب. ويعلم الله أننا أبعد الناس عن الأعراض وعن التشهير، وأن هذه القضية – في عرفنا – قضية حرية وسلام – قبل أن تكون قضية شارلي أو غير شارلي من الناس .. أو قضية أمريكا أو غير أمريكا من الدول .. المحبة للحرية وللسلام أو الكارهة لهما ..

تبلورت القضية إذن، وحاولت جرائد هيرست – وقد عرفت من هو قبلا وما هي جرائده – أن تخلق علاقة بين النجمة الحمراء فوق روسيا .. وشارلي في أمريكا ..



مع أونا اونيل يوم حصوله على لقب سير - ١٩٧٥

واعتمدت الحملة أول ما بدأت - هذه المرة - علي حديث كان قد أدلى به شارلي وهو في أوربا، فتناولت الحديث بالتشويه والتمويه ، ثم بالتعديل والتغيير، ثم بالتزوير..

ورد عليهم شارلي في ذلك متسائلاً :

- لماذا أجعل من نفسي أمريكياً، وقد ولدت إنجليزياً..؟

وأصروا على اتهامهم، وعلى شرح موقفه ..

وأتاهم رده .. ووجهة نظره. قال متعجباً :

- لمَ كل هذه التفرقة بين جنسية وأخرى، وكل الناس تنتمي إلى جنسية واحدة هي .. الإنسانية نفسها، وهي جنسيتي قبل أن أولد إنجليزيا، وقبل أن تحاولوا أن تجعلوا مني أمريكياً؟

ولم يفهموا مما قال لهم حرفاً، أو فهموا وادعوا الغباء وقلة الفهم، وأصروا - أكثر من أي وقت مضى - على أنه جاحد يعادي أمريكا .. ويبطن العداء للولايات المتحدة الأمريكية كلها ولاية ولاية.. وفرداً فرداً، لاسيما أفراد حكومة واشنجطن .. والكونجرس الموالي لحكومة واشنجطن، أي البرلمان الأمريكي.

ومرت الأيام، ومرت معها الحملة المغرضة .. وإن لم يمر أثرها السيء في قلبه، وفي قلوب غيره من الناس ..

وعاوده قلقه، بعد ذلك..

فعرف الفنيون الذين يعاونوه أن فيلماً جديداً يلوح لشارلي عبر الأفق المجهول، وأنه يبحث واعياً عن مادة موضوع هذا الفيلم وقصته، ليضيف به مجداً إلى أمجاده ..

وقدموا إليه موضوعات كثيرة قد تصلح قصة لفيلمه.

لكنه رفضها جميعاً .. ليكتب بنفسه بدلاً منها موضوعاً غريباً على قصص السينما .. وعلى قصص الأفلام الضاحكة بوجه خاص مما تعودت السينما أن تقدم للناس، ومما تعود الناس أن يقبلوا من السينما.

وتبدأ الغرابة من أول إسم الفلم «الحاج».

ثم نستمر في موضوعه، وإليك موجز قصته :

تبدأ القصة بهروب شارلي المسكين من السجن، ليصل آخر الأمر إلى كنيسة صغيرة، وبعد سخريات عديدة تلحقه من القانون مرة .. ومن متناقضات المجتمع مرة ثانية .. ومن موقف بعض رجال الدين السطحيين مرة ثالثة - تبلغ قصة الفيلم ذروتها في فصلها الأخير حيث تلخص فلسفتها في مشهد نهائي واحد، حين يحاول سجيننا شارلي الهرب من أمريكا كلها عبر الحدود المكسيكية المتاخمة للولايات المتحدة .. لينجو من السجن .. ويفوز بحريته، فيلتقي برصاص رجال العصابات

على الجانب الآخر من الحدود .. يستقبله في غير رحمة أو شفقة.

ويتحير في أمر نفسه، ويسقط في يده، ويرتج عليه الموقف.

السجن الذي ينتظره في جانب من الحدود ..

والموت الذي يستقبله في الجانب الآخر من الحدود نفسها.

هكذا تعقدت مشكلته في قصة الفيلم كما تعقدت من قبل في قصة حياته في أمريكا .. تماماً وبالضبط.

وهنا ..لا يجد الحل إلا في السخرية، وتنقذه سخريته ..

يجري ممثلنا شارلي فوق خط الحدود .. الخط الذي يفصل بين البلدين كأنه الحد الفاصل بين قوم وقوم .. أو بين إنسان هنا وإنسان هناك ، يجري علي الخط تماماً بالقسطاس وبالعدل .. وإحدى قدميه في أمريكا .. والأخري في المكسيك ..

ويمكنك أن تتصور جريه على هذه الصورة،وأن تتصور كيف يكون مثل هذا الجري على هذه الصورة الهازلة كل الهزل .. والجادة الجد كله.. ويمكن أن تتخيل بعد ذلك .. كيف تقوده قدماه إلى المصير المجهول المحتوم، وهكذا تنتهي مشكلته في الفيلم.

ولا تنتهي مشكلته في الحياة.

إن مشكلته في الحياة لا تنتهي أبداً.

لقد اشتد الهجوم عليه، وقوى عن ذي قبل ..

وموضوعه هذه المرة، يطرق ناحية شخصية بحته من حياته، ناحية حساسة تمام الحساسية بالنسبة له. هاجموه في أعز عزيز لديه، فكانت أمه حبيبته هي هدف هذا الهجوم الذي لا قلب له.

سبق لشارلي أن قام لأمه بكل ما سمحت له موارده المالية الضخمة ليهيء لها أسباب الراحة التي هي في حاجة إليها مثل سنها، وقد هدم صحته بوجه خاص الكفاح المضني الذي بذلته من حياتها لتُقوِّم أود حياته وحياة أخيه، وهو بوجه خاص كفاح طويل عنيف أسلمها إلى المرض بعدأن كاد يورثها الجنون. ولقد عوضها بذل ابنها البار بها .. ما فاتها من هناء، حتى ارتأى أخيراً أن من الخير لها أن تكون بجواره في أمريكا ..

فسافرت إليه في غرفة باذخة من باخرة فاخرة، ومعها ممرضة خاصة فضلاً عن سيدة تعني بأمورها..

واشترى من أجل إقامتها – وقبل وصولها إليه – منزلاً جميلاً يطل على شاطئ المحيط الهادى بسانتا مونيكا، وأعد فيه كل ما قد تحتاج إليه أمه العزيزة عليه.

وصلت الأم إلى أمريكا ..

وحجزتها السلطات الحكومية في الحجر الصحي بجزيرة إليس.

هذه هي الوقائع الثابتة كما حدثت تماماً، ولكن .. أتدري ماذا كان موقف صحافة المليونير هيرست الاحتكارية .. من هذه الوقائع..؟

خرجت جرائدها تكذب على القراء وعلى الرأي العام، ظهرت وهي تصرح بالأكاذيب تضج من عناوينها الضخمة المثيرة، وإليك بعض العناوين :

- شارلي البخيل يرفض دفع ثمن تذكرة سفر أمه ..

- أم شارلي تحضر إلى أمريكا كمهاجرة..

- السلطات الحكومية تفكر في إعادة أم شارلي إلى انجلترا ..

ولم يبق أمام هذه الصحف الداعرة إلا أن تجمع التبرعات، وتفتح الاكتتاب .. لدفع ثمن تذكرة سفر أم شارلي البخيل ، الابن العاق..

بذل شارلي كل ما كان في وسعه، وعمل كل ما طُلب منه لتسمح السلطات لأمه بدخول الأراضي الأمريكية والبقاء فيها .. وانتهت المشكلة بإقامة أمه -مع ممرضتها الخاصة والسيدة المرافقة لها - في المنزل الفخم الذي أعده لها بالقرب منه، بينما ظل هو في بيته الصغير المتواضع قريباً من منزلها.

ومع ذلك..

أتدري ماذا كان موقف صحافة هيرست .. من هذه الواقعة ..؟

خرجت جرائدها تكذب ثانية على القراء .. وعلى الرأي العام، ظهرت وهي تولول بالأكذوبة تصوت في عنوانها الضخم المثير:

- شارلي يرفض أن تقيم أمه معه.

وماذا يمكنني أن أقول لك .. أكثر مما يمكنك أنت أن تستنتجه بنفسك مما قرأت ومما عرفت، ومما قد تستشعر من خلال السطور ..؟

إنني لا أملك إلا أن أقول لك .. إن مثل هذه الصحافة الداعرة هي التي تقود الغالبية العظمى من الرأي العام في أمريكا، وهي التي توجهه إلى ما تريد .. إلى ما تهوي وتشتهي من الكذب والتضليل والتلفيق ..

وكان الله في عون مثل هذا الرأي العام.

والآن..

ووسط ضجيج هذه المأساة المضحكة، كان شارلي يفكر.

إن فيلمه «الحاج» الذي حدثتك عنه آخر مطافنا .. هو نهاية عقده مع شركة فيرست ناشيونال، ولم يكن شارلي ليرتاح كل الراحة إلى استمرار عمله لحسابها وتجديد عقده معها، وكان يود العمل على أساس مغاير في ظروف مغايرة .. تيسر له إنتاج الفن الذي يحلم به ويتوق إلى إنتاجه .. ويوده.. ومن ثمة، كان عليه أن يؤسس شركة كبري للإنتاج السينمائي ..

واجتمعت العقول الصديقة المتجانسة :

شارلي شابلن، والممثل المعروف دوجلاس فيربانكس الأب، والممثلة الكبيرة ماري بيكفورد، والمخرج القدير جريفث .. رائد السينما الأمريكية الأول.

وأسسوا «إتحاد الفنانين» شركة سينمائية مستقلة عن رءوس الأموال الاحتكارية الضخمة .. التي تمتص جهود الفنانين والفنيين، وتتدخل في فنهم لتخضعه لقيودها التجارَية المبتذلة .. البعيدة عن الفن الذي يحلم به الفنانون والفنيون الذين يعون رسالة الفن ورسالة الحياة.

وبدأ أول إنتاج هذه الشركة بفيلم «إمرأة باريس» وهو الفيلم الوحيد الذي أنتجه شارلي ولم يشترك في تمثيله، بل اكتفى بإخراجه ..

وهو أيضاً .. الفيلم الدرامي الوحيد الذي أنتجه طول عمره.

عرض الفيلم في سنة ١٩٢٣ وقامت هيئة الرقابة على الأفلام في خمس عشرة ولاية أمريكية بمنعه من العرض منعاً باتاً، بحجة أنه يتنافى مع التقاليد ..

أية تقاليد ..؟

لم يكن بالفيلم ما يتنافى مع الحق والعدالة والمثل العليا ، لكن هيئة الرقابة على الأفلام زعمت أنه يتنافي مع التقاليد .. فكان منعه من العرض على الجماهير.

كل ما هنالك أن الفيلم يلمس في عمق واقعية مأساة المرأة ووضعها الخاطئ في المجتمع الخاضع للقيم الزائفة .. التي يخلقها الجاه والثراء والثروات الضخمة .. مصوراً القيم نفسها التي تهيمن وحدها على مصائر الأمور في أمريكا وولاياتها ..

وكان هذا وحده .. كافياً لمنع عرض الفيلم في خمس عشرة ولاية أمريكية .. تقول حكومتها رسمياً لشعوب العالم إنها تدين بالحرية .. وأول مظاهر هذه الحرية .. حرية الرأي..

ولقد رأيت أنت نفسك لتوك .. مظهراً من مظاهر هذه الحرية .. وأياً كانت النتائج..

فلقد أثبت هذا الفيلم أن شارلي شابلن مخرج من الطراز الأول، اعتبر النقاد الفنيون الفيلم

فتحاً جديداً في عالم الدراما السينمائية .. لكن شارلي نفسه لم يرض تماماً عن الفيلم وعن نتائجه.. الفنية وغير الفنية لذلك، عاد لتوه إلى عالمه الخاص به وحده دون سائر البشر جميعاً.. عالم الكوميديا الذي يريد خلقه ، ومرة أخرى .. أخذ شارلي يستعد للعمل في فيلمه الجديد، وأخذت الهموم - مرة أخرى - تتكالب عليه بدورها من فوق ومن تحت، ومن خلف ومن قدام . وتحيط به من كل الجهات.

البحث عن الذهب

وصلت السطور الأخيرة من حديثنا معاً إلى أن شارلي أخذ يستعد لفيلمه الجديد .. هذا الفيلم هو «البحث عن الذهب».

وأضيف الآن .. أنه بدأ هذا البحث بالتفتيش عن بطلة الفيلم. ولقد انتهى تفتيشه إلى لقاء جميل بفتاة أجمل ..

اسمها ليتا ماكموري.

صغيرة، رائعة الجمال .. يقيم السحر والفتنة في كل ما تراه منها. سبق أن قامت بدور بسيط أمامه في مشهد عابر من فيلم «الغلام» .. منذ سنوات قليلة، ووقع عليها الآن اختياره لتمثل في فيلمه الجديد.

وفي الوقت نفسه، وقع في غرامها ..

ووقَّعت ساحرتنا الصغيرة عقد العمل في الفيلم باسم «ليتا جراي» . ولم تكتف والدتها «مسز ماكموري» بهذا العقد وحده، بل أصرت أن توقع مع عقد الفيلم .. عقد الزواج.

ووقع شارلي العقد الأخير .. وهو يحلم – للمرة الثانية – بعش الزوجية الهنيء الذي طالما تمناه، وطالما داعب أحلامه الوردية من بعيد ..

ودخل العش ..

كانت ليتا جراي في انتظاره بملابس الزفاف، ومعها السحر والفتنة في كل ما تراه منها .. أقصد ما يراه منها، ومعها عمرها الصغير .. سنواتها الست عشرة المشبعة بالصبا ونضارة شبابها الربيع وحلاوته، ومعها أمها مسز ماكموري..

وضاق به العش الذي دخله .. على سعته.

لا لمجرد وجود حماته مسز ماكموري فحسب، بل لأن لليتا الصغيرة كثير من الأصدقاء .. الصغار أيضاً، ولا يقل عدد أصدقاء الحماة عن عدد أصدقاء ابنتها، ولابد من حضور الفريقين – هؤلاء وهؤلاء – إلى عش الزوجية كل ليلة .. لقضاء سهراتهم الراقصة الضاحكة اللاهية اللاعبة.

هكذا انقلب العش الهادئ – في خياله وحده – إلى ملهى وملتقى أصدقاء الحماة وابنتها، ومع هؤلاء الأصدقاء .. أصدقاؤهم أيضاً ..

وليت الأمر وقف عند هذا الحد وانتهى الأمر عنده ..

بل كشف شارلي أن حماتيه شخصية عاتية جبارة، تتدخل بعنف في حياة ابنتها .. وحياة زوج إبنتها .. وحياة كل العاملين مع هذا الزوج المسكين الذي أوقعه سحر الإبنة وفتنتها في شباك أمها.

وبدأ الاحتكاك التقليدي بين الزوج والحماة.

منذ أيام الزواج الأولى .. أصبح من المستحيل أن يترعرع الهناء في هذا العش الذي توجه سياسته العليا مسز ماكموري، وزاد الطين بلة .. أن انغمست الزوجة الفجة السن في لهوها الأرعن المترف، فلديها أموال زوجها الطائلة، ولديها شبابها الغض الذي لم ير بعد شيئاً، ولديها أحلام بطولة فيلم زوجها الفنان العظيم .. وإن هذه البطولة لفي انتظارها لترفعها بين عشية وضحاها إلى السماء .. حيث تعيش النجوم.

وماذا ينقصها ..؟

لا شئ..

ودارت الكاميرا تلتقط المناظر الأولى «للبحث عن الذهب»، وقامت الزوجة بتمثيل دورها يوماً بعد يوم حتي جاءت المناظر وقد انتهى تصويرها وإعدادها ليراها شارلي، ولم يكد يراها حتى دارت الدنيا أمام ناظريه ..

وأخذ لتوه في البحث عن بطلة أخرى تحل محل زوجته .. التي لم تعجبه بوصفها ممثلة مثلما أعجبته بوصفها امرأة .. والممثلة شيء والمرأة شيء آخر، لكن الزوجة ثارت .. وثارت معها الحماة تؤيدها وتعضدها وترفع معها راية العصيان عالية، وأصبح عش الزوجية الوردي قطعة من الجحيم، لا علاقة لها بالورد.

ولم يأبه شارلي لثورة الأم وابنتها، ولم يأبه للعش الذي أصبح من الجحيم .. وأعاد تصوير مشاهد فيلمه مرة ثانية .. غير آبه للمال الذي أريق في سبيل ذلك على كثرته، فللفن عند شارلي.. قدسية تتضاءل أمامها أموال العالم كله .. وهو الذي رصد لإنتاج هذا الفيلم مبلغاً خرافياً قدره مائتا ألف دولار .. غير جهوده، ومتى كان ذلك .. في سنة ١٩٢٤ .

ولقد قامت جورجيا هيل ببطولة الفيلم بدل زوجته فوصلت في هذا الدور إلى القمة، وكانت عنصراً من العناصر الأولى التى جعلت من «البحث عن الذهب» أعظم أفلام شارلي الضاحكة، وأشهرها حتى هذا التاريخ ..

ظهر الفيلم سنة ١٩٢٥ .

ووصل الضحك في بعض مشاهده إلى حد العذاب .. ولا تعجب إذا كان العذاب يولد الضحك

عند شارلي، فما من مرة لمس هذا الفنان قلب البشرية إلا عصره لينتزع الضحك من شفاه الناس .. عندما يطلعهم على سر شقاء القلوب المعذبة في هذا المجتمع الذي يسوده الظلم وتحكمه القسوة، وتسيطر عليه جريمة الذين صيروا الدنيا معركة تافهة للتنازع على البقاء .. بدل التعاون على الحياة.

وتصل عبقرية شارلي إلى الإفصاح عن كل هذا بطريقته البسيطة .. كالأسلوب الذي يتبعه دائماً في أفلامه وقصصه الواقعية، أو المحتملة الوقوع :

تقذف الحياة بالمتشرد المعدم شارلي إلى وديان ألاسكا الثلجية .. في أقصى الشمال قرب القطب، حيث يذهب الباحثون – ومنهم متشردنا – للتنقيب عن الثروة والثراء في جوف الجليد . وبدلاً من عثور شارلي علي الذهب الأصفر الرنان .. يلتقي بالجوع.

وهنا يظهر فن شارلي الإنساني في أوج عظمته وعبقريته . يرينا هذا الإلهام كيف يسيطر الجوع على أقدار الإنسان ويحرك مصيره .. حتى يوصله إلى حافة الجنون .. ففي مشهد من مشاهد القصة يدفع الجوع بأحد زملاء شارلي ليراه جسداً من اللحم يطمع في التهامه ليسد به رمقه .. وقد تصوره على هيئة دجاجة ضخمة مكتنزة باللحم والشحم .. تتبختر متأرجحة أمام هوس جوعه الذي استحوذ على خياله.

وصورة أخرى .. عندما يجبر الجوع المتشرد على طهى حذائه، ليقتات من جلده كأنه اللحم، وليلتهم رباطه كأنه حبال المكارونه..

وصورة أخرى لجوع آخر .. الجوع إلى الحب، فشارلي يلتقي بالحب في ألاسكا، ويلتقي معه بالفشل، والفشل في الحب يتكرر دواماً في أفلام شارلي، الباحث أبداً عن العطف والحنان المفقودين في حياته، والباحث دواماً عن المشاركة الوجدانية .. دون أمل في العثور عليها . إنه جوع آخر من الجوعات المتعددة التي تلقى بها في «البحث عن الذهب»..

ولكن شارلي المتفائل على الرغم من ضيقه لا ينسى قلبه أبداً، ولا يزال يحلم بالحب. وهو ينهي قصته بالأمل الذي يبتسم له مع فجر جديد .. حياة جديدة، وتأتي النهاية السعيدة .. أو الآملة في السعادة أخر المطاف .. آخر الفيلم .. ولكن قصته في الحياة لا تنتهي هكذا..

بل تنتهي بعكس ذلك .. نهاية غير سعيدة.

إذ زاد في بيته الضجيج الصاخب، وانبعث مجنونا مع موسيقى الجاز، ووقع أقدام الراقصين والراقصات على هذه الموسيقى، وضحكات أصدقاء زوجته الصغيرة السن والعقل معاً، وضحكات أصدقاء أمها الصغيرة العقل فقط..

إن هؤلاء الأصدقاء يمثلون بيت شارلي على سعته .. ولا يكادون يتركون له فيه نصيباً . وكان

من المستحيل عليه أن يشارك هؤلاء الصبية لهوهم الفج ومرحهم الطائش، وأكثر استحالة عليه من هذا .. مشاركة حماته مسز ماكموري في اللهو نفسه والمرح عينه.

لذلك .. أخذ يبتعد تدريجياً عن عش الزوجية ومن فيه، ليهيم على وجهه في طرقات هوليـود الهادئة بعيداً عن الضجيج، ليختلي بنفسه .. وليرى هذه النفس وقد استبد بها الهم حتى أوشكت ألا تطيق حياتها .. التي بلغت حداً من المرارة لم يعد في استطاعته احتماله.

واستمرت الحياة علي ما هي عليه .. لم تتغير.

ثم رزق من ليتا جراي بابنه «شارلي الصغير» ، ولم يغير الوليد من حياة شارلي وزوجته، وبقيت كسابق عهدها بالشقاء. ثم رزق منها ابنه الثاني «سيدني» في سنة ١٩٢٦ وظل الشقاء هو الشقاء.

وأخذ هذا الشقاء ينعكس على جو الفيلم الذي بدأ في إنتاجه، وهو في هذه الحالة النفسية السيئة. لقد شرع يعمل في فيلمه «السيرك» ومأساته العائلية تصاحبه وهو يؤلف قصته، وتصاحبه وهو يمثل دوره أمام الكاميرا، ونصاحبه وهو يقوم بإخراجه خلفها ..

كان ينتج فيلماً ضاحكاً .. والمأساة تتضاعف بجواره وتتكاثر حوله.

واقتربت ساعة الانفجار من نهايتها .. عنـدما عـاد ذات ليلة من الأستوديو إلى منزله مرهقاً مكدوداً تعباً .. بعد عمل يوم طويل شاق ملئ بالإجهاد، عاد ليرى أصدقاء زوجته وأصدقاء أم زوجته يملئون بيته ضجيجاً وعجيجاً، ولهواً ومرحاً وهو أبعد ما يكون عن اللهو والمرح.

لم يعد يقدر على التحمل والمقاومة..

وفي ثورة طلب من الأصدقاء مغادرة بيته .. وغادروه لتوهم مذعورين وكأنهم لا يصدقون ما طلبه منهم، وعجبت أم زوجته من أمر زوج ابنتها.

ثم غادرت الزوجة الشابة عش الزوجية، وأخذت معها طفليها الصغيرين، ولم تنس أمها .. فأخذتها معها ..

وابتسمت الأم – مسز ماكموري – وهي تغادر المنزل، وقبل أن تنتهي الليلة .. كانت قد أعدت العدة لك شيء..

أسرعت الزوجة الشابة إلى محاميها .. ومعها امها، وطلّبا منه إقامة دعوى الطلاق من شارلي في الحال .. وعلى عجل..

وزادت ابتسامة مسز ماكموري اتساعاً .. والمحامي يعدها بكسب دعوى الطلاق كسباً مربحاً كل الربح.

بدأت الهموم إذن..

وكان مركز تحركها من عقر داره .. ومن المفروض أن الزوجة هي أقرب الناس إلى زوجها .. ولكن هذا هو مجرد فرض، والزوجة في حالتنا هذه هي أبعد الناس عن زوجها، ومما زادها بعداً أن لها أما هي مسز ماكموري، وللزوجة وأمها هذه رغبة أكيدة في الحصول على الطلاق .. وأرباح هذا الطلاق.

ناصر الزوجة وأمها الجانب الضخم المهاجم لشارلي .. والذي تمثله صحافة هيرست .. منبر الدفاع عن رجال الرأسمالية الاحتكارية الأمريكية، استغل هذا الجانب المهاجم قضية الطلاق لنسف شارلي .. وقد جاءتهم الفرصة المواتية للقضاء عليه .. أو لمحاولة القضاء عليه.

وغذت الحماة المغتاظة هذه الحملة الصحفية ضده..

فهي لم تنس له أبداً كيف حال دون ظهور ابنتها - العاطلة من كل موهبة فنية - في دور البطولة في فيلم «البحث عن الذهب»، وكيف منع بذلك ابنتها العزيزة عليها من أن تصبح نجمة من نجوم السينما .. وتصبح هي بدورها ام نجمة من نجوم السينما، وهي - فوق ذلك - تعرف حق المعرفة أن الطلاق يتيح لها ولابنتها الاستيلاء على الجزء الأكبر من ثروة شارلي .. وهذا هو الأهم.

أخذت الحملة الصحفية المنظمة تهدم شارلي في جبهات حياته كلها .. ومرة واحدة، هاجمت حياته الخاصة والعامة، ووضعت نصب عينيها هدفها الأول .. نفيه من أمريكا لمنعه من اتمام رسالته التي بينها في أفلامه، وهي مهاجمة الفساد الرأسمالي الأمريكي .. الذي يتزعمه كبار رجال الرأسمالية الاحتكارية هناك .. توطئة لاستيلائهم علي العالم، باستعمارهم التجاري الجديد لمرافق ثرواته.

خاضت جرائد هيرست في علاقته بزوجته.

ونقدت تصرفاته معها نقداً همجياً مريراً زورت فيه وقائع معاشرته لها، وأسفّت في حملة التشهير به الإسفاف المعروف عن جرائد أمريكا .. المختصة بنشر الفضائح وتزويرها المثير.

وبعد ذلك..

أعادت الجرائد ترديد نغمتها القديمة .. بالخط العريض :

«شارلي المهاجر الإنجليزي القذر يرفض الجنسية الأمريكية».

ونتيجة لكل هذا ، نجحت الحملة أول نجاح كبير لها .. حين سارعت ست ولايات فمنعت عرض كل أفلامه فيها..

وتجلت مواهب فطاحل المحامين النابهين ممن جندتهم المؤامرة لشل نشاط شارلي .. في مختلف الميادين، عرفوا كيف يستخدمون نصوص القوانين ضده، فإنهالت الحجزات على كل

ممتلكاته وموارده المالية .. حتى اضطروه في النهاية إلى مغادرة بيته ليقيم عند أخيه سيدني، ثم اضطروه بعد ذلك إلى إغلاق الأستوديو الخاص به .. علي حين كان عليه أن يتم فيلمه الأخير «السيرك».

نجح المحامون النابهون، وكسبوا معركتهم..

وزادت ابتسامة مسز ماكموري اتساعاً، وابتسم معها أعداء شارلي وقد شلوا نشاطه .. ما عليه الآن إلا التسليم بالهزيمة.

وغادر شارلي هوليود كلها ..

ولم ييأس..

وفي نيويورك - حيث انتقل - تكالب عليه المرض وبات طريح الفراش ، واشتدت مقاومته لمرضه .. ولأعدائه ، ولم ينقذه من كل هذا البلاء المتكالب عليه إلا قوة احتماله وصموده أمام هذا الهجوم الذي أوشك أن يطيح به ويقصم ظهره.

شيء آخر شد من عضده .. قوة إيمانه بعدالة موقفه، وقوة صداقته القديمة لناتان بيرك .. محاميه وصديقه .. الذي قام بالهجوم المضاد للدفاع عن شارلي.

ووسط هذه الدوامة الدائرة من الأحداث، بدت له خطط أعدائه ومؤامراتهم المستمرة ضده.. كأنها فصول مسرحية مضحكة في سيرك يعبث فيه المهرجون.

لن أتمادي في الإطالة عليك إلا لأخبرك أن شارلي ومحاميه قد تمكنا - بعد جهود جبارة - من إنقاذ ما أمكنهما إنقاذه - ولقد كسبت الزوجة قضيتها ضده .. فخرجت من صفقة طلاقها هذه وفي حقيقة يدها الأنيقة مبلغ متواضع قدره .. مليون دولار فقط، وانتقلت كمية كافية من هذه الدولارات إلى يد أمها .. كما تنتقل البيضة في السيرك من يد الحاوي إلى أنف أحد المهرجين أو المهرجات..

وما من شك عندي أن مسز ماكموري قد رسمت - عبر شفتيها المكتنزتين كالورم - ابتسامة كبيرة حقاً توازي كبر المبلغ الذي اقتطعته من ابنتها ..

وما من شك عندي أن جناب المحامي الذي كسب القضية .. قد نال نصيبه منها.

**

أما شارلي ..

فكان لا يزال يعمل - بالرغم من كل ما حدثتك به - في فيلمه الذي كان قد توقف «السيرك»

محاولاً تصوير ما ينقص مناظره ومشاهده .. حتى يعد للعرض.

وبينما اختفى المهرجون جميعهم .. ممن أقاموا الدنيا وأقعدوها حول شارلي، وبينما اختفت الزوجة وأمها في زوايا النسيان، وبينما اختفت القضية نفسها وفروعها وباتت وكأنها لم تكن .. بقى شارلي وحده .. بقى شارلي شابلن كالطود الراسخ يملأ أبصار العالم وفكره .. في كل مكان وزمان.

كان من الطبيعي جداً أن يحمل فيلمه «السيرك» الروح نفسها التي كانت تميز شارلي ونفسيته في أثناء إنتاجه له .. وهي روح المأساة التي كان يعيشها خلاله، لذلك ظهرت قصته أقرب الى المأساة منها إلى الملهاة،

إن روح شارلي الشفافة تسيطر دائماً على فنه..

وهي روح ناقلة لإحساسة العام بكل ما يدور حوله بوصفه فرداً له ذاتيته الخاصة به، وبوصفه إنساناً يحيا في مجتمع كبير يعيش فيه هذا الفرد .. في إنسانية أكبر منه ومن مجتمعه.

إن قصة «السيرك» تروي لنا تضحية متشردنا بنفسه في سبيل من أحب. وآخر مشاهد القصة يلخص موضوعها كله بوضوح .. حيث ترى المتشرد جالساً وحيداً .. وقد رحل السيرك الذي شهد قصة غرامه وهيامه ببطلته التي تدله في هواها، رحل ولم يبق منه إلا ذكرى حبه الذي لم يتحقق أبداً..

وتنتهي القصة على طريقة شارلي وعادته :

متشردنا البائس يسير مبتعداً عن حطام ذكرياته المرة وفضلاتها يسير ساخراً من الماضي الذي ذهب .. حالماً بالمستقبل الذي سيجيء.

بقى أن أضيف لك .. أن الفيلم السئ الحظ لم يحقق لشارلي ما حلم به من آمال فنية كبرى، وكل ما حققه هو تغطية ما يجب دفعه إلى مطلقته .. بعد كل ما جرته عليه من هموم وخراب.

ولتوه .. بدأ في تحضير فيلم جديد، فالفن عند صاحبنا معركة دائمة لا تنتهي ولا تتوقف إلا لتبدأ ثانية حتى النصر الأخير .. النصر الكبير.

أنوار المدينة

بدأ شارلي العمل في قصة فيلمه الجديد مع أربعة معاونين له من ألمع كتاب السيناريو - القصة السينمائية - في هوليود، واستمر العمل في تأليفها يومياً، عدة شهور متعددة دون توقف .. ودون أن يستقر رأيه على صورة أخيرة نهائية مرضية للقصة التي أرادها، والتي كُتبت من البداية إلى النهاية حوالي العشرين مرة .. على الأقل.

ولقد استغرق إعداده هذه القصة ما يقرب من ثلاث سنوات.

وأخيراً ..

إستقر على الصورة النهائية .. التي يريدها ويرضاها لقصته ، فقرر الشروع في إنتاجها فيلماً.

وهنا .. حدث أكبر انقلاب عرفته صناعة السينما حتى هذا التاريخ،

نحن الآن في سنة ١٩٢٧ .

وقد أخذت شركة أفلام إخوان وارنر في توزيع فيلمها «مغني موسيقى الجاز» حيث أظهرت فيه آل جونسون المغني المشهور، وكان هذا الفيلم .. ناطقاً.

لقد نطقت السينما بعد سنين طويلة من الصمت والخرس.

اختفت بذلك نجوم كثيرة لم تعد تصلح للسينما التي تتكلم وتتحدث .. وتقول ناطقة بما لم تقله صامتة، وأخذت نجوم أخرى تتدرب على الكلام والحديث .. والنطق بالألفاظ كما ينبغي أن يكون النطق، وكما ينبغي أن يكون الغناء .. إن أرادت قصة الفيلم الغناء.

حدث انقلاب إذن، وانتهى بذلك عهد السينما الصامتة .. وزالت دولتها.

ووقف شارلي بمفرده في سنة ١٩٢٩ يقول :

- إن السينما الناطقة تحطم أقدم فنون العالم .. «البانتوميم» - أي فن التعبير بالتمثيل الصامت دون كلام أو ألفاظ - إنها تفسد الجمال العظيم الذي يوحيه الصمت.

وبينما كان يقول هذا، كانت كل ستوديوهات هوليود تعمل في أفلامها الجديدة، وكل هذه الأفلام جميعاً .. ناطقة.

وبدأ شارلي شابلن فيلمه الجديد .. صامتاً..

وكما اختار شارلي إيدنا بيرفيانس وجاكي كوجان ليقدمهما لأول مرة نجمين لامعين في أفلامه.. إختار أيضاً فيرجينيا شيرل - التي لم يسبق لها التمثيل من قبل - ليقدمها في دور بطلة فيلمه

الجديد .. الفتاة الضريرة في «أنوار المدينة».

إن لهذا الرجل شارلي لذة خاصة في خلق النجوم..

وها هو ذا يعود إلى عمله في الأستوديو ثانية، بعد أن خرج من مأساة زواجه بليتا جراي، عاد كالمارد الجبار .. لا يقهر أبداً، ورأى فيه الفنيون المعاونون له أستاذهم نفسه الذي عهدوه قبلاً.. أكثر نضجاً وخبرة، عاد الرجل الضئيل الجسم جباراً ضخماً يحرك دفة الأستوديو بقدرته السابقة. لقد تحرك فيه العملاق الذي يضفى على مساعديه من مقدرته ومن قدرته، ويجعلهم مردة يخلقون له ويحققون له كل ما يطلبه فنه من إعجاز .. عاد إلى حياته العاملة .. المثمرة .. المنتجة .. وبرقت عيناه بكل آماله الفنية يريد تحقيقها جميعاً دفعة واحدة .. في لحظة واحدة .. كوميض خاطف من نور، وعرفت الآن فقط البسمة الهنيئة طريقها إلى شفتيه.

ولم تلبث هذه البسمة طويلاً ..

**

فقد جاءه نبأ نقل أمه حبيبته إلى المستشفى .. فجأة ..

ووضعت شارلي أمام النبأ الأليم الذي وصله، وظن - أول الأمر - أن في مقدوره عدم الذهاب لرؤيتها على فراش مرضها، فقد كان يخشى رؤيتها هذه ويعمل لذلك حساباً كبيراً ، كانت عاطفته الجياشة نحو أمه أضعف من أن تحتمل رؤيتها هكذا، وكان بداخله الشعور بالرهبة وبالخوف وبالوجل .وبالضياع، ضياعها وضياعه ..

لكنه عاد إلى نفسه يراجعها .. فمن المحتمل أن تكون نوبة المرض التي نزلت بها هذه المرة الأخيرة .. هي آخر عهدها بالمرض وبالعافية معاً .. آخر عهدها بالحياة .. وتحامل على نفسه، وقاوم شعور رهبته وخوفه ووجله .. وضياعه، وقرر الذهاب لرؤيتها .. راغماً.

وفي غرفتها الشاحبة وسط المستشفى الشاحب رآها، كانت تائهة في غيبوبة طويلة لا أول لها ولا آخر، وعندما أحست وجوده .. فتحت عينيها لتراه بجوارها..

لقد عرفته ..

وأسعده هذا كثيرا، إنها تعرفه .. تعرف ابنها .. طفلها .. جنينها .. شارلي، ثم جاءه صوتها خافتاً .. شاحباً هو الآخر كلونها الشحب :

- شارلي ..

وبارحه بعض شقائه بمجرد أن صافح صوتها الحبيب سمعه، وبارحته بقية شقائة بمجرد أن

أخذت يديه في يديها .. كما كانت تفعل معه وهو طفل صغير في غرفتها المفروشة في كيننجتون.. أيام الزمان الخالي.

ثم تحركت الألفاظ تكافح لتخرج من فمها إلى الدنيا، وعجزت الألفاظ .. وبعد جهد رأى صوتها يبارح روحها ليطرق سمعه خفيفاً يناديه كالهواء :

- إبني ..

ثم تاهت ثانية في غيبوبتها الطويلة..

وتاه شارلي في غيبوبة أخرى، وصوتها مازال يسكن سمعه .. ويطرقه خفيفاً ولا يكف عن ندائه إليه : إبني .. إبني .. إبني ..

ونقله صوتها إلى الأيام التي ذهبت، ورأي فيما يرى صورة نفسه صغيراً يعبث مشرداً في ضباب لندن الكئيب، وأمه .. تتعذب كي تكفل له حياته ولقمة عيشه، والجوع لا يفارقه ولا يفارقها. ثم لمحها وهي تحضر له ما يسد به رمقه .. ثم لمحها وهي تقوده إلى شباك غرفتهم الخربة لتريه المارة وتلفت نظره إلى حركاتهم وسكناتهم .. وتعلق له علي ما يراه .. وترشده إلى مالا يعرف من أمور الناس وأحوالهم .. ثم وجد نفسه وهي تعلمه كيف يحرك ملامح وجهه الصامت ليقلد العجائز.. وليقلد السكارى وقد استبد بهم سكرهم وعربدتهم. وفجأة، وجد نفسه قد بلغ الصبا وهو يهرع إليها من فرقة كارنو المسرحية ومعه دوره المكتوب .. وهو لا يعرف كيف يقرأ الدور .. أو كيف يحفظه وهو الذي لا يجيد القرآءة ولا يجيد الحفظ، ثم رآها وقد أمضت الليل طوله بجواره تعلمه وترشده إلى حفظه . وجنحت به ذاكرته إلى ما قبل ذلك بسنين .. وغاصت به إلى أعماق طفولته. إلى يوم رجع إلى غرفتهم ولم يجدها .. وقد نقلوها في غيابه إلى المستشفى .. بعد أن انهارت أعصابها وأوشكت على الجنون – المستشفى.. أى مستشفى هذا الذي نقلوها إليه ..؟ لقد كانت في لندن وقتها .. وهي الآن في أمريكا .. كانا في لندن معاً. ثم تبخرت صورة لندن من خياله وقد أفزعه صوت أمه تناديه : ابني .. إبني ..

وأفاق من غيبوبته، والتفت إليها ..

ورآها لآخر مرة تنظر إليه. كانت تتنفس بصعوبة، وظلت هكذا وقتاً طويلاً بين الحياة والموت.. وبين الرغبة في الحياة وعدم الرغبة في الموت.

وفي الصباح الباكر تحقق شعوره السابق بالرهبة وبالخوف وبالوجل .. وبالضياع .. جاء إليه من ينعيها، وجاء غيره وغيره .. وأحس شارلي أنهم ينعونه إلى نفسه.

كل شئ في هذا العالم يمر إلى نهايته، وهكذا مر الشقاء الذي خلفته الإنسانه الأولى في حياة شارلي .. أمه.

وعاد إلى عمله في الأستوديو .. ذاك العمل الكفيل وحده بإعادته إلى حقيقة الحياة، ولم تكن هذه الحقيقة عنده وقتها إلا فيلمه «أنوار المدينة».

كانت مشكلة السينما «الناطقة» مازالت تحتل مكانها من تفكير شارلي .. على الرغم من إخراجه فيلمه صامتاً .. وقيامه بدوره فيه دون أن يفتح فمه .. في الوقت الذي أصبح الكلام هو كل بضاعة هوليود، رأى شارلي بعد أن انتهى من إخراجه الفيلم أن يضيف إليه عنصراً جديداً .. مغايراً للكلام وللحوار .. ولما بين الكلام والحوار من أصوات الناس، عنصراً يخدم شخصيته الفنية ويقويها ويضيف إليها شيئاً معبراً .. لا ينتقص من قدرتها على التعبير الصامت .. ولا يبدل أو يغير من كيانها ومقوماتها .. بل يعاونها على توصيل رسالته إلى قلوب الناس..

وفكر شارلي كثيراً..

ما هو هذا العنصر الجديد ..؟

وأخيراً .. كان لابد من الموسيقى التصويرية لتصاحب شخصية شارلي على الشاشة في «أنوار المدينة».

وولدت مشكلة جديدة بناءً على هذا الذي لا بد منه.

إن لهذا الفنان الكبير شارلي شابلن أسلوبه الذاتي الخاص به .. وهو أسلوب متكامل لفن مُجمع متعدد النواحي، فهو كما علمت المنتج المسئول الذي ينتج لك الفيلم بالشكل الذي يريده، وهو أيضاً المفكر الذي يضع لك صلب القصة في فيلمه الذي نراه .ويفلسف لك هذه القصة، وهو يعد هذا المخرج الذي ينفذ القصة وفلسفتها كما يتصورها، وهو - فوق كل ذلك - الممثل الأول الذي يؤدي الدور الرئيسي الذي خلقه من قبل .. وهذا الدور هو كل الفيم وعماده ودعامته..

ولابد له الآن من الموسيقار الذي يضع الألحان التي تصاحب الفيلم الصامت وتبعث حياه .. كما يتصورها شارلي، لا كما يتصورها له موسيقار بعيد عن فكرة إنتاج الفيلم وقصته وفلسفتها وإخراجها .. وطريقة أداء التمثيل في دورها الرئيسي ..

هذه هي المشكلة الجديدة التي ولدت.

ووجد شارلي حلاً .. عليه أن يصبح هو موسيقاراً يضع هذه الألحان التي يريدها لفيلمه .. حتى يحافظ على أسلوبه الذاتي الخاص به .. وحتي يتكامل هذا الأسلوب في فنه المجمع المتعدد النواحي .. كما سبق وقلت لك.

لقد كانت الموسيقى دائماً في حياته .. منذ طفولته الأولى ، ولا شك أنك مازلت تذكر البيانو المتجول في شوارع لندن وما كان منه ومن صاحبه ومن صاحبنا الطفل الصغير، ثم أنت تذكر حتماً كيف أخذ الشاب شارلي في دراسته للموسيقى في لندن على ما قسم له من دراستها. أضف إلى



مع صوفيا لورين أثناء تصوير الفيلم الأخير - ١٩٦٧

ذلك ما له من حساسيته المرهفة الكفيلة بخلق الألحان التي يتصورها خياله الخصب التصور .. ماذا ينقصه ..؟

وماذا تريد بعد ذلك .. العبقرية مثلاً..؟

لم يكن في حاجة إلى مزيد من العبقرية يساعده في هذا الفن الموسيقي الجديد عليه، فلديه منها ما يفيض عن حاجته .. مما لا يحتمله جسده الضئيل الحجم، ولا بد لهذا الفائض أن يجد له متنفساً.

ولقد وجده في هذه الموسيقى التي يبغيها لفيلمه الجديد .. الصامت في عهد السينما الناطقة.

ولتوه، بدأ في دراسته العملية للموسيقى .. وأطاع الحافز الذي دفعه لدراستها، وبذل من نفسه كل نفسه .. ليتعلم.

وألست معي في العجب من أمر هذا الرجل الذي أعجب له ..؟

وألست معي – مرة ثانية – عندما أفصح لك عن نفسي فأخبرك أني لم أعجب أبداً لأمر مخلوق في دنيا السينما .. كما عجبت لشارلي .. هذا الرجل الذي يضحك الملايين وأنت دون ريب من بينهم .. وابنك من بينهم أيضاً .. إن كان لك ابناً .. ما من شك أنك تعجب له وتعجب به، وسيزيد إعجابك عندما تعلم أن الموسيقى التي بغاها لألحان «أنوار المدينة» قد استحوذت عليه.. وأنها أجبرته علي ما وصل ليله بنهاره في دراسته الواعية للموسيقى وتأليفها وتركيبها وصياغتها، وغير هذا التأليف والتركيب والصياغة مما يعرف الموسيقيون ولا أعرف ..

ومما قد تعرف أنت إن كنت من أهل الموسيقى وصناعها.

ما من شك أن رجلنا العجيب قد بذل من نفسه .. كل نفسه، ليطلق هذه الألحان من أسرها، وليطلقها حرة متجاوبة .. حية تخرج من شعوره ووجدانه إلى دنيا الناس لتزيد دنيانا خصباً ونماء.

ومرت أسابيع، وجاء يوم ..

وقاد شارلي شابلن .. المضحك الصغير يوماً ، والجاهل بالقراءة والكتابة يوماً، والشريد في الشارع يوماً، وربيب الملجأيوماً .. قاد هذا الرجل نفسه الفرقة الموسيقية الضخمة ليسجل الألحان التي وضعها .. لتصاحب شخصيته الفنية في «أنوار المدينة».

وكانت هذه الموسيقى .. كل كلام الفيلم، في وقت أصبح الكلام هو كل بضاعة هوليود..

لم ينطق الفيلم كلاماً كثيراً أو قليلاً..

بل أعطى صورة واحدة من صور حياة العمال في الولايات المتحدة، خلال الأزمة التي مرت بها الرأسمالية الكبرى الأمريكية .. عقب الحرب العالمية الأولى .. والتي بدأت تتفشى في صورة وبائية

حوالي سنة ١٩٢٧ .

قام شارلي بدور العامل المتعطل الذي قادته البطالة إلى التشرد بين أنوار المدينة .. التي يبدأ بها أول مشاهد الفيلم الذي سرعان ما يوصلنا ليله إلى النهار .. ترى على ضوئه رجال السلطات يتجمعون في ملابسهم القشيبة .. للاحتفال بإزاحة الستار عن النصب التذكاري الذي أقاموه لذكرى انتصارهم على الفقر والفاقة والعوز .. في مدينتهم هذه التي أصبحت مهبط الرخاء.

ويزاح الستار .. ليجدوا أمامهم العامل المتعطل المتشرد فقراً وعوزاً ، والذي قضى ليله في أحضان فاقته نائماً بين يدي التمثال الذي أقاموه، وقد التحف متشردنا بستاره هذا الذي أزاحوه عنه .. وعن التمثال.

هكذا بدأت القصة .. بالسخرية من الرأسمالية الأمريكية ورجال السلطات الذين يمثلونها، وبالسخرة من انتصارهم المزعوم على الفقر ومشتقات الفقر.

وتتوالى حوادث القصة ..

فيلتقي المتشرد ببائعة زهور حسناء، ويلتقى مع حسنها بالعمى .. يطالعه في الوجه الجميل الذي لا يري، فيدفعه عطفه عليها فيقربه منها ومن حياتها .. ومن مشكلات هذه الحياة المغرقة في البؤس والحاجة وما قد يؤدي إليه بؤسها وحاجتها من مأساة.

وثمة لقاء آخر بين متشردنا المفلس الذي لا يجد دولاراً واحداً ينفقه .. وبين مليونير لا يجد ما يفعله بملايينه من الدولارات إلا إغراق روحه في سكر لا يفيق من خمره .. وإغراق نفسه في لجة النهر ليتخلص من حياته التافهة التي لا يجد لها مبرراً أو هدفاً يشده إليها، وينقذ شارلي المفلس المليونير، وتنشأ بينهما أعجب صداقة رأتها القصص وروتها الأفلام. إذا ما سكر المليونير وثمل وفقد وعيه تعرف على صديقه المفلس المشرد واستبد به شوقه إليه .. ووهب له كل ما يريد منه، وإذا ما أفاق من خمره نسى كل شئ عن صديقه هذا وصداقته له .. وكأنه لم يلتق به من قبل. لابد للمليونير إذن من فقد وعيه تماماً ليتذكر المفلس .. وهذه هي المهزلة.

يتشابك لقاؤه بالمليونير الذي حدثتك عن شذوذه – أو عن طبيعته – ولقاؤه بالحسناء التي لاترى.. والتي عطف عليها عطفاً هو الحب .. أو هو ما فوق الحب من عاطفة – إن كان هناك من العواطف ما هو فوق الحب.

ثم تنتهي القصة الإنسانية الساخرة على الطريقة المعهودة في إنهاء شارلي لمعظم قصصه، وعلى طريقته الخاصة به .. وبأفلامه.

يضحي المتشرد الذي لا يملك شيئاً .. بكل شيء مما هو فوق طاقته .. ليرد الإبصار إلى عيني حبيبته الجميلتين ، ويذهب هو إلى السجن من جراء ذلك ، وبعد عذاب طويل يخرج منه ليراها وقد

ابتسمت لها الدنيا، وتنظر هي إليه ولا تتعرف عليه وتضحك من شكله ومن أثماله البالية وبؤسة الواضح المعالم . ثم تتدارك الأمر وتأسف له وتمد إليه يدها ببعض نقودها .. ومع النقود بيدها وردة .. ولا يرى متشردنا المفلس النقود ويرى الوردة وحدها .. ويرى صاحبتها .. ويرى في صاحبتها سعادتها . إنها ترى الآن. لقد قدم شيئاً إلي مخلوق كان في حاجة إلى معونته، وهي هي سعادته .. البذل.

أما نهاية هذه النهاية .. فهي صلب فلسفة أفلام شارلي :

يذهب المتشرد بعيداً هنا ومعه صمته وعذابه وبطالته، ويختفي في المدينة الكبيرة سائراً في طريقه الطويل، طريق الحياة نفسها.

يذهب ومعه إيمانه بالناس ، ومع إيمانه وردة ..

**

في ذروة مجد الأفلام الجديدة .. الناطقة حديثاً ،في مارس ١٩٣١ بدأت في مدينة لوس انجلوس الحفلات الأولى لعرض «أنوار المدينة» .. الصامت.

أقبلت أمواج زاخرة من الجماهير بلغ تعدادها أكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة تسد الطرق المؤدية إلى دار العرض .. لتحظى برؤية شارلي شابلن في طريقه لحضور حفل الافتتاح، مما اضطر قوة ضخمة من رجال الشرطة للحضور للمحافظة على النظام .. دون جدوى.

وعرض الفيلم.

وفاق نجاحه كل ما سبقه من نجاح، ودخل فيلم «أنوار المدينة» تاريخ الفن السينمائي من أكبر أبوابه.

وبعد منتصف الليل، وعندما انتهى حفل الافتتاح، كانت الأمواج الزاخرة من الجماهير التي حدثتك عنها مازالت في مكانها خارج دار العرض لا تبرح الطرقات المؤدية إلى الدار .. مثابرة على انتظارها .. لعلها ترى معبودها شارلي، وعندما رأته هتفت له طويلا وطويلاً جداً.

ولقد حقق الرجل المعجزة مجدة مرة أخرى.

عرف ساعتها أن حب الجماهير مازال في جانبه حقاً وحقيقةً .. على الرغم من عداء رجال الأعمال والمال له، وعلى الرغم من عداء بطانة رجال الأعمال والمال في الصحافة الاحتكارية .. وفي مقدمتها صحافة المليونير هارست وأتباعه.

هذا هو ما حدث في العرض الأول للفيلم في أمريكا ..

أما في بقية الدنيا، فقدطالبوا شارلي بالحضور إلى أمهات عواصم الحضارة ليشهد حفلات

الافتتاح . ألحوا في طلبهم، وما كان عليه إلا أن يقبل.

في باريس .. فاضت عاطفة أهل فرنسا عندما رأوا نجمهم القريب من قلوبهم «شارلي» ، وتجمعوا في كل مكان ظنوا احتمال وجوده فيه، وحقاً لقد دعم شارلي نجاحه في مدينة النور بعرضه «أنوار المدينة».

وفي برلين .. زاد حب الألمان له أضعاف ما كان عليه، حين زار عاصمتهم لأول مرة .. منذ عشر سنوات. لقد شقت الآن أفلامه طريقها إلى قلوبهم فعرفوه، وزادوا من معرفتهم الحقة به وبفنه.

ولا أملك لك في هذا السطر الذي أكتبه إلا أن أخرج بك عن الموضوع بعض الشئ .. لقد وقع عزيزنا شارلي في عاصمة الرايخ في حب جديد .. من أول نظرة - عندما رأى المصرية الخالدة الجمال ..نفرتيتي .

ومن لا يقع في حب مصرية .. ومن أول نظرة..؟

وفيما بعد .. عاش شارلي سنوات طويلة جداً مع نسخة من تمثالها لا يبارح داره كما لا يبارح عقله وقلبه، وما أظنه اليوم إلا كما كان بالأمس، يعيش بعقله وقلبه معها ومع مصريتها، والحق في جانبه.

وإن دل هذا على شئ لا يخرج بنا عن الموضوع .. فهو يدل علي حسن ذوقه من ناحية .. وعلى تقديره للجمال واستطابته وتذوق حلاوته في كل زمان ومكان .. أعود بك إلى شارلي وجولته..

ففي طوافه الثاني بالعالم - هذا الذي نمر به معه - زار لندن، ولاقي فيها مالاقاه في غيرها من عواصم الحضارة الغربية من حب وتأييد، ومن إكبار وإعزاز .. من كل شعوب العالم .. وما هذه الشعوب إلا جزءاً لا يتجزأ من شارلي وما هو إلا جزءاً لا يتجزأ منها.

وإليك السر..

إنه فنه الإنساني ووعيه بمشكلات عصره.. وصدقه في التعبير عن هذه المشكلات، هذا هو سر شعبيته وعالميته معاً.

قبل أن يبارح شارلي لندن، وقبل أن أبارح هذا الفصل العاجل الذي أقص فيه عليك بعض أخباره في لندن .. حدث حادث صغير في مظهره، لكني لا أقدر إلا أن أنقله إليك، وأقف بك عنده في سطور قليلة :

ذهب شارلي فجأة ذات يوم إلى ملجأ هانويل للأيتام، حيث قضى من قبل أبأس أيام طفولته، بل أبأس أيام عمره كله.

وهناك رأى اليتامى الصغار..

ورأى في كل طفل منهم صورة ثانية لنفسه ولأخيه، وشعر معهم، بأنه يلتقي بزملاء قدامى أعزة عليه.

وعلى قدر ما خففت هداياه لهم الكثير من آلامهم .. ضاعفت من آلامه.

ولم يقدر إلا أن يهدي إليهم - من بين هداياه- آلة لعرض الأفلام .. ومجموعة من أفلامه. وبقى معهم وقتاً طويلاً لا يريد فراقهم وكأنه لا يريد فراق نفسه التي وجدها بينهم اليوم .. كما تركها بالأمس .. ولقد أحس شارلي أن أمسه البعيد في هذا الملجأ هو الأمس القريب فقط.

فعند خروجه من بابه الضخم الكبير، عادت إليه لك طفولته ومعها كل ذكرياتها. . لقد خرج من هذا الباب نفسه مرة من قبل .. بعد سجنه الطويل، وها هو ذا يخرج منه الآن مرة أخرى..

وشتان ما بين المرتين.

لقد كانت أمه حبيبته في انتظاره تلك المرة .. لتأخذه إلى صدرها، ليبكي في أحضانها وتبكي معه بعد لقاء طال فراقه، ولقد ماتت أمه .. وهاهو يخرج من هذا الباب وحيداً هذه المرة .. ولا يجدها في انتظاره لقد تغير كل شئ حقاً..

إلا شيئاً واحداً لم يتغير في المرتين، شوقه إلى الخروج من هذا السجن، شوقه إلى الحرية.

ولقد خرج هذه المرة الثانية من باب الملجأ وهو أكثر شوقاً إلى حريته .. وإلى حرية جميع العالم معه.

تركتك حيث انتهى شارلي من زيارته الثانية لوطنه انجلترا، وأستمر في حديثنا معاً إذ يستكمل رحلته حول العالم حتى يصل به طوافه إلى الشرق الأقصى فيزور اليابان، ويحقق حلمه في دراسة المسرح الياباني عن مقربة. إنه يعجب به الإعجاب كله .. لاسيما فن التمثيل التعبيري الصامت «الميميك» الذي الذي يعتمد عليه هذا المسرح، كما يعتمد عليه عزيزنا شارلي كل الاعتماد في طريقة تمثيله وأدائه لأدوار أفلامه.

وأدفع بحديثنا هذا لأخبرك أنه زار مصر في رحلته الثانية هذه، وأنه أعجب بأرضها وبنيلها وبأهلها، وأنه أعجب بحضارتها الفرعونية التي خلفت له تمثال نفرتيتي الذي يعيش مع نسخة منه، ولقد دعمت رويته لمصر حبه لحسنائه نفرتيتي وتمثالها، ولم يفق حبه لها الا حبه لبلادها..

ثم غادر مصر.

لقد مر ببلاد كثيرة .. ورأى شعوبها وأهلها ، وعرف الناس في كل مكان، ولمس قوة الروابط الإنسانية التي تربطه بهؤلاء الناس .. وتربطه بمشكلاتهم جميعاً، وزاده هذا وعياً للحياة والأحياء .. ولمسئوليته أمام الحياة وأمام الأحياء.

وما كان له أن يستمر في ترحاله هذا .. كالسندباد، بعد أن أحس أن ترحاله وحيداً بين بلاد الدنيا الواسعة قد طال، وبعد أن أحس في أعماقه أنه يشرد نفسه في الواقع كما يفعل بها في الأفلام..

ولا بد للإنسان من عودة إلى أرض يرتبط بها.

وهكذا .. وصل في مايو ١٩٣٢ إلى هوليود .. بعد غيبة دامت عاماً كاملاً، وما كاد يصل إليها حتى وجد الناشرين في انتظاره يريدون طبع مذكراته عن رحلته هذه الأخيرة في كتاب، كمذكراته عن رحلته الأولى، وقد عرض أحدهم عليه أن يطبعها علي أن يكون ثمن كل كلمة يكتبها شارلي دولاراً ..

ورفض شارلي .. واحتفظ بها لنفسه حتى اليوم لم تر المطبعة بعد ..

لن أناقش أمر هذه المذكرات .. أو أمر طبعها أو عدمه، لكني أحب أن ألفت نظرك .. مرة أخرى.. إلى المركز الذي بلغه هذا الإنسان شارلي .. والذي دعا إلى تهافت الناشرين عليه ليفوزوا بطبع مذكراته هذه .. وهو ليس بكاتب من الكتاب الكبار أو غير الكبار. ثم أذكرك بما كان من أمر هذا الإنسان شارلي .. وأمر جهله بالقراءة والكتابة حتى صدر شبابه ..

ومع كل هذا الاهتمام بهذا الرجل المرموق، المعجز ..

لم يحظ عزيزنا بمن يهتم أو يحفل به بوصفه إنساناً يعيش في مرارة وحدته وانطوائه على نفسه .. حتى قابلها، وحتى خفق لها قلبه، وحتى زايلته مرارة وحدته وانطوائه على نفسه..

إسمها «بوليت».

عرف معها الطريق إلى شاطئ الأحلام «بالم بيتش»..

وعرفا معاً طريقهما سوياً إلى بحار الجنوب فلم يتمالك أعصابه .. ولم يتمكن من ضبط أعصابه، ولم يضبطها ..

هكذا وجد نفسه فجأة مع بوليت، ووجد معه وثيقة الزواج .. تحمل تاريخ أول يونيه من سنة ١٩٣٣ .

والزوجة الثالثة لشارلي في التاسعة عشرة من عمرها ، استهوى جمالها الصبي عزيزنا الخبير بالجمال .. وبالجمال الصبي بوجه خاص .. ولقد غزت بوليت قلبه حقاً بهذا الجمال، وغزت مع قلبه عقله أيضاً، وامتد بها الغزو إلى ما بعد القلب والعقل من شارلي .. حتى وصلت إلى السطر الأول من فيلمه الجديد..

وكان عليه أن يخلق منها نجمة يقدمها لرواد أفلامه ، ولخلق النجوم عنده متعتها الخاصة .. وهو يصنع نجومه بالسهولة الممتنعة نفسها التي يصوغ بها أفلامه، وسرعان ما أخذ في صياغة بوليت ليقدمها للجماهير .. «بوليت جودار» نجمة فيلمه «العصر الحديث».

احتلت السطر الأول من قصة الفيلم إذن، لكنها لم تحتل صلب موضوعها الذي عالج الأزمة رقم واحد التي يعانيها عصرنا .. العمل والعمال والآلات والمصانع وأصحاب المصانع..

والإنسان الحائر بين كل هذا.

لقد هال شارلي فداحة مشكلة العمل والعمال، بعد أن لمسها في زيارته لكل بلدان العالم، ولقد لمسها قبل ذلك بسنوات في أمريكا.

بدأ وقد فكر أول الأمر في كتابة سلسلة من المقالات والدراسات عن مشكلة البطالة التي يعانيها العمال .. والتي تسحق كرامة الإنسان قبل أن تسحق مادة جسمه. لكن سارع شارلي فغير من فكرة المقالات والدراسات ينشرها علي القراء.. واستبدل بها فيلماً ينبض بالحركة والحياة فيصور المشكلة ويجسم وقائعها للجماهير.

وبدأ الفيلم .. يروي قصة العمال المسالمين كالحملان الوديعة تسير إلى المجزر .. المصنع الرهيب يضج تحت سيطرة الآلة .. تحركها الرأسمالية الاحتكارية الكبرى المسيطرة على أمريكا

.. شعباً وحكومة ، تحركها هذه الرأسمالية المستبدة لصالحها الخاص وحده .. على حساب صالح العمال، وليكن ما يكون من أمر حياة العمال ومستوى هذه الحياة .. طالما يصل دولار آخر إلى جيب الأباطرة أصحاب هذه المصانع التي لا يهدأ لها ضجيج.

ودور شارلي في هذا الفيلم امتداد لدوره السابق في «أنوار المدينة» حين ظهر عاملاً متعطلاً مشرداً، وهو في هذا الفيلم لا يعاني البطاله، بل يعاني العمل .. الذي كاد يصل به إلى الجنون، لفرط ما به من آلية ميكانيكية.

ولم يستمر في عمله طويلا، فقد جاء دوره .. وقذفت به الآلات إلى البطالة بين من تقذف بهم كل يوم. وهنا يلتقى المتشرد الخالد بفتاته .. أبنة عامل متعطل يعيش - هو الآخر - في خراب ودمار .. ووسط هذا البؤس ينبت الأمل فيملأ قلب شارلي رغم كل الظروف المضادة والأحوال المعاكسة .. والأمل عنده كالزهرة لا تعوقها الأرض المجدبة عن النماء .. فالغيث يمر بها دائماً أبداً وما عليها إلا المقاومة لتهزم الزمن .. فالمسألة مسألة وقت ومقاومة..

وقاوم المتشرد شارلي وفتاته بوليت ..

وكافحا معاً في سبيل الحياة .. حتى نهاية القصة، التي تنتهى كبقية الغالبية العظمى من أفلام شارلي شابلن .. المتشرد البائس وفتاته يشقان طريقهما الطويل .. متشابكين متساندين بالرغم من الأنواء والأعاصير .. يسيران معاً نحو المستقبل المأمول ..

وفجر جديد .. لحياة أصلح :

**

بدأ عرض الفيلم في سنة ١٩٣٥

ومع العرض الأول .. قفزت بوليت جودار إلى سماء النجوم، من أول فيلم لها، وحققت مجداً سينمائياً ضخماً بين يوم وليلة.

نجح الفيلم نجاحاً منقطع النظير، منقطع النظير حقاً.

وتكالبت الجماهير على الدار التي تعرضه، ونشرت بعض الجرائد تصف هذا النجاح العريض فقالت أن رجال الشرطة يجدون عناءاً كبيراً في تنظيم المرور أمام دار العرض التي تقدم فيلم شارلي الجديد .. وقد أصرت الجماهير علي مشاهدته مبكرين ما أمكن.

ومع هذا ..

صدرت جرائد المليونير هاريس - الدائرة في خدمة أباطرة الصناعة الأمريكية - تحمل عناوينها المثيرة المختلفة لتهاجم الفيلم .. وصاحبه.

كان الهجوم هذه المرة عنيفاً .. وجاداً الجد كله.

وكان منظماً بحسب خطة موضوعة ، منسقة في جبهات ثلاث، تعمل متكاتفة بكل قوتها لتنتقص من قدر شارلي أمام الجماهير التي أولته حبها وثقتها الغاليه .. وأولته كل تأييدها الذي لا حد له.

لقد أولته الرأسمالية الاحتكارية الحرب على شارلي، ونظمت حملة اضطهاد واسعة النطاق .. لمحاولة القضاء عليه، فهو عدها اللدود الذي لا يكف عن تجريحها والسخرية منها ومن مقوماتها، وفيلمه الأخير ضربة موجهة مباشرة إلى قلبها .. ضربة في الصميم .. وطعنة من خصم عنيد .. قوي لا يهدأ ولا يلين ولا يستكين .

لذلك .. كان لابد من حملة اضطهار واسعة النطاق .. تقدمت الحملة الإرهابية علي هيئة جناحين وقلب هجوم، وإليك تفاصيل الخطة كاملة.

الجناح الأيمن ..

يستوحي الحملة الصليبية ، ويتقدمه الكهان من رجال يدعون المحافظة على الأخلاق الكريمة، وهم يحتمون وراء ستار كثيف من الجمعيات ذات الشعارات والأسماء الدينية .. والدين برئ من الجمعيات ومن شعاراتها وأسمائها الدينية. بدأ هؤلاء السادة الأفاضل هجومهم الموجه نحو شارلي بدعوى تظاهرهم بحماية الفضيلة، وأول مظاهر حمايتهم لهذه الفضيلة ..التشهير بشارلي «المزواج» الذي تزوج وطلق، ثم تزوج وطلق، ثم تزوج «بلويت جودار» .. وأنت تعرف قوة كل ذلك ..

هذا هو الجناح الأيمن من الحملة ضده .. وإليك الأيسر :

السادة النجب رجال السياسة الأمريكية .. الذين صالوا وجالوا في التجريدة الموجهة إلى السينمائي المناضل الذي نزل إلى الميدان لينتقد كبار رجال الصناعة في فيلمه «العصر الحديث». ولم يكن هؤلاء الساسة شرفاء .. بل كانوا ساسة أمريكيين.

لذا وجد عباقرتهم الحل السريع لمشكلة هجومهم على شارلي، وكان حلاً سهلاً صغيراً بعيداً عن التعقيد .. وله مفعوله المقطوع به ؟

شارلي شيوعي .. وانتهت الحكاية.

وهنا .. أخذ الهجوم – لأول مرة – صبغته الجدية الجادة كما قلت لك من قبل. لقد وجد الساسة الأمريكان متنفساً يتنفسون منه الصعداء.. ليزيحوا عن صدورهم المكلومة كل ما بها من حقد وغل وخوف .. إن حياتهم السياسية وغير السياسية رهينة – بطبيعة الحال – بهذا النظام الاستعماري المبني على رأسماليتهم الاحتكارية الكبرى، وحقدهم وغلهم وخوفهم ..أن اتهام شارلي شابلن في سنة ١٩٣٥ بالشيوعية يكفل لهم القضاء عليه قضاءاً لا رجعة فيه، ويكفل لهم إبعاد الشعب الأمريكي عنه وعن أفلامه وعن آرائه.

ولكن .. ما كل ما يتمنى ساسة أمريكا يدركونه..

اتضح للسادة النجب الساسة الأمريكان - بعد هذا الاتهام - أن الشعب الأمريكي - في غالبيته العظمي - لا يخاف الشيوعية كما يخافها السادة النجب. إن هذا الشعب يئن تحت ثقل الأزمة المالية الكبرى المتفشية في أمريكا في ذاك الوقت في صورة وبائية .. إن هذا الشعب يعيش مع البطالة والعطلة كما كان يعيش شارلي تماماً في الفيلم الذي قدمه له .. من واقع الحياة الأمريكية ذاتها..

واتضح للسادة النجب الساسة الأمريكان شئ جديد.

لا أحد يحفل بهذا الإتهام ويصفق له إلا السادة الأماثل كبار رجال المال والأعمال ، وهم قلة .. بل أقل من القلة التي قد يُؤبه لها..

وبالرغم من هذا .. إستمر الجناح الأيسر في هجومه وفي اتهامه.

بقى لك أن تعرف الفرقة الباقية في حملة الاضطهاد .. وهي قلب الهجوم. إنها مكونة من رجالات الصناعة الأمريكية .. الذين إنصب نقد شارلي عليهم وعلى صناعتهم وعلى سوء استغلالهم للعمال .. وهنا بيت القصيد.

لقد قامت هذه الفرقة بتمويل الحملة .. وشد أزرها مادياً وأدبياً، قامت بالدور الإيجابي في التجربة الإرهابية ضد شارلي ..

ولكني .. أقف بك هنا عند هذا الحد لتستوعب «جريمة شارلي» هذه التي أدت الي رغبتهم في تأديبه .. ما هي جريمته هذه ..؟

كل جريمته أنه لم يزور الحقائق كما تزورها الغالبية العظمى من أفلام هوليود التي تقدمها للعالم .. كل جريمته أنه لم يتملق الرأسمالية الاحتكارية الأمريكية . كل جريمته أنه رأى - بناء على قصة فيلمه «العصر الحديث» - أن في إمكان الآلات والمصانع إسعاد الناس وإسعاد العمال ، على ألا تحتكر هذه الآلات والمصانع هذا الاحتكار الأمريكي المريع .. الذي يستغل العمال أسوأ استغلال.. والذي يسخرهم بالأسلوب نفسه الذي يسخر به الآلات التي يعملون عليها .. والذي يسلمهم آخر المطاف إلى المرض والخوف والقلق .. وأحيانا إلى الجنون..

هذه هي «جريمة شارلي».

لقد طرق شارلي شابلن باب الرأسمالية الاحتكارية الأمريكية .. بكلتا يديه ، وبكل عنف.

ماذا فعل شارلي أمام هذه الحملة المدبره ..؟

صمت صمتاً رهيباً ، واكتفي بصمته، ولم يتكلم. لقد قال رأيه في الفيلم، ولم يعد لديه ما يقوله، إلا أنه ارتد إلى نفسه وأغوارها وخيالها. ولقد خيل لشارلي أنه يرى تمثال الحرية المقام في مدخل نيويورك .. وأنه يراه وقد وضع يديه يخفي بهما عينيه .. خجلا من رؤية المصير البشع الذي ينتظر الأحرار في بلاد بها للحرية تمثال ..

ومساء الخير يا تمثال الحرية.

الفصـــل الرابـــع

الدكتاتور العظيم جداً

ظهر شارلي في «أنوار المدينة» بوصفه عاملاً متعطلاً.

ثم ناقش مشكلة العمل والعمال في «العصر الحديث»

لذلك قال السادة النجب ساسة أمريكا عنه إنه شيوعي .. مادام قد تطاول وذكر العدالة الاجتماعية وحقوق العمال المتعطلين ، وفي هذا الذكر - كما اعتقد الساسة الأمريكان - انتقاص مرهق لحقوق السادة الأماثل أصحاب الملايين والبلايين.

ولكي يجمع هؤلاء السادة الماثل مثل هذه الثروات الخرافية .. كان لابد لهم من ساسة نجب يدافعون عنهم مثل ذاك الدفاع وكان لابد - أيضاً - أن تحيق بالسواد الأعظم من الشعب الأمريكي أزمة مالية ضخمة .. على قدر ضخامة الثروات الخرافية لأصحاب الملايين والبلايين، وكان لابد - بعد كل هذا - أن تصل هذه الأزمة إلى درجة الغليان .. وأن يصل الغليان إلى أشده.

وهذا هو ما حدث تماما حوالي سنة ١٩٢٣ .

فاض الغليان في الأزمة الأمريكية، وفاض كذلك في غير أمريكا من البلاد لاسيما في أوربا - وأوربا الوسطى بوجه خاص.

فاستيقظ شبح الحرب العالمية الثانية في مقبرة الحرب العالمية الأولى .. عندما خرجت ألمانيا الهتلرية من لجنة نزع السلاح، لتأخذ في التسلح بحرية مطلقة وفق هواها .. لاسترداد مستعمراتها بالقوة الجبرية.

وشرع الفوهرر هتلر - لا رحمه الله - في التنفيذ فعلاً، وبدأ الحرب أول ما بدأ «بالقطاعي».

إحتل السار سنة ١٩٣٥ .

واحتل الراين سنة ١٩٣٦ .

واحتل السوديت والنمسا سنة ١٩٣٨ .

وأشرفت سنة ١٩٣٩، وأصبح شبح الحرب العالمية حقيقة ملموسة في سبتمبر من هذه السنة غير المباركة .. عندما قررت بريطانيا وحلفاؤها الوقوف أمام هذا الزحف الهتلري الذي لا ينتهي، والدخول في الحرب.

تحول الموقف من حرب «بالقطاعي» إلى حرب بالجملة.



اونا اونيل في جنازة شابلن عام ١٩٧٥

وبذلك ، أصبح القتل أرخص سعراً. صار بسعر التكاليف فقط، فالرأسمالية الاستعمارية تعرف جيداً أن سعر الجملة .. أرخص من القطاعي..

**

«إعلان الحرب».

قرأ شارلي الخبر المشئوم في الجرائد، وتوقف عن القراءة وقد استقرت عينه على صورة هيتلر المصاحبة للخبر.

وتحسس شارلي شاربه الصغير تحت أنفه، ثم تذكر زيارته الأولى لألمانيا سنة ١٩٢١ عندما رأى الصلبان المعقوفة مرسومة بالطباشير على جدران المنازل، وتذكر سؤاله عنها وإجابتهم .. إنها شعار رجل ضئيل الجسم كثير الصخب .. له شاربه نفسه.

هيتلر

ودقق شارلي النظر ثانية في صورته أمامه، فرأى «فيلمه» الجديد واضحاً في مخيلته، وما عليه إلا أن يسرع في الإعداد للعمل. ولم يكن في حاجة للبحث عن إسم للفيلم - فالاسم على شفاه الناس تردده في كل مكان، وتقرؤه في كل مكان، وتحلم به في نومها ككابوس مخيف، وتحلم به في يقظتها ككابوس أكثر إخافة وألعن سحنة.

«الديكتاتور»

ثم أضاف إليه شارلي من سخريته المرة فمنحه لقباً من عنده، فالديكتاتور لابد أن يكون من غواة جمع الألقاب. وهكذا بدأ شارلي لتوه فأعلن عن فيلمه القادم «الديكتاتور العظيم».

وصل الخبر بسرعة البرق إلي جورج كيسلنج .. قنصل ألمانيا النازية في هوليود، فأرتدى جنابه ملابس مقابلة الحكام .. وقابل لتوه حكام واشنجطن، وقدم إليهم احتجاجه على الخبر الذي سمعه.

ووصل الخبر - بسرعة أيضاً - إلى السفير في واشنجطن ، فأسرع هو الآخر وقابل الحكام الحقيقيين لهوليود وأفلام هوليود .. رجال البنوك والمؤسسات المصرفية الكبرى الممولة لشركات السينما، وهددهم جنابة بمقاطعة كل الأفلام الأمريكية دفعة واحدة في كل ألمانيا وكل البلاد التي تحتلها .. وكل البلاد التي ستحتلها . هددهم بهذه المقاطعة الإقتصادية إذا ما استمر شارلي في جنونه، وتصميمه على إنتاج هذا الفيلم الذي جاءه خبره «الديكتاتور العظيم».

راجع رجال البنوك والمؤسسات المصرفية الكبرى هؤلاء رصيدهم ..

وأخذوا يفاوضون شارلي ليتراجع وأبدوا استعدادهم الطيب لتعويضه عن تراجعه هذا، وإمداده بالمعونات الاقتصادية إذا لزم الأمر .. إن كان في حاجة إلى مثل هذه المعونات الاقتصادية، ثم

ذكروه برصيدة في البنك من العملات السهلة والصعبة، وذكروه بأن الدولار الأبيض ينفع في اليوم الأسود.

وذكرهم شارلي بالديمقراطية وبالمبادئ الديمقراطية .. فذكروه بأكل العيش.

وذكرهم شارلي بالحرية .. فذكروه بحرية التجارة.

وأخيراً قالوا له قولهم الفصل : عليك أن تتراجع

ولم يتراجع شارلي.

وتراجع المليونير الأمريكي الحاكم بأمره في هوليود .. المالي الكبير مورجان، وتراجع المليونير الأمريكي الحاكم بأمره في هوليود وغير هوليود المالي الأكبر روكفلر.

لقد صمم شارلي أن ينتج وحده فيلم «الديكتاتور العظيم» وأن يهاجم فيه الديكتاتورية والنازية والفاشية، لأن هذه النظم الفاسدة تقتل الحرية وتلغي وجودها، ولأن أثمن ما في الحياة هو حرية الناس ووجودهم، ولأن أمريكا الديمقراطية لابد لها أن تدافع عن الحرية.

وذكر شارلي الماليين الكبيرين مورجان وروكفلر بالتمثال المقام للحرية في مدخل نيويورك، وذكرهما بالمشعل في يد التمثال.

ولكنهما كانا قد راجعا أرصدتهما في البنوك، فلم يتذكرا مما قال لهما شارلي شيئا، بل فقدا الذاكرة تماماً من جراء ما ذكرهما به.

وفي يوم تالٍ ، أصدر مورجان وروكفلر وشركاؤهما قراراتهم الموجهة إلى شركات السينما في هوليود .. الدائرة في فلك أموالهم وتمويلهم، وهذه القرارات تنص صراحة وبوضوح تام على أن تقف هوليود وأفلامها جميعا من الديكتاتورية والنازية والفاشية .. موقف الحياد، والحياد المطلق .. إلى حين صدور أوامر أخرى.

عليّ الآن أن أذكرك بدرس في الجغرافيا، إن كنت قد نسيتها : إن هوليود هذه مدينة في ولاية كليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وعلى أ أذكرك بدرس آخر في التاريخ : إن الولايات المتحدة الأمريكية هذه جمهورية ديمقراطية . دينها الرسمي الحرية.

**

رأى شارلي أن يتخلى عن صمته وعن أفلامه الصامتة .. وأن يخرج بهذا الفيلم ناطقاً. كان كالمتهم الذي امتنع عن الكلام، ثم قر قراره فجأة أن يفتح فمه ليقول الحق كل الحق ولا غير الحق.

وأخذ كهان الفن السينمائي يؤولون قراره هذا تأويلاتهم المتباينة، ويفلسفون هذا فلسفات شتى، ويردون هذا إلى مراجع علم النفس وتحليلات علم النفس من كتم وكظم وكبت وعقد. والأمر

أهون من علم النفس وتحليله ودوافع التحليل. كان الأطفال الصغار هم السبب، وإليك الأقصوصة:

من عادة شارلي أن يدرس دائماً تأثير أفلامه على الجماهير التي يعمل من أجلها .. وهذه ناحية من مميزات هذا الرجل. ولقد حدث أن زار من أجل هذه الدراسة داراً للعرض في لوس انجلوس خلال فيلمه الأخير «العصر الحديث»، وفي هذه الدار وقعت الحادثة التي غيرت كل آرائه ونظرياته في السينما الناطقة. وجد الأطفال الصغار لا يضحكون كما يجب أثناء مشاهد الفيلم الدائرة أمامهم، حتى جاءت الأغنية القصيرة التي احتواها أحد هذه المشاهد. وفيها ينطق شارلي بألفاظ مبهمة لا معنى لها إلا مجرد قيمتها الصوتية المعبرة، هنا ضج الأطفال بالضحك لمجرد سماعهم صوت شارلي الناطق في فيلمه الصامت كله ..

ومع ضجيج ضحكاتهم هذه .. قرر شارلي لتوه أن يكون «الديكتاتور العظيم» ناطقاً .. ونطق شارلي .

ليقول للناس إن الديكتاتور شئ مضحك، والديكتاتورية أكثر إضحاكاً من عميدها، والأمر كله لا يدعو إلا إلى الرثاء .. وإلى الكفاح ضد هذا النظام الفاسد الذي يورث الإنسان الكفر بالقيم الإنسانية العالية .. والإنتصارات الرائعة التي وصلنا إليها عبر تاريخ بشريتنا المجيد .. وإن علينا أن نكافح من أجل أعز ما نملك .. حريتنا ..

هذه الحرية .. حق مكتسب لنا تحاول الديكتاتورية سلبنا إياه ولن تسلبه إلا مع أرواحنا .. لن يتم لها ذلك .. مهما جندت من عنف وقسوة وجبروت وطغيان لأننا الشعب، ولأن النصر الدائم هو للشعوب المعارضة للعنف .. المقاومة للقسوة .. المضادة للجبروت .. المستبسله أمام الطغيان..

وكانت خطة شارلي ووجهة نظره في الفيلم ..

هي أن يسخر من هيتلر، ومن موسوليني، ومن أتباعهما الصغار .. أن يضحكنا منهم كثيراً ويضحكنا معه كثيراً، علي حين نتعلم منه أشياء أكبر قيمة من الضحك أو أكثر منه بقاءً في أعماق الناس، فالضحك سلاح باتر عند من يجيد استعماله ..

وأظن، وأظنك تظن معي .. أن شارلي يجيد استعماله خير إجادة.

لقد أصاب الفيلم هدفه .. وأصاب من الديكتاتورية مقتلاً عندما بدأ عرضه في سنة ١٩٤٠ .

ولقد بلغ به شارلي شابلن قمة مجده، وجاوز القمة ليصل إلى السحاب وما فوق السحاب، كما بلغ به روح الإنسان في أعماقها يخاطبها أن تقاوم كل طغيان مهما كبر .. فلكل طغيان مهما كبر نهاية محققة ، فالإنسان هو سيد نفسه ومصيره .. ولن يوجه هيتلر وموسوليني وأتباعهما الصغار مصير الإنسان.

فتحت الأبراج العاجية شباكها ..

وأطل من الشباك بعض مراهقي الفن ونقاده ليقولوا :

- شارلي وصل إلى الحضيض بهذا الفيلم الأخير، هبط بمستواه الفني العالي من القمم الشوامخ التي كان يحلق فوقها .. ليخط إلى دنيا السياسة ودنيا الدعاية السياسية. إن «الديكتاتور العظيم» مجرد نشرة من نشرات هذه الدعاية، وإن الفنان ليربأ بنفسه وبفنه المقدس عن الزج بروحه في ميدان السياسة ودعايتها .. وحبذا أن يظل الفن في مبعدة عن كل هذا، ليظل مع أزهار الربيع الحالم وعرائس الشعر وآلهة الموسيقي وليظل في فراره من واقعنا الأليم.. حلما من أحلام اليقظة في دنيا الخيال والجمال . حقاً هذا عيب .. وعيب كبير.

ورد عليهم عزيزنا :

- لقد انتجت «الديكتاتور العظيم» لأني أكره الديكتاتورية والديكتاتوريين، ولأني أريد أن يضحك الناس منهم كما أضحك أنا . أن أشرك الناس فيما أحس به من دنيا الناس.

وجاء رد أصحاب الأبراج العاجية :

- حقاً هذا عيب، وعيب كبير .. وكبير جداً.

**

مثال واحد من هذا «العيب» الكبير .. والكبير جداً ، أسوقه إليك هنا عرضاً. في نهاية المشهد الأخير من الفيلم .. يفتح شارلي قلبه لكل الناس، ويوجه إليهم حديثه - من القلب إلى القلب - ليقول لهم أطول حديث ألقاه ممثل دفعة واحدة في كل تاريخ الفيلم الناطق..

قال شارلي :

«- متأسف .. لا أريد أن أكون امبراطوراً - ليس هذا شأني - فأنا لا أحب أن أحكم أحداً .. أو أهزم أحداً، بل أحب أن أساعد - على قدر المستطاع - كل إنسان ، أساعد كل الناس .. السود والبيض.

علينا جميعاً أن نساعد أحدنا الآخر .. هكذا هم الناس . نريد أن نحيا من السعادة ، لا أن نعيش على حساب بؤس الآخرين . لا نريد أن يكره أحدنا الآخر ويحتقره.

يوجد مكان كاف لكل فرد في هذا العالم، والأرض الطيبة غنية بما فيه الكفاية ، ويمكنها أن تكفي كل الناس، ومن الممكن أن يكون طريق الحياة حراً وجميلاً.

ولكننا قد ضللنا الطريق. سمم الطمع روح الرجال .. وطوق الدنيا بالكراهية .. وقادنا إلى الشقاء وإراقة الدماء.

لقد أوجدنا السرعة في كل شئ وأسرعنا كثيراً - لكن أغلقنا الباب على أنفسنا.

من الممكن لآلات المصانع أن تمنحنا الكثير .. لكنها تركتنا نهباً للحاجة والعوز.

لقد نجح العلم ونجحت المعرفة في أن تخلق منا خبثاء، وأوصلنا ذكاؤنا إلى قسوة القلب وغلظته .. وباعدت بيننا وبين الشفقة والرحمة.

إننا نفكر كثيراً جداً .. ولا نحس إطلاقاً.

إننا في حاجة إلى الإنسانية والحنان .. قبل حاجتنا إلى الآلات الميكانيكية، ونحن في حاجة إلى الشفقة وإلى الرحمة وإلى التهذيب وإلى الكياسة .. أكثر من حاجتنا إلى الذكاء وسعة العقل.

وإلا .. فستظل الحياة جافة قاسية موحشة، وسنخسر كل شئ.

لقد قربتنا الطائرة والراديو بعضنا من بعض، وطبيعة هذه المخترعات الأصلية تنطق بطيبة الإنسان وبحسن نواياه، وتنادي هذه المخترعات بالأخوة المتبادلة بين كل أفراد الدنيا .. وباتحادنا جميعاً.

وحتى الآن .. يصل صوتي إلى الملايين في كل مكان .. الملايين من الرجال والنساء والأطفال .. الملايين من ضحايا النظام الديكتاتوري الذي يعذب ويسجن المخلوقات البريئة..

إلى كل من يسمعني الآن أقول : لا تيأسوا .. ما البؤس الذي يخيم علينا إلا علامة انقشاع الطمع وانتهاء عهد الشره، ما هو إلا مرارة الرجال الخائفين من تقدم الإنسانية.

سيزول حقد الناس، وسيموت الديكتاتوريون، والقوة التي سلبوا الشعب إياها .. ستعود إلى الشعب .. وطالما يموت الرجال .. لن تفقد الحرية أبداً.

أيها الجنود .. لا تسلموا أنفسكم إلى الأوغاد الوحوش .. الحكام الذين يحتقرونكم ويستعبدونكم ، والذين يجندون أرواحكم ويأمرونكم بما تفعلون وبما تفكرون وبما تحسون ، الذين يدربونكم ويغذونكم ، ويعاملونكم بما يعامل به قطيع من الماشية .. ويغذون بأجسامكم المدافع. لا تستلموا لهؤلاء الناس الشواذ أبداً .. هؤلاء الآلات الصماء. هؤلاء الذين يفكرون بأدمغة كالآلة .. ويحسون بقلوب كالآلات تماماً .. لستم آلات ميكانيكية .. لستم قطعاناً من الماشية. أنتم رجال .. إن حب الإنسانية في قلوبكم - أنتم لا تكرهون البشر.

إن الشواذ والمكروهين وحدهم هم القادرون على كراهية الناس.

أيها الجنود ..

لا تحاربوا من أجل الاستعباد .. حاربوا من أجل الحرية .. «إن مملكة الله قلب الإنسان» كما ورد في إنجيل القديس لوقا.

نعم إنها في قلب الإنسان ، لا في قلب رجل واحد فقط، ولا في قلب جماعة من الرجال، إنها في قلب الإنسان .. في قلوب كل الناس، أنتم الناس أصحاب القدرة على خلق الآلات، القدرة علي خلق السعادة، أنتم الناس القادرون علي جعل هذه الحياة حرة وجميلة .. فلتجعلوا هذه الحياة مغامرة بديعة.

من أجل ذلك فلنستعمل باسم الديمقراطية هذه القدرة .. دعونا نتحد جميعاً، دعونا نحارب ونكافح من أجل عالم جديد .. عالم مهذب محترم يعطي الرجال فرصة كي يعملوا ، ويعطي الشباب مستقبلاً، ويعطي العجائز تأميناً وضماناً إجتماعياً.

لقد وعد الأوغاد الوحوش من الحكام شعوبهم بمثل هذه الوعود ليصلوا إلى الحكم، لكن كذبوا على شعوبهم ولم يحققوا ما وعدوا به .. ولن يحققوه أبداً. يحرر الديكتاتوريون .. ولكنهم يستعبدون الشعوب.

والآن ..

فلنحارب لنحقق هذه الوعود، فلنحارب لنحرر العالم . فلنترك الحدود الوطنية الضيقة، ولنترك جانباً - الطمع والشره والكراهية والحقد. فلنحارب من أجل عالم معقول حكيم، عالم يتضافر فيه العلم والتقدم لإسعاد الناس.

أيها الجنود ..

فلنتحد باسم الديمقراطية ..».

لقد ترجمت لك نص ما قاله شارلي في نهاية فيلمه «الديكتاتور العظيم» وحاولت ما وسعني - على قدر طاقتي - أن أنقله إليك نقلا يكاد يكون حرفياً. آمل أن أكون قد أفلحت في نقل صورته الأدبية إليك ولو بعض الفلاح .. علي ما بين اللغة الإنجليزية - التي أنقل منها - وبين لغتنا من بعد .. وعلي ما بين شارلي - الذي - أنقل عنه - وبيني من بعد كذلك .. والقياس مع الفارق بطبيعة الحال ..

وهذا الحوار أو النداء الذي قاله، ودفعت بترجمته إليك .. هو مثل واحد من «العيوب الكبيرة .. والكبيرة جداً» التي عابها على شارلي السادة الجهابذة أصحاب نظرية الفن للفن - لا الفن للحياة - من أصحاب الأبراج العاجية مراهقي الفن ونقاده ..

ونعم هذه «العيوب» يا أخي.

رأت صحافة أمريكا الفيلم، ووقف جانب كبير منها ضد شارلي ..وضد الفيلم المعادي للديكتاتورية.

وذلك لأن هذا الجانب الكبير من صحافة أمريكا الاحتكارية كان يسير في فلك الديكتاتورية

النازية والفاشية – ويسبح باسم هيتلر وموسوليني مع كل عدد يصدره من جرائد، ويتبادل معهما في كل صفحة من هذه الأعداد قبلات الحب والغرام والهيام .. ومع كل قبلة باقة من الورود مغلفة من الخارج بأوراق السلوفان الشفافة .. علي حسب ما جرت به العادة الأمريكية، ومغلفة من الداخل بالأوراق المالية الهفهافة .. كالعادة الأمريكية أيضاً، للتغليف المزدوج.

ولكن ..

كان «الديكتاتور العظيم» عظيما حقا، مذهلاً في عظمته إن شئت الحق أكثر، لذلك ثبت ضد هجومهم المرتب المبيت .. فقاوم النازية والفاشية الأمريكية بقوة الضحك والسخرية المشبع بهما، وبقوة الصدق المر والحقيقة المؤلمة النابعين من كل مشاهدة. لقد قاوم حتى انتصر..

وزاد انتصاره .. عندما ضربت الديكتاتورية اليابانية ميناء «بيرل هاربر» الأمريكية .. لم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد حين ضربتها اليابان – حليفة الديكتاتورية الألمانية الإيطالية. هذا الضرب المبرح المهين ، الذي مازالت آثار كدماته التاريخية مطبوعة علي خدود وحدات الأسطول الأمريكي الهاجع للراحة والاستجمام من عناء هذا الضرب في قاع الميناء المضروب .. حتى كتابة هذه السطور . كان لابد للديكتاتورية اليابانية من صفع الأسطول الأمريكي علي قفاه ليصرخ ..

وصرخ الأسطول وبحارة الأسطول.

وسمعت واشنجطن الصراخ في بيرل هاربور، فصرخت واشنجطن.

وعندئذ فقط وحينئذ فقط، استيقظ الضمير الدولاري.

تحرك من سباته العميق المجمد، وهب مذعوراً خائفاً وجلاً مرتعداً، وتثاءب كثيراً ثم تثاءب كثيراً، وقام من سريره ليفتح باب خزانته بجوار السرير، وراجع أرقام دولاراته من أرصدة العملة السهلة والعملة الصعبة والعملات ما بين الصعبة والسهلة .. مما غنم من هذه الحرب العالمية اثانية على سبيل الإعارة والتأجير وما هو أربح من الإعارة والتأجير ..

واطمأن الضمير الدولاري من مراجعته أرصدته هذه.

وهنا فقط، والآن، أغلق باب خزانته وقد استرد شجاعته وذهب عنه ذعره وخوفه ووجله وارتعاده، ثم وضع مفتاح الخزانة في جيبه، ثم فتح الشباك فأطل منه، ثم سمع جلياً صراخ الأسطول وبحارة الأسطول في بيرل هاربور، ثم صرخ هو الآخر .. باسم الديمقراطية الأمريكية..

وصح النوم .. ياهذه الديمقراطية.

أسرعت التعليمات العليا تشق طريقها إلى أذن الصحافة الأمريكية لتصرخ بدورها، وصرخت

عندئذ فقط .. حينئذ فقط :

- لتسقط الديكتاتورية .. ليسقط الديكتاتور ..

وابتسم عزيزنا الرجل الضئيل الجسم صاحب الشارب الأسود الصغير تحت أنفه، المفكر المثالي الذي قام بدور «الديكتاتور العظيم». . وكان عظيماً جداً.

وضايقت ابتسامته هذه الرجعية الأمريكية الديكتاتورية النزعة والفاشية التفكير، ولم تسلم - في أعماقها وبينها وبين نفسها - بانتصار عزيزنا شارلي.

ماذا تفعل ..؟

لقد كان عليه أن تهتف يومئذ مع الهاتفين إلى أن يحين الحين ، وهتفت الرجعية الأمريكية الديكتاتورية النزعة :

- لتسقط الديكتاتورية.

ثم ماذا تفعل بعد ذلك ..؟

إنها لم تسلم يومئذ بالهزيمة أمام شارلي ، وكان عليها أن تنتظر الوقت المناسب .. والفرصة المناسبة لتضرب ضربتها القاضية - أو التي تخالها قاضية - فتجهز على شارلي شابلن مرة واحدة، لتستريح منه ومن متاعبه ..

والمثل العليا والمبادئ الإنسانية وحقوق الإنسان عند الرجعية الأمريكية الديكتاتورية النزعة .. متاعب.

القتل بالجملة والقطاعي

إقتربت سنة ١٩٤١ من نهايتها.

وطلقات المدافع مازالت تدوي تحصد مع دويها أرواح الجنود المحاربين في مختلف ميادين القتال.. عبر جبهات الحرب العالمية الثانية، وتحصد معها أرواح المدنيين المسالمين القابعين في مساكنهم المشغولين بحالهم .. لا يعرفون من الحرب إلا ما تمدهم به الجرائد وأفلام هوليود. وأنت قد تعرف قدر أخبار هذه الجرائد من الصدق والكذب، وقد لا تعرف قدر أفلام هوليود ومشاهدها من الكذب وحده..

وعلى كل حال، دوت طلقات المدافع إذن تقتل بعض الناس، وامتزجت مع دويها أجراس الكنائس تزغرد معلنةً ميلاداً جديداً وسنةً جديدةً .. من سنوات المسيحية السمحة المقدّسة للمحبة والسلام على الأرض، أرضنا هذه المخضبة بدماء الجثث .. وبغير دمائها من صديد وعفن ونتن .. وما هو أشد قذارة على النفس من هذا النتن والعفن والصديد.

إنها الحرب.

ومع طلقات المدافع هذه، وأجراس الكنائس هذه .. قال الناس للناس :

- كل عام وأنتم بخير ..

أي خير ..؟

ومع هؤلاء الناس، قال شارلي لزوجته بوليت :

- كل عام وأنت بخير ..

وأي خير أيضاً..؟

كان زواجهما الذي ذكرت لك بدايته قبلاً في سياق حديثنا معاً .. قد اقترب الآن من نهاية السنة التاسعة من عمره - وإن أردت الحق - فقد حقق لكل منهما شيئاً كثيراً من السعادة .. كما حقق لكل منهما شيئاً ليس بالقليل من الشقاء، شأنه في ذلك شأن كل زواج . ومع هذا، فقد علمت أن الزوج قال لزوجته .. كل عام وأنت بخير.

وبدأ هذا الخير يطرق باب الزوجية، ومعه طلب للطلاق..

وطلق شارلي شابلن بوليت جوادر في المكسيك سنة ١٩٤٢، بعد أن ضمن لها تعويضاً مالياً قدره ربع مليون دولار فقط ، وبعد أن حققت .. خلال الزواج - ثروة موفورة وشهرة فنية مدوية منذ

أظهرها معه .. وأمامها الآن أكثر من عقد للعمل في فيلم جديد .. وأكثر من عقد للعمل في زواج جديد.

**

تزوج شارلي وطلق ثلاث مرات، وهذا «الزواج والطلاق» المثلث هو بعض حياته الخاصة، وعلي الرغم من أن الحياة الخاصة هي حياة .. خاصة - أى تخص صاحبها وحده ولا تخص غيره - فقد استغلت الصحافة المعادية لشارلي الفرصة، وأخذت تخوض عميقاً وتبدل وتحور وتزور أدق دقائق حياته الخاصة هذه .. للدعاية المغرضة الموجهة ضده.

ولن أنهي عن خلق وآتي مثله .. فأخوض فيما خاضوا فيه أو أناقش ما ناقشوه، بل أحب أن أصل ما وقفت عنده من سيرة زواجه وطلاقه .. لأقول لك إنه خرج من طلاقه الأخير ليغرق في حب جديد، والمطلَّق - إن كنت لا تعلم - هو أكثر الناس تعرضاً للحب وللإصابة به وللغرق فيه .. حتى أذنيه.

لكل ذلك - ولغير ذلك - لم يقاوم عزيزنا شارلي أونا - وهذا هو اسمها - عندما التقى بها لأول مرة، وعندما رأت عيناه الشابتان - في الرابعة والخمسين من عمره المديد إلى ما شاء الله - وجهها النضر في الربيع الثامن عشر من سنها القض.

وعزيزتنا أونا ..

إبنة الكاتب الأمريكي الكبير أوجين أونيل. وعلي كثرة ما كتب وألف أونيل من كتب ناجحة، وعلي كثرة ما ألَّف من مسرحيات ناجحة فإن ابنته أونا هي أجمل ما ألّف طول حياته .. وأكثر كتبه ومسرحياته نجاحاً.

لذا ، قرأها شارلي ومن أول نظرة .. من الغلاف إلى الغلاف.

ثم أحس أنه في حاجة ملحة إلي معاودة القراءة مرة أخرى .. وقراءتها جيداً في تمهل وهدوء. إنها لون من الكتب النادرة .. التي قلما يقابلها الإنسان في حياته وقلما يفرغ من قراءتها أبداً، والتي تتجدد معانيها كل مرة بمعاودة القراءة.

وذات لحظة .. وجد شارلي نفسه في حاجة ملحة إلى الاحتفاظ بهذه النسخة الخطية الوحيدة من الكتاب النادر الوجود .. فكان الزواج قبل أن ينشر الكتاب على القراء.

وصبيحة الزواج، صرح عزيزنا لمن حوله :

- لم أكن سعيداً في حياتي كلها مثلما أنا الآن . يقولون أن الحياة تبدأ في الأربعين .. وهذا خطأ، إنها تبدأ في الخمسين .. حين يبدأ الاستمتاع الحق بالحياة وفهمها.

هذه قصة مرحة من واقع قصص الحياة والحب، وإليك أخرى لا تقل عنها مرحاً، وهي من واقع الحياة أيضاً ..

إتجه عزيزنا المرح - السعيد بحياته الجديدة - إلى باب داره ليخرج لأمر من أموره .. فإذا بفتاة صغيرة تتقدم إليه بمجرد رؤيتها له، وإذا بيدها تمتد إليه بغتة .. وبها مسدسها تصوبه إليه وتوشك أن تهم بإطلاقه.

لم يكن يعرفها إطلاقاً، ولم يرها قبل ذلك، ومع هذا هددته بالانتحار على عتبة داره .. ثم هددت بقتله. ولم تنتحر الفتاة ولم تقتله .. بل عادت من حيث أتت، من حيث يعلم الله ولا يعلم شارلي ..

ومرت شهور ..

وعادت الفتاة الصغيرة نفسها تطرق باب داره، ولم تغادرها هذه المرة إلا عندما حضر رجال البوليس، وحضر معهم رجال الصحافة .. وكانت الفضيحة المدبرة قد سبقتهم إلى الحضور. ولم تكتف هذه الفضيحة بالذهاب إلى دار الشرطة .. بل مرت في طريقها بدور الصحف بطبيعة الحال - على حسب الخطة المنظمة - حتى يتم لها الذيوع والانتشار المقصود منها. ثم أكملت مسيرها إلى المحكمة.

وفي المحكمة .. قالت الفتاة الصغيرة إنها حامل، وإن جنينها في الشهر السادس ممن عمره، وإن الوالد الشرعي له هو :

- شارلي شابلن.

والفتاة الصغيرة ممثلة ناشئة مغمورة .. عاطلة من الموهبة، إسمها جوان باري. ودور الصحف التي مرت بها الفضيحة هي ملك خاص - أو في حكم الملك الخاص - لملك الصحافة .. هيرست.

ساندت الرجعية - وصلبها من الديكتاتوريين - الحملة المدبرة هذه، وعادت العناوين الضخمة المثيرة فاحتلت الصفحات الأولى تنادي :

«شارلي وحش النساء المخادع».

«شابلن أب غير شرعي».

وتطورت القضية حتى أوصلوها إلى «مجلس المحلفين الفيدرالى» في لوس انجلوس، وطالبوا بأقصى العقوبة .. ثلاث وعشرين سنة في السجن لشارلي .. غير الغرامة والتعويض .. والإعتراف بالبنوة.

إستمرت هذه الفضائح الكيدية المدبرة ضده حتى قاسى منها الأمرين، وتعذب بحملة التشهير به لدى الرأي العام عذاباً لم يتعذبه في حياته المليئة بحملات التشهير به قبلاً، وربما لم يتعذبه

أبداً إنسان مظلوم أوقعه ظالموه بين يدي جلاديه ممن لا يرحمون.

ووضعت الفتاة الصغيرة طفلها ..

ولقد أثبت التحليل العلمي وأثبت الفحص الطبيعي الذي أجروه على دم شارلي وعلى دم الطفل .. عدم احتمال بنوته .. ومع ذلك حكموا بصحة انتساب الطفل إليه .. ولقد عارض شارلي في هذا الحكم الذي حكموا به عليه دون جدوى، ولقد انتصرت عليه الرجعية الديكتاتورية النزعة انتصاراً باهراً .. وإن لم يبهر عدوها الكبير.

لم يقلل هذا الانتصار البدائي للرجعية - ولا غيره من انتصاراتها - من تصميم شارلي على كفاحه المستمر خلال سنوات الحرب من أجل مبادئه .. من أجل الحرية.

ففي سنوات الحرب المعتمة هذه التي حاقت بعالمنا .. وقف شارلي في مقدمة الجانب التقدمي الذي طالب الحلفاء بفتح «الجبهة الثاني» .. للصمود في وجه الديكتاتورية المكتسحة، ولتخفيف عبء مهمة إيقاف تقدم الزحف الهتلري عن كاهل الاتحاد السوفيتي .. الذي كان - حتى ذاك الوقت - يعمل وحده منفرداً لإنقاذ العالم من تقدم هذا الزحف . كان لابد من فتح هذه الجبهة الثانية للحرب في أوروبا، فوجه شارلي - الممثل الذي يضحك العالم - خطابه المعروف إلى الرئيس روزفلت في ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٢، والذي يقول له فيه :

« .. فوق أرض الواقع في روسيا سيتقرر مصير الديمقراطية .. ستعيش الديمقراطية أو تموت ان مستقبل الأمم المتحدة بين أيدي الشيوعيين، ولو قدر أن تنهزم روسيا فستقع قارة آسيا كلها - وهي أكبر القارات وأغناها - تحت سيطرة النازي، وسيقع الشرق كله عملياً تحت نفوذ اليابان، وبذلك سيتحكم النازي في كل المواد الحربية تقريباً .. تلك المواد التي لا غنى عنها للعالم، وفي هذه الحالة .. أية فرصة ستبقى أمامنا إذن لنهزم هيتلر ..؟

نريد النصر في الربيع.

أيها العمال في المصانع، أيها الفلاحون في الحقول، أيها الجنود، أيها المواطنون في العالم كله .. اعملوا جميعاً وكافحوا من أجل هذا الغرض، ولتعمل واشنجطن ولتعمل لندن من أجل تحقيق هذا الحلم .. النصر في الربيع».

وفتحت أخيراً الجبهة الثانية.

وجاء فعلاً بدء النصر في الربيع، وتأكد في الصيف .. صيف ١٩٤٥، بعد أن دفع أهالي لندن مدينتهم تحت وابل غارات النازي الوحشية. كقسط أول لمقاولي الخراب هيتلر وعصابته، وبعد أن دفع الحلفاء ومعهم جنود آسيا وأفريقيا حياتهم في صحاري العلمين، وبعد أن دفعت مدينة ستالنجراد أرواحها ثمناً لدخول الحلفاء برلين، وبعد أن محيت من الوجود جزيرة ناجازاكي وأهلها

ومعها جزيرة هيروشيما وأهل هيروشيما في أقصى الشرق .. بمولد القنبلة الذرية الأمريكية رقم واحد.

وعلى كل ..

لم يدفع العالم في هذه الحرب العالمية الثانية كثيراً، وإليك حسابها الختامي بعد الديباجة :

دفع العالم من عمره ست سنوات فقط .. من الظلام والخراب والهلاك والجحيم .. والموت واحتمال الموت وتوقع الموت وانتظاره للجميع.

دفع العالم فيها بأكثر من سبعين مليون نسمة للقتال .. قتل وجرح وفقد وضاع منهم أكثر من ثلاثين مليوناً.

وعلى كل ، مبروك ..

لقد جاء النصر في الصيف عام ١٩٤٥ .

جاء يرافقه الكساد والعطلة والبطالة للجنود المسرحين، العائدين من ميادين القتل بالجملة والقطاعي.

قامت صفارات الأنذار بالأجازة.

وغادر اللون الأزرق مصابيح العالم، وانطلقت الأنوار التي سجنتها الغارات .. تزغرد في كل مكان.

غمرت هذه الأنوار المزغردة شارلي وزوجته أونا ومعهما الممثل والمخرج السينمائي المعروف أورسون ويلز. كانوا ثلاثتهم يتناولون طعام العشاء ذات ليلة .. وينقاشون الأفلام ودنيا الأفلام ويثرثرون في ذلك شأنهم شأن أهل السينما جميعاً، واقترح أورسون ويلز على شارلي رغبته في التعاون معاً لعمل فيلم تدور حواده حول موضوع .. قاتل النساء لاندرو ، وراقت الفكرة لشارلي كثيراً، ولكنه وجد – فيما بعد – إستحالة العمل مع أورسون ويلز..

ودفع شارلي ثمن هذا العشاء .. خمسة وعشرين ألفا من الدولارات، دفعها لأورسن ويلز ثمناً لفكرته هذه .. وهي مجرد اقتراحه عمل فيلم تدور حوادثه حول موضوع قاتل النساء لاندرو.

ثم تغير – بعد ذلك – إسم لاندرو ليصبح فردو ..

وتغير موضوع القصة أصلاً، وتغيرت وجهة النظر فيها لتصير وجهة نظر شارلي الإنسانية للأشياء والأحداث والناس .. في أعقاب الحرب الماضية، وليصير الموضوع حيوياً عائشاً يعالج ويناقش مشكلة وقته .. ما بعد الحرب، وزمن ما بعد الحرب، والكساد والعطلة والبطالة المخيمة

على الجنود المسرحين العائدين من الميادين .. بعد أن تعلموا القتل - أقصد علموهم القتل - وعودهم القتال.

وها هي ذي قصة الفيلم في كلمتين :

فردو .. رجل وديع مسالم يخشى على الفراشة الصغيرة من هبات النسيم، وهو رب أسرة .. وزوج صالح يتفانى في حب زوجته المشلولة المحتاجة لعنايته ولرعايته، وهو والد محب لأولاده يحيا من أجلهم حياته، وهو - عدا ما ذكرت لك - إنسان طيب رقيق يبحث عن العمل الشريف، الذي يجدّ في البحث عنه أمثاله من المواطنين الشرفاء من عامة الناس ..

ويوصله إدمانه بحثه هذا وإخفاقه في بحثه .. إلى البطالة..

وتطول به بطالته هذه حتى توصله بدورها - ليحيا ويحيا معه أبناؤه وتحيا معه زوجته المشلولة - إلى القتل وإلى احتراف القتل ، ولكن .. من يقتلهم فردو .. ؟

إنه يختار - بعد دراسة - العجائز من السيدات ممن يمتلكن بعض المال أو يمتلكن بعض الثروة .. فيوقعهن في حبائل غرامه حتي تلين قلوبهن، ومن ثمة يتفنن في إسعادهن بحبه الجارف وغرامه المشتعل، وفي نعيم هذه السعادة يتحين الفرصة المؤاتية لقتلهن في دعة، وفي رقة وشفقة ما بعدهما رقة أو شفقة ..

ويصل آخر سلسلة جرائمه الناعمة هذه التي حدثتك عنها .. إلى المحاكمة

وفي المحكمة .. يترافع فردو بنفسه.

هنا تتجلى ذروة فن شارلي شابلن في فيلمه كله، فيوضح للقضاء وللرأي العام كل فلسفاته في الحرب والسلام وما للحرب والسلام من قضايا ومن مشكلات .. كثر الأخذ والرد فيها بين فلاسفة الاجتماع ومفكري العصر، ممن يعنون بمبدأ الحرب .. إن كان يحق لي أن أدعي للحرب المبادئ، وممن يعنون بمبدأ السلام الطامعين فيه الحالمين به .. منذ عرف العالم الحرب وعرف معها الرغبة في السلام، خير المبادئ.

في مشهد المحاكمة - يسخر شارلي من مجرمي المجتمع الذي نعيش فيه .. ممن يعلمون الناس المسالمين كيف يقتلون، ثم يدفعون بالمسالمين هؤلاء إلى الحروب ليقتلوا، ثم يدفعون إلى هؤلاء القتلة الرتب والأوسمة والنياشين .. لأنهم عرفوا جيداً كيف قتلوا .. هذا القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد .. من الذي علم هؤلاء القتلة الأمجاد، ومن الذي دفع بهم إلى قتلهم المجيد هذا، ومن الذي أجزل لهم الرتب والأوسمة والنياشين على قتلهم الممجد هذا ..؟

لقد علموا فردو القتل ودفعوا به إليه ثم أجزلوا له المكافأة ومجدوه في ميدان الحرب، وها هو يستغل ما علموه وقد حرموه العمل الشريف .. كما حرموا عليه الضمان الاجتماعي والإعالة والإعانة عند التعطل.

ولقد علموه كيف يقتل .. فقتل ..

بدأ عرض «مسيو فيردو» في سنة ١٩٤٧

ووجه شارلي الدعوة إلي مؤتمر صحفي بمناسبة افتتاح الفيلم في مدينة نيويورك..

إستهل مؤتمره بابتسامته المعهودة .. ولم تلبث أن تنفست الصعداء من شفيته إحدى سخرياته، عندما وجه حديثه إلى الصحفيين من حوله مداعباً :

– هيا ابدءوا المجزرة..

وكانت مجزرة حقاً..

أتتصور كيف يتكالب النمل على العسل ..؟ وأتذكر ما سمعت عن قوارص الكلم ..؟

إن كنت لا تذكر .. فأنا أنقل إليك بعض هذه «القوارص» التي وجهها الصحفيون إلى شارلي وقد تكالبوا كالنمل عليه .. سأله خبيث من بينهم .. ومعظمهم خبثاء : لِمَ لم تتجنس حتى الآن بالجنسية الأمريكية تاج الجنسيات جميعاً ..؟

ورد شارلي وابتسامته تصاحب رده :

– أنا لا أحب التيجان .. ولم أطالب بهذا التاج ولن أطالب به أبداً، لأني أعتبر نفسي مواطناً عالمي الجنسية .. وكل جنسيات العالم جنسيتي.

وسأله عدو آخر – ومعظمهم من أعدائه – عن وضعه في أمريكا وعن موقفه من إقامته فيها، فأجابه شارلي في هدوء :

– إن إيراد أفلامي يأتيني من كل بلاد العالم، وكل ما تفعله حكومة أمريكا لي .. هو تحصيل الضرائب الباهظة على هذا الإيراد .. أنا هنا – في أمريكا – كالضيف الكريم الذي يدفع نفقات إقامته عند مضيفه، ثم يدفع له بعد ذلك أرباحاً مضاعفة لقاء هذه الضيافة عنده. لقد دفعت لأمريكا حتى الآن – ١٩٤٧ – أكثر من عشرة ملايين من الدولارات .. ضرائب.

واحتدت المجزرة أكثر، وسأله أحدهم عن رأيه في روسيا وفي الشيوعية وفي ستالين.

وأجاب شارلي على الفور دون اهتمام :

- لا أومن بتقسيم الناس أقساماً .. بناء على آرائهم ومعتقداتهم إن هذا يؤدى إلى الفاشية الديكتاتورية..

وجاء دور السؤال المكرر، المعاد ، القاسم المشترك الأعظم في كل استجواب وجه إلى شارلي في أمريكا .. منذ مولد الاتحاد السوفيتي :

- هل أنت شيوعي ؟

- أنا لا أنضم إلى أي حزب من الأحزاب السياسية .. ولا أشتغل بالسياسة.

وأخيراً .. سألوه عن موضوع الاجتماع نفسه «مسيو فردو» فأجاب :

- إن فردو قاتل، قاتل بالجملة. حاولت أن أبين في حالته عنواناً لمدينتنا وحضارتنا المعاصرة .. التي تحاول أن تجعل منا كلنا قتلة. أنا ضد العنف وأحاربه طوال عمري، وأعتقد أن القنبلة الذرية - وهي أبشع الأسلحة التي عرفتها الإنسانية - تكفي لنقدر مبلغ الفزع والخوف والرعب الذي سيصيبنا ويضاعف عدد المجانين بيننا.

إقترفت في «مسيو فردو» عدة جرائم دون أن ينالني أي عقاب .. حتى قبض البوليس عليّ واعترفت بجرائمي، ولما اتهمني وكيل النيابة بأني قاتل بالجملة.. أجبته بكل أدب واحترام: إن روح القتل تسيطر على عالمنا

ومرة أخرى ، بعد مرات سابقات ..

هاجمت الصحافة المعادية «مسيو فردو» .. قالت «الهيرالد ترينيون» :

- إن الضحك ينعدم في الفيلم ، كما أن الذوق الفني ينقصه، إن أفكار الفيلم تضطرب كاضطراب مؤلفه .. شارلي.

وقالت «الديلي نيوز»:

- حاول شارلي أن يمزج الضحك بالرعب، وحاول أن يسخر من القتل والقتلة، .. ولقد سخرنا نحن من محاولات شارلي.

ثم توالى الهجوم عنيفاً، واستمر طويلاً .. تقدم هذا الهجوم عدة جمعيات دينية قوية معارضة لشارلي، وحملت لواءه هيئة كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية.

وهنا .. شرعت «المقاطعة الاقتصادية» تظهر في الأفق .. حتى قوطع الفيلم تماماً في النهاية، ونجحت الحملة المدبرة للقضاء على سمعة الفيلم في أمريكا، ويكفيك أن تعلم أن «مسيو فردو» الإنتاج الضخم بطولة شارلي شابلن -والذي أنتجه في قرابة خمسة أعوام من العمل المرهق المتواصل - لم يعرض في الولايات المتحدة كلها أكثر من ألفي مرة فقط، على حين أن أي فيلم صغير عادي من أفلام «رعاة البقر» مما ينتج على وجه السرعة في خلال أسبوعين أو ثلاثة .. يعرض أكثر من إثنى عشر ألف مرة.

لم يكن الهجوم والمعارضة والمقاطعة الاقتصادية .. لم يكن كل أولئك موجهاً إلى فيلم «مسيو فردو» .. بل إلى صاحب الفيلم نفسه، ولم يكن الهجوم هذه المرة .. إلا بدء النهاية.

إن أفلام شارلي لا تلعب دور أفلام هوليود التي تعلن وتذيع في كل العالم حق أمريكا المكتسب.. في سوء معاملة الزنوج ببلادها ، كما تعلن وتذيع رضاء هؤلاد الزنوج بهذه المعاملة السيئة .. وكذلك تعلن حق أمريكا في قتل الهنود الحمر - السكان الأصليين لهذه البلاد -٠ وفرح هؤلاء الهنود الحمر بهذا القتل. ولابد أن أمريكا تستبيح لنفسها قتل الهنود الحمر .. للوقاية من الشيوعية الحمراء.

الحقيقة .. أن أفلام شارلي ترفض الانطواء تحت أعلام هوليود وتعليماتها وتوجيهاتها ، وأن شارلي يرفض أن يصبح سفيراً لأمريكا ودعايتها الكاذبة.

ولقد اتهمت «جنة النشاط المعادي لأمريكا» شارلي، ثم أخذت اللجنة في اتهام بعض فناني هوليود وفنييها من التقدميين .. إنهالت الاتهامات، وانهالت التصريحات .. و «الهستيريا القرمزية».

صرح أدولف مانجو ، الممثل العجوز :

- أنا أتهم بالشيوعية كل من خلت رءوسهم من الأفكار الموالية لأمريكا، ولابد من نفي كل هؤلاء إلي صحاري تكساس .. لابد لأمريكا من التسلح بكل طاقاتها ..

وأطاحت اللجنة - بشكل أو بآخر - ببعض كبار السينمائيين، كما قررت نفي الموسيقار الألماني الكبير المعارض للرجعية الفاشية «هانز إيسلر»..

ولم يصمت - شارلي كما فعل غيره من النعام البشري - بل أبرق إلى «بابلو بيكاسو» كبير رسامي العصر المقيم في باريس .. وسأله أن يجمع مؤتمراً من الفنانين الفرنسيين والعالميين للاحتجاج على هذا العنف الإجرامي في معاملة هانز إيسلر ، وأن يرسل بالاحتجاج إلى السفارة الأمريكية للعلم ..

واحتج على تصرفات أمريكا - المعادية للحرية الشخصية - الكاتب الكبير لويس أراجون، والممثل الفرنسي جان لوي بارو، وعميد المسرح لوي جوفيه، والرسام العالمي هنري ماتيس، والمؤلف الشاعر المخرج الفرنسي جان كوكتو .. وغيرهم جمهرة من قادة الفكر والثقافة العالمية.

وظهرت في أمريكا - مرة أخري - صحافة هيرست .. في الوقت المناسب.. وردت علي هذا الاحتجاج العالمي بقولها .. انها قد تسامحت كثيراً ومعها أمريكا - حكومة لا شعباً - مع أجنبي أقام على أرضهم خمساً وثلاثين سنة - تقصد شارلي طبعاً - وأنها قد عرفت عن هذا الأجنبي فساد الأخلاق وفساد الذوق خلال حربين عالميتين.

و«فساد الذوق والأخلاق خلال حربين عالميتين» عند صحافة هيرست هو مطالبة شارلي - دون شك - بحماية الديمقراطية والحرية، وهو أيضاً مطالبته بفتح «الجبهة الثانية» لإنقاذ العالم من الديكتاتورية..؟

لقد أصبحت أمريكا الآن - بدورها - بعد اندحار الديكتاتورية الأوربية .. معقل الديكتاتورية العالمية الجديدة رقم واحد .. رقم واحد وواحد مكرر أيضا، ولقد أصبح السيد رومان والسيد إيزنهاور .. الوارثين الشرعيين لتركة المأسوف على شبابهما : موسوليني وهيتلر.

هكذا رأت صحافة هيرست في شارلي، وهكذا ساندها البرلمان الأمريكي «الكونجرس» ففي مايو من سنة ١٩٤٧ طالب الشيخ الجمهوري السيناتور هاري كين بترحيل شارلي شابلن من الأراضي الأمريكية، واتهمه بالخياة للبلاد .. مادام قد طالب بالاحتجاج على نفي الموسيقار المعادي للديكتاتورية هانز ايسلر، ثم أدان هذا السيناتور شارل بالشيوعية مادام قد التمس من بابلو بيكاسو - الرسام العالمي - الاحتجاج على ذلك ، إذ أنه من المرجح أن يكون بابلو بيكاسو .. شيوعياً، أيضاً.

ألم أقل لك أن «الهستيريا القرمزية» قد اجتاحت واشنجطن..؟

وأقول لك الان .. إن واشنجطن لم تتمكن من إدانة شارلي، على الرغم من هذه الهستيريا.

ومرت الأيام .. وأقبل عام ١٩٤٩ .

وعلم شارلي أن اللجنة الموقرة تفكر جدياً في استدعائه أمامها للتحقيق معه، فأبرق إلي بارتل تومسا رئيس اللجنة يخبره بما نمى إلى علمه، وبأنه من المحتمل أن تود اللجنة سؤاله عما إذا كان هو الآخر .. شيوعياً ، وبما أنه يعلم سلفاً أن اللجنة تتوق إلى معرفة جوابه فهو يخبره به من الآن:
- لست شيوعياً، ولكني صانع سلام.

**

إعتزل شارلي كل شئ إلا فكره..

وقاده سجنه المختار هذا إلى موضوع فيلمه القادم .. «أضواء المسرح» الذي عالج فيه - من جديد - نظريته الفنية في مزج الملهاة المضحكة بالمأساة المبكية .. إبكاء الجماهير وهي تضحك.. أو إضحاكها من خلال الدموع. وما كان له غير المزج بين النقيضين، والجمع بين الشتيتين في صعيد واحد.. وهو في مثل هذه الفترة الصعبة من حياته الشاقة، التي يعيشها هو نفسه وكأنه يحياها في مأساة .. مضحكة أكثر منها مبكية أؤ مضحكة ومبكية معاً .. وأي ضحك هذا الذي تريده في بلد قد يُعدُّ بوليسه السياسي استعمال الحبر الأحمر .. لوناً من التعاون مع الأعداء الألداء،

والتأييد لسياستهم الحمراء.. ثم أي لون من الضحك هذا الذي تتوقعه منه في بلد قد تصدر حكومته أوامرها المشددة إلى قسم البساتين بالبلديات .. ليختفي من الحدائق العامة وردها الأحمر.. باسم القانون؟

الحق أنها مأساة مضحكة مغرقة في الإضحاك..

وما المرارة التي نضج بها فيلم شارلي الأخير «مسيو فردو» إلا مقدمة هذه المأساة المضحكة وافتتاحيتها، وما اختفاء الضحك بالكثير اللاهي العابث من «مسيو فردو» كما قد لاحظت .. إلا بعض هذه المقدمة وجزء من هذه الافتتاحية.

ولن تجد سر المزج بين العنصرين المتناقضين – الأسى والضحك – إلا عند شارلي ، عزيزنا العارف بأعماق النفس البشرية المعاصرة التي تصطرع فيها متناقضات حضارة القرن العشرين .. قرن المتناقضات .. وما شارلي شابلن إلا ابن عصره المتفاني في زمنه .. الممثل له والمعبر عنه. إنه كما سبق أن قلت لك قبلاً: نتاج صادق لمجتمعه. .

وهذا بعض عبقريته.

وهاك جانباً اخر من عبقريته المتكاثرة الجوانب :

إيمانه بتزاوج الضحكات والدموع .. من أجل إسعاد البشرية، وعلاج الخوف والرعب والحقد والضغينة ونزعات القسوة والعنف وحب السيطرة .. وبقية السموم النفسية التي تبثها وتروج لها الأفلام السوداء – الأفلام البوليسية وأفلام الجريمة والذعر وأفلام الحرب والضرب – التي تتزعم وتقود هوليود إصدارها إلى الجماهير في كل أنحاء العالم. إن هذه الأفلام السوداء تنعي في الجماهير نزعاتها البدائية الغريزية .. التي تردنا إلي الغابات وعصور ما قبل التاريخ وعصور فجر التاريخ. إنها تردنا إلي الرغبة الحيوانية البدائية في الاسطراع والتقاتل والمحاربة من أجل الحياة .. بدل التعاون من أجلها .. إن إيمان شارلي بالتعاون بين الناس من أجل الحياة .. هو الذي يوجه أفلامه كلها إلى أسلوبها العالمي المعروف بالتفاهم والإشفاق والمسادنة والمعاضدة .. للقضاء على روح الجريمة وروح البدائية الغريزية عند الجماهير .. وعبقرية شارلي تستمد كيانها من عقيدته ..

وعقيدته الواضحة في أفلامه .. هي التسامح والتضحية والحب والرحمة والشفقة والمودة بين البشر ، والرأي عنده :

– إننا قد نستطيع إنقاذ العالم من كارثة محققة لو تمكنا أن نتبادل – على نطاق عالمي واسع ومستمر – أفلاماً إنسانية خالية من الدعايات المثيرة، ولو أمكنا أن نتكلم في هذه الأفلام ببساطة..

عن الناس البسطاء ..

والمثل الواضح لما وصل إليه شارلي - في هذا المجال - هو فيلمه «أضواء المسرح» حيث ضمنه خلاصة تجربته الإنسانية، وكلها نفحات من صميم روح المسيحية السمحة.. التي تتناساها حكومة واشنجطن المعارضة له والمفروض فيها أنها حكومة مسيحية. هذه الحكومة المسيحية - فرضاً - التي ترسل جنودها للحروب .. يتقدمهم الصليب، هذا الرمز المقدس الذي صلب عليه السيد المسيح عليه السلام .. من أجل السلام.

إن عقيدة شارلي الواضحة في أفلامه هي .. التسامح والتضحية والحب والرحمة والشفقة والمودة بين البشر .. وهي من نفحات الدعوة المسيحية السمحة، وهي التي لا ترتضيها حكومة واشنجطن في الوقت نفسه ..؟

ولقد كانت دعوة السيد المسيح هي الدعوة الخالدة الأولى في تاريخ البشرية .. من أجل السلام.

لكن ، مسيحية حكومة واشنجطن شئ .. ومسيحية السيد المسيح عليه السلام شئ آخر.

ولقد كانت دعوة شارلي شابلن هي الدعوة الأولى في تاريخ السينما .. من أجل السلام .. لكن السلام عند حكومة واشنجطن شئ .. والسلام عند شارلي شئ آخر، إنه السلام من أجل السلام، لا السلام من أجل الحرب.

**

إن قصص الأفلام يشوهها التلخيص، وقصص أفلام شارلي يقتلها هذا التلخيص، إنها لا تكتب ولا تلخص كتابتها .. إنها ترى.

ومع هذا .. إليك ملخص «أضواء المسرح»:

تقع حوادثها في لندن ، وتتناول حياة فنان من مضحكي المسرح الغنائى - شارلي - الذي فقد شهرته ومجده وأيامه .. وكاد يتقاعد منعزلاً عن المسرح وعن .. أضواء المسرح .. في وسط بؤسه هذا يلتقي بشابة من راقصات «الباليه» المبتدئات - كلير بلوم - تحاول الانتحار لفقدها ثقتها بالحياة بعد أن شلت ساقاها..

وينقذها من الانتحار، ويعيد إليها الثقة بالحياة وبالأحياء، ويعيد إلى روحها خلاصها من اليأس الأشد وطأة من الهلاك، ثم ينقذها من الشلل .. لتعود إلى مزاولة حياتها في رقص الباليه..

وتعرض الشابة على فناننا العجوز الفقير - الإنسان - رغبتها في الزواج منه. وعلى الرغم من

إحساسه بحبها وبمكانة هذا الحب عنده، وعلى الرغم من قوة ارتباطه بها وارتباطها به، وعلى الرغم من شدة رغبتها .. التي عرضتها عليه، يرفض هذا الهناء .. في حزن عميق صامت صمت القبر الذي يسمع نداءه في أعماقه.. وقد أدرك شيخوخته أو قارب إدراكها .. ثم تراه يغادر صمته ليخبرها أن صديقها الموسيقي الشاب - سيدني شابلن ابن شارلي - الذي تعرفت إليه أخيراً .. هو أجدر الناس بِحبها ، وهو أقدر الناس على إسعادها بحبه، وهو أجدر منه وأحق بهذا الهناء.

ويختفي من حياتها.

ليعود إلى حياته .. إلى أصدقاء سنه، ورفقاء نهاية عمره، وزملاء فشله من الموسيقيين البعيدين عن النجاح .. وعن الشهرة والأضواء. يعود إلى جماعته يجول معها في الطرقات يملؤها بموسيقاه، وبفنه الشعبي المتواضع الساذج الذي لم يجد النجاح إليه طريقه، ولم تُضْفِ عليه الشهرة شيئاً من رونقها وروائها، ولم تلقه أضواء المسرح بثوبها الباهر الذي يسترعي الأنظار.

ويكتفي شارلي - أقصد فناننا المغمور - بأضواء الشارع .. للحصول على لقمة العيش..

وهنا ..

تحاول شابتنا راقصة الباليه - وقد وصلت إلى قمة نجاحها حينئذ - أن تعيده إلى المسرح ، وأن تتيح له الفرصة للنجاح، يقبل عرضها مرغماً وينجح حقاً، ثم يلاحقه سوء حظه عندما يسقط عرضاً ربان نجاحه من فوق خشبة المسرح وفي ركن من جانب المسرح الخلفي وسط الظلام يحتضر على حين ترقص أمامه الشابة التي أنقذ حياتها يوماً من قبل .. ترقص في أضواء المسرح.

ويموت العجوز .. وتستمر الحياة الشابة النامية في رقصتها.

وهـأنت ترى موجزاً مبتوراً مقتضباً للقصة وموضوعها، ومع ما قرأت من هذا الإيجاز والبتر والاقتضاب .. فانت ولا شك تلمس بعض ما في جوهر القصة، وبعض ما في إنسانيتها العميقة الصافية الخالية من الدعايات المثيرة. وإذا ما رأيت الفيلم - إن كنت بعد لم تره - وجدته يكلم قلوبنا في بساطة متناهية عن ناس بسطاء، ويحمل إلينا قبساً من نور روح طيب من التفاهم والإشفاق والرحمة والمودة بين الناس .. في وقت نحن فيه في أمَسِ حاجة إلى شئ من التفاهم والإشفاق والرحمة والمودة بين الناس، وبين الناس وحكوماتهم، وبين هذه الحكومات وغيرها من الحكومات..

لاسيما بين حكومة واشنجطن وغيرها من الحكومات.

كانت حكومة واشنجطن قد صممت على موقفها الذي عرفته من شارلي ..

ورأى أن لا أمل في عرض لائق بفيلمه الذي فرغ من إعداده، وهذا هو موقفها منه ومن رسالته ووجهة نظره .. تتربص به الفرصة السانحة للانقضاض عليه وعلى فيلمه. ورأى شارلي أن لا أمل في نجاح لائق بفيلمه في أمريكا التي تضيق حكومتها عليه الخناق، وأن من المحتمل جداً - بل من المرجح جداً - أن تصادر الفيلم لتوها .. فتكون الكارثة.

لكل هذا ، إكتفى أول الأمر بعرضه عرضاً خاصاً في نيويورك ..

وعندما أوشك هذا العرض على نهايته .. دوت أكف الحاضرين بالتصفيق طويلاً، واستمر التصفيق للتحفة الرائعة روعة خالقها، لقد سمع شارلي التصفيق لنجاحه مرة أخرى، واستمع إلى التقدير والإعجاب به والثناء عليه مرة أخرى، وظل يسمع التصفيق ويستمع إلى التقدير والإعجاب والثناء مرات ومرا .. رأى مجده والخلود ذاته يحدثه ويرمقه من بين كل الحاضرين ..

ومع ذلك..

ظل عزيزنا ينتظر دور العرض تتقدم إليه لعرض فيلمه، وهي التي كانت تهرع إليه فيما مضى دواماً، وهي التي كانت تتسابق وتتصارع من أجل الفوز بعرض أي من أفلامه السابقة. وانتظر ثم انتظر وطال انتظاره بلا جدوى.

لقد تغيرت الأمور كثيراً، وتعقدت كثيراً.

ثم تعقدت أكثر..

عندما أخذت شركة الفنانين المتحدين «يونايتد آرتستس» تفكر .. وأظنك لم تنس بعد أن شارلي يكاد يكون أول من فكر في إنشائها وتأسيسها .. مع زميليه الكبيرين دوجلاس فيربانكس الأب وماري بيكفورد. أخذت «شركته» هذه تفكر، وتفكر كثيراً، ثم تفكر أكثر، حتى زاد هذا التفكير ثم زاد .. وترددت في قبول «أضواء المسرح» لتوزيعه، وحتى أنت يا بروتس ..؟

لقد تجمعت العصابات ضده إذن، واتحدت الشركات كلها لتقف جميعاً موقفاً معارضاً له.

وفي النهاية ..

أعطى شارلي شابلن حقوق توزيع «أضواء المسرح» للشركة الصغيرة الجديدة .. التي قبلت - بعد لأي - توزيعه في أمريكا.

حقا، لقد تعقدت الأمور كثيراً، وتعاونت عليه الحملات الصحفية من جديد تتوالى متكالبة الحملة إثر الحملة .. لا ينتهي هجومها عليه إلا ليبدأ ثانية أكبر خطراً. ولقد قامت ثورات الشيوخ

في البرلمان الأمريكي هذا الكونجرس .. الذي يطالب ويلح في مطالبته لنفيه من البلاد. ولقد انتشر وباء هذه «الهستيريا القرمزية» .. أكثر مما كان قبل بين رجال الحكم في واشنجطن، فأقضت مضاجعهم اليوم .. أكثر من أي يوم مضى، وأتلفت منهم الأعصاب .. فلم يعودوا يجدون أمامهم إلا اللون الأحمر، والصبغة الحمراء .. تلون أمامهم كل ما يرى.

وشارلي شابلن لا يتوقف، ولا يتراجع ، ولا أمل في أن يتوقف أو يتراجع، لقد تعودت قدماه الصلبتان السير إلى الأمام. ..

لقد كان عليه حينئذ أن يوجه خطواتهما في سيرهما الدائب هذا إلى الأمام .. ليرحل من أمريكا.

عليه أن يرحل .. ولابد من السفر بعيداً عن هنا.

ووقف الشاب النضر الذي جاوز الستين من عمره - وعمره كله شباب - على أرضه الأمريكية .. وأرض أمريكا كلها أرضه ، وهي أرضك وأرضي وأرضنا جميعاً .. هي قطعة من عالمنا ونحن أصحابه وملاّكه .. نحن بشر واحد فوق هذه الأرض الواحدة .. أرضنا .. وقف عزيزنا وأولاده الصغار العزاز وعزيزته أونا أم أولاده .. ولم تكن أرض أمريكا تحت قدميه إلا قطعة منهما من لحم ودم وأعصاب .. تحس ما يحس ولا يكاد يفقتد إحساسها النطق والسمع والإبصار .. مثلها مثله تماماً ومثل أولاده وأم هؤلاء الأولاد. لقد أعطى هذه الأرض كل زهرات عمره الشاب، وكل ثماره الطيبة حين مسها ريح النضج .. فقدمها لأهل هذه الأرض عشرات من القصص روتها أفلامه.

هذه الأرض .. أرضه وأرض أولاده وأرض زوجته وأرض الناس . لا حدود تحد بعضها ليصبح بلداً، وتحد أرضاً غيرها فتصبح بلداً غير البلد .. وتجعل بين البلدين حداً فاصلاً.

لقد وطئت قدماه ظهر هذه الأرض لأول مرة منذ سنوات وسنوات بعيدة مضت، أربعون سنة مرت عليه فيها مليئة بالحياة والكفاح والنضال. وها هو ذا يقف عليها ساعتئذ وكأنه يراها أول ما يراها، وكأنه سيبدأ حياته لتوه فوقها لأول مرة. إنها أرضه وهو يحبها وحياته فيها أعز حياة، وناسها عنده أعز ناس .. وإن كانت معزة الناس عنده في غير حاجة إلى تفضيل وكل الناس ناسه.

ونظر شارلي إلى الناس من حوله .. وفي قلبه قبلة كبيرة كبرها السموات والأرض، يريد إشراك كل أهل أمريكا في قبلته هذه .. التي تحمل الود والصفاء والمحبة لأهله في ولاياتها .. ولأرضه في هذه الولايات.

ثم نظر إلى الأرض العالقة بقدميه، المتصلة بلحمه ودمه وأعصابه .. إنها قطعة واحدة لا تتجزأ منه، ولا تنفصل عن قطعة منه أخرى ترقد في جوفها .. أمه حبيبته في قبرها وقد أصبحت بعض

هذه الأرض .. وإن أتتها من أرض ثانية بعيدة عن هنا.

ووليده الصغير الذي مات ، يرقد هنا

وزوجته وأولاده جميعاً، ولدوا كلهم هنا..

وأصدقاء العمر وزملاء الحياة ورفقاء العمل، جميعهم هنا..

وأفلامه ، كل الأفلام هنا.. في أمريكا.

صدقني حين أخبرك أنه ما أحب أرضاً مثلما أحب هذه الأرض التي يقف عليها، وما أحب ناساً مثلما أحب ناسها . لكن شتان ما بين الأرض والناس .. وبين أفراد منهم قلة تحكم هذه الأرض ومن عليها وما عليها.

وصدقني حين أخبرك أنه لم يبك ساعة وداعه لأرضه، ولم ير الناس حوله دموعه تغرق عينيه، بل رأى الناس حوله بسمة ود وحب تغلفه وتغلفهم معه جميعاً واحداً واحداً .. ومعهم بقية الملايين في أرض أمريكا . ثم صدقني حين أخبرك أنه بكى في صمت .. وإن لم ير الناس دموعه.

ومع صمته هذا .. دوت صيحة مكتومة مع دقات قلبه :

- أريد البقاء هنا..

إنما عليه أن يرحل .. ولابد من السفر بعيداً عن هنا.

وحاول شارلي أن يقتلع قدميه من الأرض الواقف عليها، ولكن الأرض كانت قد دبت فيها الحياة والنماء .. فاتصلت عروقها بعروقه واتحدت دماؤها وأعصابها بدمائه وأعصابه ، ليصبح هو والأرض كلاهما عليه أن يحيا مع الآخر الحياة الأبدية .. حياة لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة، إنهما كتوأمي سيام .. جسدان متصلان لا تفصلهما بعضهما عن بعض أبداً أية قوة مهما قويت .. حتى الموت لا يقدر لهما على انفصال.

كتوأمي سيام..؟

لقد تمنى شارلي أن يصبح هو أحدهما، على أن يكون الاخر أمريكا .. شعباً لا حكومة.

وأغلب الظن أن الأرض الأمريكية والأمريكيين ممن كانوا حوله تمنوا جميعاً في الوقت نفسه.. الأمنية نفسها..

غير أن ..

حكومة واشنجطن يا صديقي شئ، وأمنية أمريكا وشعب أمريكا شيء آخر .. مخالف له ومضاد في الاتجاه.

لهذا وحده .. رحل الرجل الذي كان عليه أن يرحل، وكان لابد له من السفر بعيداً عن أرضه، التي أخذت في الابتعاد عنه مجبرة .. كما أخذ هو في الرحيل بعيداً عنها مجبراً كل هذا الجبر الذي فرضوه عليها فرضاً..

ولقد تمكن الجبروت الأمريكي، وتمكنت الدعاية الأمريكية الجبارة من تزوير الوقائع وتدليس الأحداث ، وتغيير الدوافع وتبرير الأسباب والمسوغات التي أدت إلى مأساة هذا الرجل الكبير .. الذي حدثتك عنه في هذا الكتاب العاجل .. وحدثتك عن مأساته في هذا الفصل المبتور من الكتاب الموجز . إلا أن الجبروت الأمريكي كله، والدعاية الأمريكية الجبارة كلها .. لم يتمكنا من حجب تمثال الحرية عن أنظار عزيزنا وهو يرحل بعيداً عن أرضه .. وإن تمكنا من حجب مأساته وحقيقتها عن أنظار بعض العالم .. داخل أمريكا وخارجها ..

«تمثال الحرية» ..

إن لشارلي معه ذكريات بعيدة المدى .. لا يمكن لهم - مهما كان جبروتهم ودعايتهم الجبارة - أن يقرروا أمرها مثلما قرروا أمره، إن بينهم ألفة وعشرة وصحابة وصداقة قديمة .. قدم عمره هو في هذه البلاد الغالية عليه. إن له على هذا التمثال دالة، وله عليه حق، وله عليه سلطان .. إنه تمثاله.

ونظر شارلي وهو يرحل مبتعداً عن تمثاله.

نظر إليه نظرة الإعجاب نفسها تلك التي قابله بها لأول مرة رآه فيها .. عندما هبط أرض وطنه الأمريكي منذ أربعين سنة مضت ، ثم دقق النظر - على الرغم من البعد المتزايد لحظة بعد لحظة - في شبح مشعله المرتفع يناطح السحاب في نبل ووقار وجلال، ورآه في مكانه مازال عالياً في السماء.

وما حدث في اللقاء الأول بينهما، حدث كذلك في هذا الوداع ..

إرتفع تمثال الحرية عالياً يخترق السحاب .. كل السحاب في كل السموات، ورآه شارلي وهو يرتفع حتى بدت مدينة نيويورك خلفه وناطحات سحابها وراءه .. كل أولئك بجواره كالأقزام ..

وارتفع وجيب قلب عزيزنا وأسرعت دقاته ، ونظر إلى تمثال الحرية مرة ومرة ومرة ثالثة، وكان

التمثال لا يكف عن استمراره في الارتفاع والعلو .. وكانت نيويورك وناطحات سحابها لا تكف عن الهبوط حتى لم يعد لها أي وجود بجواره .. وقد ملأ تمثال الحرية كل الفراغ في السماء وفي الأرض، وفي ماء المحيط يحف بالشاطئ .. حتى اقترب التمثال من شارلي الذي يبتعد راحلاً عن أمريكا ..

ولاصق التمثال العملاق .. الفنان العملاق والإنسان العملاق ..

وانحنى التمثال، ثم قبلت الحرية شارلي شابلن فوق الجبين.

فرسان الحرية والسلام

ليس الوجود كله أمريكا وحكومة أمريكا..

فهناك أوروبا ، وأفريقيا، وآسيا، واستراليا .. بل هناك غير أمريكا - بمعنى الولايات المتحدة - بقية أمريكا الشمالية .. وكل أمريكا الوسطى والجنوبية أيضاً.

عاد شارلي مهاجراً من الولايات المتحدة إلى أوروبا، واستقبله كل العالم في كل مكان حل به استقبال الغزاة المنتصرين .. ولقد كان غازياً حقاً للمثل العليا في بلد نسيت حكومته الإيمان بأصغر مبادىء هذه المثل، واستقبله كل العالم استقبال الفاتحين .. ولقد كان الفاتح المنتصر لدنيا جميلة حلوة ترفرف فوق جنباتها أعلام الحق والعدالة .. والحرية والسلام.

ولقد وقف عزيزنا طويلاً بجانب هذه الأعلام، ودافع عنها دفاعاً قوياً مجيداً باسلاً .. وصمد في دفاعه حتى آخر لحظة.

إن للحرية وللسلام دائماً أنبياءهما ورسلهما وروادهما عبر تاريخنا الطويل في كفاحنا من أجل نصرتهما، ولم تكن رسالات هؤلاء الأنبياء والرسل والرواد إلا من أجل حياة أفضل وأصلح للإنسان .. سواء أكانت تلك الحياة مادية أم كانت روحية ، ولم تكن رسالاتهم هذه إلا من أجل قضايا الحق والعدالة، ولم تكن إلا مثلاً عليا ودفاعاً باسلاً من أجل كيان هذه المثل ونصرتها ونشرها. كانوا جميعاً فرسان هذه المثل العليا.

وفي زمننا هذا الذي نحياه اليوم .. نجد شارلي شابلن بين هؤلاء الفرسان.

إن رغبته الجامحة التواقة إلى الحريات وتقديسها .. هي وحدها التي وضعته في صف واحد مع المعذبين في أرضنا ، مع الضائعين في الحياة، مع المشردين في الدنيا، مع المهضومين المجهدين المتعبين المكدودين في عصرنا الحديث هذا . وهي وحدها التي أجبرته على اتخاذ موقه المعروف الذي رأيته من أجل نصرة الطبقات السفلى - وهكذا هم يسمونها - طبقات العبيد من عمال الصناعات الأمريكية الكبري .. ممن يسحقهم ملوك الاحتكارات ، وممن يسلبونهم حقوقهم الإنسانية من حيث أنهم بشر. وفي مقدمة هذه الحقوق المغتصبة : الحرية والسلام.

لذلك ..

فتح العالم الحر حقاً - والناشد للحرية حقاً - ذراعيه ليستقبل فارس الحرية والسلام .. شارلي شابلن..

هجع الفارس المتعب واستكان إلى الإقامة في سويسرا ، وكان لابد له من قلعة أو قصر يأوي إليه كسائر الفرسان .. كما تحدثنا الأساطير، وعلى شاطىء البحيرة «لاك ليمان» وجد قصره..

فظن بعض الناس – وبعض الظن إثم – أنه قد عكف إلى الراحة والهدوء، وإلى الاستجمام من عناء الأعمال ، وإلى الاستجمام من عناء الحرية في أمريكا ..

وظن بعضهم أنه قد آن للشاب النضر عزيزنا الذي جاوز الستين من عمره الربيع .. أن يعترف بسنه، ويسلم نفسه لمطالب هذا السن .. وقالوا إن للسن أحكاماً ..

لكن بعض الناس قد رد على هؤلاء وأولئك وذكرهم بقولة شارلي التي قالها يوماً :

– أريد حياةً أكثر .. حياةً أكثر ..

ثم جاء القول الفيصل في الموضوع حين صرح شارلي للصحافة :

– لن أتوقف عن إنتاج الأفلام حتى أسقط ميتاً.

ولم يلبث الصحفيون أن رأوه يعمل في انجلترا. إنه يبدأ تصوير فيلمه الجديد .. في ظروف جد جديدة عليه. إنه يعمل لأول مرة خارج أمريكا .. وخارج الاستوديو الخاص به الذي أنتج وأخرج فيه كل أفلامه، إنه يعمل بعيداً عن زملائه ومعاونيه ومساعديه وفنييه .. الذين عمل معهم دائماً طوال عمره . وفي هذا الجو الجديد عليه، البعيد عما عرف وألف من أجواء .. أخذ ينتج ويخرج ويمثل فيه الأخير «ملك في نيويورك».

ومع الشهور الأولى من سنة ١٩٥٧ قدم شارلي فيلمه هذا للعرض الأول في المكسيك، ولقد سافر مندوبو الرقابة الأمريكية على الأفلام إلى هناك لمشاهدة الفيلم، ولينتهو إلى رفض عرضه في الولايات المتحدة .. بالاختصار ..

ولقد كان رجال «ماكارثي» بين مندوبي الرقابة.

ماكارثي ..

الرهيب الذي يسيطر على الجهاز البوليس الأمريكي المهيمن على سجون الحرية .. في بلاد الحرية ..

والمكارثية – نسبة إلى الرجل الرهيب – هي دين الدولة الرسمي في الولايات المتحدة، وهي تجدد أغلالها كل يوم مرتين .. مع شروق الشمس وغروبها .. حتى تقدر على سجن كل فرسان الحرية الذين أورثوا واشنجطن ورجالها الرسميين كل هذا الفزع الجاثم فوق صدورهم. والمكارثية – بعد هذا – هي المسئولة عن «الهستيريا القرمزية» التي تلون وجهة نظر هؤلاء المسئولين الرسميين إلى الناس وتصرفاتهم..

ولقد ظن السذج وضعاف العقول أن هذا الإرهاب البوليس قد انتهى بموت ماكارثي في أوائل العام الماضي ١٩٥٧، وأنه بموت زعيم الإرهاب ستعود أزهار الحرية الديمقراطية إلى النمو ثانية في أرض الولايات المتحدة، وأن واشنجطن لن تجدد أغلالها كل يوم مرتين .. لتزج بمحبي الحرية والسلام في المعتقلات والسجون، ولتشردهم في الأرض، ولتحاول اضطهادهم أينما ذهبوا . لكن اتضح لهؤلاء السذج وضعاف العقول :أن ماكارثي يوجه لجانه الإرهابية ومحاكماته التعسفية بوساطة أعوانه وتلامذته ومريديه من خلف ظلام قبره، واتضح لهم أيضاً أنه يوجههم ميتاً أكثر منه حياً..

إن ظلام قبره يلائم سياسته أكثر.

وهكذا انتهي مندوبو الرقابة الأمريكية على الأفلام إلى رفض عرض فيلم شارلي الأخير «ملك في نيويورك» ورجال ماكارثي فوق رءوسهم .. يوجهون سياستهم في كل كبيرة وصغيرة..

الحق أن «ملك في نيويورك» لا يعرض حالياً في أمريكا ..

والحق كذلك .. أن «الديكتاتور العظيم» لم يعرض زمناً في ألمانيا، ولكن تغير الزمن بعد ذلك فدالت ديكتاتورية النازية الهيتلرية .. وعرض «الديكتاتور العظيم» في ألمانيا وقد انقشعت الغمة.

ولسوف يتغير الزمن ويعرض «ملك في نيويورك» .. في نيويورك فللديكتاتوريات دائماً النهاية نفسها..

**

لم يعرض الفيلم بعد في مصر فأقدم لك الفيلم وقصته..

ولكن مرجعي في ذلك هو عدد أخير من مجلة «نيوزويك» الأمريكية – ٩ سبتمبر ١٩٥٧ – وفي هذا العدد يرثي ناقد المجلة الفني الفيلم وصاحبه، ويعجب كيف يحق لشارلي .. وكيف يجرؤ شارلي الذي نفي نفسه بنفسه من جنة الله في أرضه – وهكذا يرى الناقد – يجرؤ على السخرية من أمريكا . ثم يلخص الناقد قصة الفيلم لقرائه .. كما يحلو له.

وإليك تلخيص هذا التلخيص :

يقوم شارلي بدور ملك يهرب لاجئاً إلى نيويورك ، هارباً من بلده إليها .. ومعه ثروته، بعد أن أغضب أهل مملكته .. وقد رفضت بتزويد البلد بقنبلة ذرية . وفي نيويورك .. سرعان ما يسرق أحد رعاياه ثروته هذه التي جاء بها .. ويهرب، بينما يقدم المختصون في أمريكا شارلي إلى المحاكمة من أجل ثروته .. التي أصبح لا وجود لها الآن، ومن أجل الدم الملكي الذي يجرى في عروقه ..

وتتطور قصة الفيلم وأحداثه .. إلى أن تصل إلى المسئولين الرسميين الذين يتهمون شارلي – الملك السابق– بالحمرة .. أي بالشيوعية ..

وهنا .. وقد بلغت القصة هذه الذروة ..

يسخر الفيلم سخرياته الكبرى من جهاز الحكم البوليسي الديكتاتوري النزعة، الذي يسيطر على أمريكا والمسئولين الرسميين من الأمريكان .. فيورثهم مرض «الهيستريا القرمزية» التي قادتهم إلى الخبل حتى حد الجنون.

وفي النهاية .. يقرر شارلي الهرب من الجحيم الأمريكي ليعود ثانية إلى أوربا، ويطير عائداً إليها .. وقد رضى من الغنيمة بالإياب.

لقد أثار هذا الفيلم نقاشاً حاداً في جميع الأوساط والهيئات أينما عرض .. للموضوع المثير الذي تناوله من ناحية، ولموقف شارلي من أمريكا التي تناولها في موضوعه هذا من ناحية أخرى .. ولأهمية مشكلته المعالجة التي تهم الرأي العام في كل مكان تصل إليه اليوم أخبار أمريكا .. وأفعالها..

تحير النقاد الفنيون ممن تناولوا الفيلم بالبحث والتنقيب .. وتحير معهم من قرأ لهم أبحاثهم وتنقيبهم ممن لم يروا الفيلم. أيحكمون له ..

أم عليه .. ؟

وها أنا أتركك أنت الآخر في لون من ألوان هذه الحيرة .. التي سبق أن تركني فيها هؤلاء النقاد الفنيون .. ممن قرأت أنا لهم ما بحثوا فيه وما نقبوا عنه .. لنترك الفيلم معاً حتى تراه أنت وأراه أنا ، وحتى نحكم معاً له أو عليه.

وحتى نلتقي ..

«ملك في نيويورك» هو الفيلم الأول .. بعد الثمانين لشارلي شابلن، وهو أيضاً فيلمه الأول .. بعد مغادرته للولايات المتحدة، قام بتأليفه وإخراجه وإنتاجه وتمثيله .. بعد خمس سنوات من

العمل المتواصل في أوروبا عقب مغادرته لأمريكا.

وأظنك لست في حاجة إلى أكثر من هذا .. إلا أن تعرف ما استقرت عليه حياة شارلي في أوربا، وقد عرفت بالتفصيل ما استقرت عليه حياته قبلاً في أمريكا، فلك على ذلك كل الحق على لأصل لك ما وقفنا عنده منها .. فإن حياة شارلي الفنان هي كما علمت جزء من حياته بوصفه إنساناً ، والعجيب فيها أن لها نهاية أفلامه نفسها .. وكأنها بعض هذه الأفلام.

**

لقد عرفت ما كان من أمر لقائه بأونا أونيل، وما كان من أمر زواجه منها..

بقى أن تعرف أنه أنجب من هذا الزواج المبارك خمسة أطفال .. وما شاء الله، وبقى أن تعرف من أمر أطفاله هؤلاء أنهم رزقوا هم وأبوهم طفلة سادسة .. جاءت إلى دنياهم الجنة تصرخ في نهاية ربيع ١٩٥٧ - وما شاء الله مرة أخرى.

ولقد سعد عزيزنا بصراخ وليدته هذه ، وضحك وهو يستمع إلى موسيقى هذا الصراخ الحلو المحبب إلى قلبه .. هذه الشطرة السادسة من القصيدة الإنسانية الطويلة .. التي كتبها شارلي شابلن وأونا أونيل.. معاً ..

وشارلي يداوم قراءة هذه الشعر وكتابته بانتظام .. في الثامنة والستين من عمره الشاب..

نعم، ضحك عزيزنا المحب للشعر وهو يستمع إلى صراخ ابنته الحلوة الحديثة الولادة، ومع ضحكاته قال مداعباً من حوله :

- كان من الواجب علي أن أخجل من نفسي .. وأنا أنجب طفلةً جديدةً في مثل سني.

ولم يكن يداعب من حوله فقط، لقد كان يداعب نفسه أيضاً .. ويداعب زوجته الحسناء التي لم تتعد بعد الثانية والثلاثين .. ولم تقل مداعبته لها عن مداعبتها له، وهي التي قالت عنه :

- إن إنجاب الأطفال منه عملية من أسعد العمليات..

ورأى شارلي في زوجته هذه ما زال هو رأيه نفسه فيها .. بعدأربعة عشر عاماً من الزواج ، حين قال عنها :

- إن في أصابعها من الحكمة ما لم أصل إليه أنا في عمري كله، أكبرها بستة وثلاثين عاماً ..

ولكن نضجها يجعلني ألمس فجاجتي..

وبعد زواجه الطويل هذا يقول عنها :

- لقد أمضيت معها أربعة عشر عاماً هي أسعد أيام حياتي كلها ..

لقد علمتني معنى السعادة.

هذه هي أونا أونيل .. التي سألها أحد رجال الصحافة الأمريكية يوم زواجها بشارلي، وكانت في الثامنة عشرة من عمرها ، قال لها :

- لماذا اخترت مزواجاً يبلغ عمره ثلاثة أضعاف عمرك ..؟

وجاءت إجابتها الباسمة :

- إن زواجي بشارلي زواج «إيزوتوري» .. مبني على اتحاد ذي طقوس لها أسرارها وتقاليدها الخاصة.

وتحير رجل الصحافة المسكين في فهم هذه «الإيزوتورية» وشرحها وشرح طقوسها وتقاليدها .. وتحير معه القراء، آمل ألا تطول بك حيرتك.

وشارلي رب أسرة ناجح سعيد بأسرته .. وهو أب من الطراز الأول.. إن هذا الفنان العظيم الذي قدم أقوى تعبير عاطفي للأبوة وللبنوة عرفته السينما في فيلمه «الغلام» ، يقدم لأطفاله شخصياً ما سبق أن قدمه على الشاشة لكل أطفال الدنيا.. الحنان والحب والرعاية .. ولا تعرف هذه الباقة الجميلة من أطفاله عن «شارلي شابلن» إلا شارلي الوالد الفكه الخفيف الظل والروح .. زميل لعبهم ولهوهم ومرحهم، وحسب صغاره هذه المعرفة. إنه يحقق لهم كل ما حرم هو منه في طفولته القاسية.. تلك الطفولة التي تعيش في خياله بجوار طفولة هؤلاء الأبناء أمامه .. إنه مازال يذكرها جيداً ذكراً يرافق طفولاتهم السعيدة هذه التي يقدمها لهم، إنه يذكرها حتى اليوم:

- تلك الأيام البعيدة .. كنت فيها فريسة للجوع الذي يمتلك شبحه كياني ويستحوذ على مشاعري، كما كنت فريسة للخوف من الغد .. الخوف الدائم من اليوم الذي سيجئ .. لن تقدر أبداً أية ثروة.. ولن يقدر أبدا أي رخاء على انتشالي اليوم من ذلك الخوف والفزع الذي تملكني .. أنا أحيا كرجل استحوذ عليه شبح مسيطر لا يفارقه .. شبح الفقر والحرمان .

وحسب أبنائه الصغار السعداء بوالدهم ما يعرفونه عنه : زميل لعبهم ولهوهم ومرحهم.

لقد كان صغيراً يوماً ، كان طفلاً .

وحسبه هو أن الزمن قد مر علي ملامح طفلنا ذاك اليتيم الأب .. الذي كفلته أمه، وحسبه هو أن الزمن قد مر عليه وترك بصماته على ملامح وجهه .. والحق أن الزمن قد عمق من الأغوار التي تبدو بين تجاعيد هذه الملامح، لكن روح شارلي الشابة تملأ كل هذه الأغوار فتضيء الوجه الخالد الشباب .. وهو يقترب من السبعين من عمره.

واليوم يطالعك شارلي، وشعره الأبيض كضوء القمر فضة تكسو الدماغ الذي قدم للإنسانية ثروة كبيرة من الغنى الروحي .. ساعد، ويساعد، وسيساعد على إنهاض إنسانيتنا من كبوتها. ولشارلي زرقة عميقة تلون عينيه .. ولقدزادت هذه الزرقة اليوم عمقاً، وفي أغوارها يقيم الحزن الذي غلف طفولته .. ومازال يطيل من إقامته هذه ويجددها كأنها استعمار، ولكن .. يقبع السلام في هذه العيون. إنه انعكاس طبيعي للإنسان الذي تتجانس عنده الأقوال والأعمال، ويتوحد عنده المبدأ والغرض من أجل رسالة للناس أجل من نفسه.

عاش شارلي طيلة حياته من أجل رسالته، ولم تغير الثروة الخرافية – التي سعت إليه – رسالته أبداً ، ولم تغير الشهرة من طريقة تفكير ه . صعد من أول السلم إلى أعلى القمة، ومع ذلك لم يتغير ولم يفكر في النكوص على أعقابه ولم يخطر التراجع على باله قط .. بل استمر في تقدمه فجاوز القمة ذاتها . وقد يذهل النجاح العريض بعض المفكرين الفنانين .. ولكن تماسك شخصية شارلي وتكاملها حفظاه من الزلل وجنباه الانزلاق ، ذلك لأنه لا يعيش للوصول إلى مأرب فردي خاص يريده لنفسه .. بل للوصول إلى مآرب جماعية عامة يريدها الناس جميعاً.

هذه هي رسالته ..

وفي أول أهدافها .. حرية الإنسان وسلامه.

ويكرس شارلي جانباً كبيراً من فنه للدعوة للحرية والسلام بين الناس بعضهم وبعض، وبين الشعوب بعضها وبعض .. ليجنب الإنسان ويلات الحرب .. وهو لا يكتفي في هذا بفنه وحده .. بل يعمل كل جهده للمشاركة وللتأييد الأدبي والمادي لدعوات السلام ومنع الحروب .. أينما كانت هذه الدعوات.

وهو يؤيد تأييداً مطلقاً الدعوة لمنع التجارب الذرية والهيدروجينية التي تهددنا وتهدد حضارتنا بالفناء .. وتهدد قبل هذا السلام العالمي.

ولقد أثار الجانب الإنساني من رسالته هذه – التي احتوى بعضها فيلم «مسيو فردو» – ضجة كبيرة في فرنسا بوجه خاص، مما دعى «الاتحاد الفرنسي لنقاد السينما» إلى المطالبة بإعطاء جائزة نوبل للسلام لشارلي شابلن على اعتبار أن أفلامه الثلاثة الأخيرة وقتئذ «العصر الحديث» و «الديكتاتور

العظيم» و «مسيو فردو» إسهام فعال منقطع النظير للدعوة للسلم.

وشق النفوذ الأمريكي طريقه إلى اللجان المنوط بها توزيع الجوائز، وطارت جائزة نوبل .. من شارلي..

واكتفي عزيزنا بجائزة الشعوب .. التي تقبل جماهيرها في كل مكان على أفلامه، ومازالت الشعوب تعطى لشارلي جائزتها هذه ٣٦٥ مرة في كل سنة .. وفي بعض السنوات ٣٦٦ مرة.

**

وجاءت هذه السنة .١٩٥٨

وقد نظمت إدارة معرض بروكسل الدولي - في بلجيكا - مهرجاناً جديداً .. لاختيار أفضل الأفلام التي أنتجها العالم منذ ميلاد السينما حتى يومنا هذا .. ولاختيار أفضل المخرجين.

واختارت إدارة المعرض لهذا الغرض ١١٧ شخصية كبيرة من الفنانين والنقاد العالميين .. ليدرسوا خير الأفلام المنتجة منذ فجر السينما، واستمرت دارستهم هذه سنة كاملة .. وفي مساء ١٧ سبتمبر ١٩٥٨ أعلنوا نتيجة بحثهم، وإليك ما يهمنا منها :

كبير مخرجي العالم .. شارلي شابلن..

لقد نال هذا اللقب بجدارة، وبأغلبية ساحقة .. ومبروك يا عزيزي شارلي .. وألف مبروك..

نهـــاية

عزيزي شارلي

عزيري شارلي ..

عزيزي شارلي..

كيف أنهي كتابي هذا إليك ..؟

إن أحداث العالم تلف أبناءه .. وتلفك وتلفني معها في دوامتها، التي نحياها في النصف الثاني من هذا القرن العشرين .و أنا إذ أذكر الساعة هذه الأحداث، لا أذكر صادقا منها إلا حدثين اثنين .. هزني كل منهما هزةً تصاحبني رجفتها حتي كتابة ما تخطه يدي على هذا السطر الذي تقرأ، هزني كلا الحدثين مثلما هزني ضرب العسكري الغليظ القلب لك .. في ذاك الفيلم الذي رآك فيه صبينا الصغير منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت.

أنت يا شارلي مرتبط بهذين الحدثين ارتباطك بذاك الفيلم .. الذي رأيته لك ، وتأثيرك على صبينا الصغير الذي أفزعته القسوة التي وقعت عليك .. هو تأثير هذين الحدثين نفسه عليّ، والقسوة فيهما هي القسوة نفسها .. بل أشد وأكثر هولاً.

٦ أغسطس ١٩٤٥

هو تاريخ الحدث الأول ، ففي الساعة السابعة والنصف من صباحه .. قتل غلام صغير وحده سبعين ألف نسمة في ثانية واحدة ..

و «ليتل بوي » أي «الغلام الصغير» .. هو اسم «الدلع» الذي أطلقه المسئولون الأمريكان علي قنبلتهم الذرية الأولى، التي ألقوها على هيروشيما صباح ذاك اليوم المشئوم من سنة ١٩٤٥ - أليس من العجب حقاً ومن السخرية حقاً .. أن تسمى هذه القنبلة المفنية لسبعين ألف نسمة في ثانية واحدة «الغلام الصغير» .. ؟ ياله من «دلع» أمريكي حقاً ..!

والحدث الثاني :

٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - يوم العدوان الثلاثي على مصر، العدوان الذي شنه الاستعمار البريطاني الذي كانت الشمس لاتغرب عن ممتلكاته .. تصاحبه فرنسا مجرمة الجزائر .. وتصاحبهما إسرائيل، وأمريكا من خلف هؤلاء المعتدين جميعاً تمدهم بالأسلحة وبغير الأسلحة. هذا العدوان الرباعى الذي ثار له ضمير الرأي العالمي.

وكما علمت ما كان من موقفك تجاه الحدث الأول من العدوان العالمي، علمت ما كان من موقفك تجاه الحدث الثاني من العدوان علي بلادي في بورسعيد.

ولا أملك إلا أن أقول لك .. شكراً.

**

وقف عزيزنا شارلي بجوار جمهوريتنا الشابة وشعبها المكافح .. يوم كانت الجمهورية وشعبها في حاجة حيوية إلى مناصرة الرأي العام العالمي لقضيتها العادلة الخاصة بتأميم قناتها، وحقها المطلق في الاحتفاظ بسيادة أراضيها وحريتها وسلامها .. كان يتابع أحداث بلادنا يوماً بيوم، ويترجم صديق عربي له إذاعة القاهرة .. حتى يقف بنفسه على حقيقة أنباء المقاومة الشعبية، لكي يعرف حقيقة أنباء المعتدين على استقلال وحرية هذه الجمهورية الشابة .. التي وقفت في جرأة نادرة رائعة - تعيد للإنسانية ثقتها بنفسها - لتقول لطغيان الاستعمار المتجبر :

- لا

لقد هزت شارلي هذه الجمهورية الأصيلة العارفة لحقوقها .. والتي خرج منها عبد الناصر، والتي جعلت المعجزات تسير في ركابه .. حتى أصبحت المعجزات «روتيناً» في حياة بلادنا .. في أيام رجل المعجزات هذا الذي أنبته صعيد مصر.

أدلي شارلي بحديث صحفي نشرته وترجمته له أكثر من جريدة ومجلة فنية وغير فنية. لم يمنعه من تصريحاته المستنكرة للعدوان علينا أن أهم المعتدين هم رجال حكومة بلاده انجلترا، ولقد عادي شارلي -٠ المنصف للحق - حكومة بلاده هذه من أجل قضية شعب لا تربطه به صلة.. إلا صلة الحق والعدالة والإنسانية ، ووقف في صف بلادنا ضد حكومة بلاده .. في وقت هو فيه في أشد حاجه إلى الاحتفاظ بجنسيته الإنجليزية .. بعدما كان من موقفه من أمريكا وموقف حكومتها منه.

قال شارلي للصحفيين :

- إن واجب أدباء العالم وكتابه اليوم هو الكتابة عن الكفاح الشعبي المسلح في مصر، وأن هذه المهمة ليست مهمة أدباء مصر وحدهم .. بل هي أيضاً واجب الأدباء والكتاب الشرفاء في العالم كله.

وقال :

- إن مصير الاستعمار حتماً إلى زوال . إنه لا يبني سياسته على أسس علمية، ولذلك يعتقد

المستعمرون اليوم أن هزيمة الشعوب لا تستحيل عليهم. إن قواعد الاستعمار العسكرية كإسرائيل وغيرها .. ستلغي جميعها بإرادة الشعوب ..

ثم قال عن إسرائيل :

- إن الدولة التي يقوم كيانها على دعوة عنصرية دينية .. لا يمكن لها أن تعيش، ولا يمكن لها البقاء. لقد أقام الاستعمار إسرائيل لتصبح قاعدة له في الشرق الأوسط، يضرب منها شعوب هذه المنطقة كلما أرادت الثورة عليه أو الاستقلال عنه.

هذه هي بعض آرائه وتصريحاته إبان معركة بورسعيد، وكلها تقف معنا في جانب معسكر الحرية والسلام .. ضد المعتدين علينا، وفي مقدمتهم بريطانيا .. بلاده.

وعزيزنا - كما سبق أن قلت لك - في مقدمة فرسان الحرية والسلام.

ما أشد حاجتنا اليوم وأحداث العالم تلف أبناءه في دوامتها .. والاستعمار العجوز يحتضر في بريطانيا وفرنسا وشريكاتهما .. والاستعمار الأمريكي الصبي يحاول الاستيلاء على تركة جده العجوز المحتضر في كل مكان .. ما أشد حاجتنا هذا اليوم سنة ١٩٥٨ أن تذكر ما سبق أن قاله شارلي سنة ١٩٤٠ في نهاية فيلمه «الديكتاتور العظيم» .. منذ ثمانية عشر عاماً :

« لا تيأسوا .. ما البؤس الذي يخيم علينا إلا علامة انقشاع الطمع وانتهاء عهد الشر» ، ما هو إلا مرارة الرجال الخائفين من تقدم الإنسانية..

وطالما يموت الرجال .. لن تُفقد الحرية أبداً.

أيها الجنود .. لا تحاربوا من أجل الاستعباد .. حاربوا من أجل الحرية .

أنتم الناس أصحاب القدرة ، القدرة على خلق الآلات، والقدرة على خلق السعادة. أنتم الناس القادرون علي جعل الحياة حرة وجميلة .. فلتجعلوا هذه الحياة مغامرة بديعة.

ومن أجل ذلك .. فلنستعمل هذه القدرة باسم الديمقراطية، دعنا نتحد جميعاً، دعنا نحارب ونكافح من أجل عالم جديد..».

حقاً وحقيقةً ..

وما أجدرنا هنا - في الشرق العربي - أن نتحد جميعاً، ونحارب ونكافح من أجل عالم جديد .. تختفي من قواميسه كلمة «الاستعمار» .. ويحل محلها «التعمير».

عزيزي القارىء ..

كيف أنهي كتابي هذا إليه ..؟

كامل التلمساني

الفهرس العام

صدرت فى هذه السلسلة

